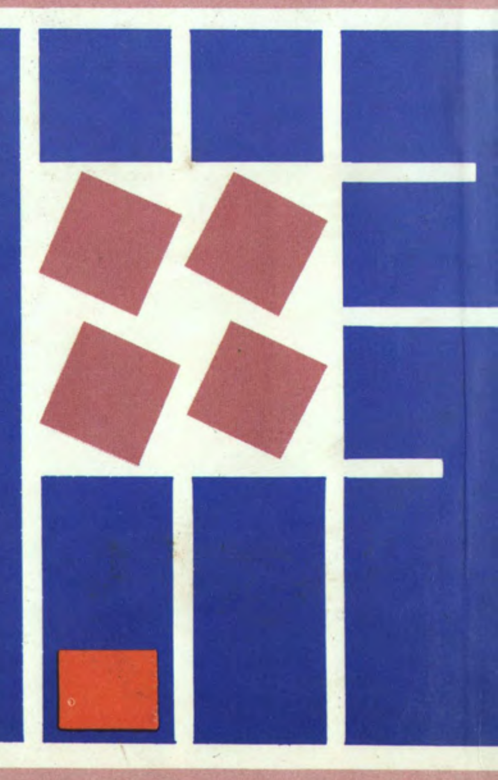
علي مصطفى المصراتي

سعدون

البطل الشهيد

صفحة من نضال الشعب الليبي



المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان
طرابلس - الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

علي مصطفى المصراتي



سعدون

البطل الشهيد

صفحة من نضال الشعب الليبي

المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان
طرابلس - الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

الطبعة الأولى

1964 م

الطبعة الثالثة

1394 و. ر. ـ 1985 م

الكمية المطبوعة : 3000 نسخة

المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان
طرابلس ـ الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

ص.ب 959 مبرق 20235 "نيتليبيا"



﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾.

سورة البقرة

* * *

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾.

سورة آل عمران

الإهــداء

إلى البطل الشهيد محمد سعدون.

إلى الأبطال الذين جادوا بأرواحهم في سبيل الحق والوطن.

إلى الشهداء الذين جعلوا من صدورهم وجماجمهم قمة ترتكز عليها راية الحرية.

إلى الجنود والضباط المجاهدين المجهولين الذين لاقوْا ربهم في بسمة الإيمان والاعتزاز.

إلى النسوة من المواطنات اللائي قدمن فلذات الأكباد للميدان البطولي.

إلى النسوة اللائي حملن السلاح وداوين الجرحى وقدمن الوقود للمعركة المقدسة.

إلى هؤلاء جميعاً من أبطال المعارك الخالدة.

أقدم كتابي هذا.

على مصطفى المصراتى

سعدون في سطور

* محمد سعدون الشتيوي.
* وُلِد في مدينة مصراتة، بطرابلس الغرب حوالي 1893م.
* تلقى تعليمه الأولي بمدرسة زاوية المحجوب.
* هو الأخ الأصغر للمجاهد رمضان الشتيوي.
* امتاز بالفروسية والشجاعة، والصراحة، وقوة الإرادة.
* نفته إيطاليا بعد انتصار المجاهدين في معركة القرضابية عام 1915م.
* كان أصغر المنفيين والمعتقلين.
* تحمل عناء السجن والنفي في جزيرة «سراكوزا» بإيطاليا ثلاث سنوات.
* أطلق سراحه بعد إتفاقية الصلح المبرمة مع الحكومة الوطنية عام 1918م.
* بعد عودته من منفاه ساهم في المعارك الوطنية بصورة فعّالة.
* كان رئيساً للجيش الوطني وكتائب المجاهدين في شطوط المنطقة الشرقية من طرابلس.
* لم يترك الزي العسكري طيلة أيام المعارك التي خاضها.
* من أبرز المعارك التي قادها وخاض غمارها:

  معركة ساحل مصراتة، معركة السبت الدامية.

  معركة عين كعام ـ معركة السلحيبة ـ النقازة ـ معركة المشرّك.
* في يوم 4 مايو 1923 م استشهد في معركة المشرّك.
* دفن جثمانه في منطقة «السدادة» بالصحراء وقبره وحده في الطريق.



نومرو .... جلد ....

تذكرة الماذونية

اسماء	اسم القبيلة والقضاء	مده المأذونية
عبدالله محمد شبيك	زاوية مسلم	[illegible]

ماذونه مستمرة ايام .... من تاريخ ١ ربيع الثاني
الى نهايت ٧ عند .... وللبياز حرر

في ١ ربيع الثاني ١٣٤١

قمندان العموم
[illegible]

تذكرة مأذونية كان سعدون قد أعطاها لأحد جنوده بتاريخ أول ربيع الثاني 1341 ويظهر عليها توقيعه.



خال سعدون «شتيوي الكريك» يروي للمؤلف ذكرياته ومعلوماته عن سعدون.

٢٨

رث بينهم أحمد رشيد و

بينهم الاعيان كلهم مسجونين وفي حالة صعبة اقفال للقبطان

ال سير اكتب جواب الي حكومتك وأخبرهم بعد ما حصل لك من الحرب

كتب القبطان ثلكي جواب الي قايد مصراتة يقول فيه أنا وفرقة من الاسر

في يد العرب بعد أن اصابة في ركبتي الشمال والعظم سليم ومعي بقية عسكر

وحصلوا الاسر والعرب عاملوني بمعاملة حسنه فبعث رمضان اشتيوي

عنه واحد يقرئ بان ما في ليس [illegible] ال والد [illegible] القراه

فسند عاه وعطاه الجواب الذي كتبه القبطان ثلكي ورمضان ايضا

كتب جواب الى القايد الطلياني بمصراتة يقول له فيه بلغني انكم

مشددين على الناس المساجين فخليهم اذا حصل شيء منكم فانا

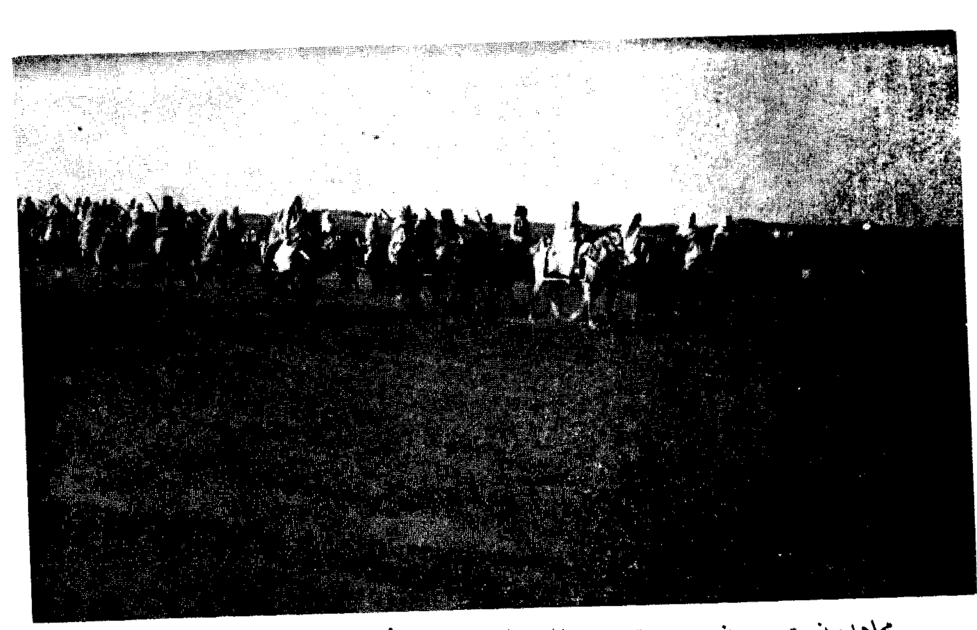
نرسلك الذي تحت يدي وقال من يوصل هذه البسطة الي الطليان فلباه

احد المجاهدين سعد محمد سليمان ابو حجر وقال أنا نرفعها فسلم

صفحة من مذكرات الضابط المجاهد ـ السنوسي أبو القاسم الذي ساهم في المعارك مع سعدون.



طلقات الجهاد من أجل الحرية



مجاهدون يتوجهون بعزم وتصميم إلى ساحة المعركة أيام بطولات سعدون وأمثاله.



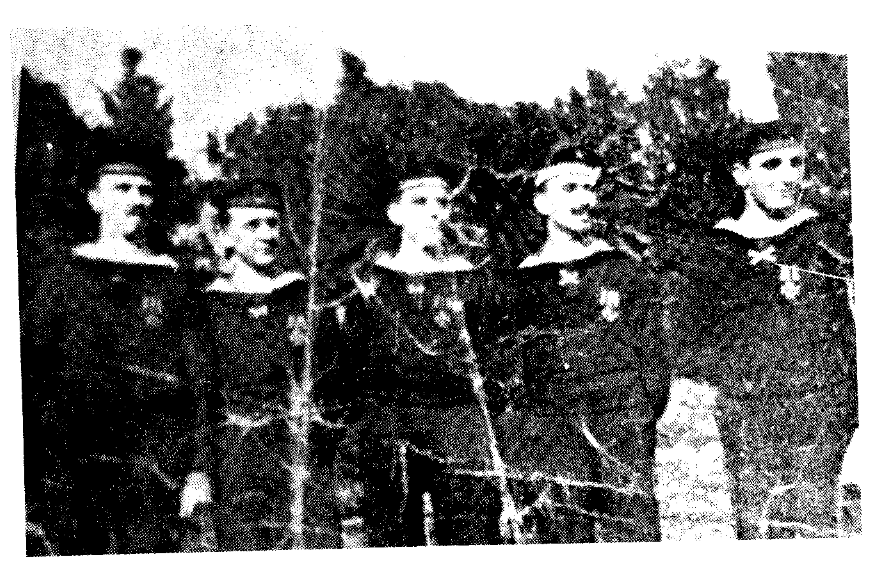
المجاهدون يلبون نداء الواجب.



المعركة محتدمة.. والنصر في النهاية للمجاهدين الأحرار.

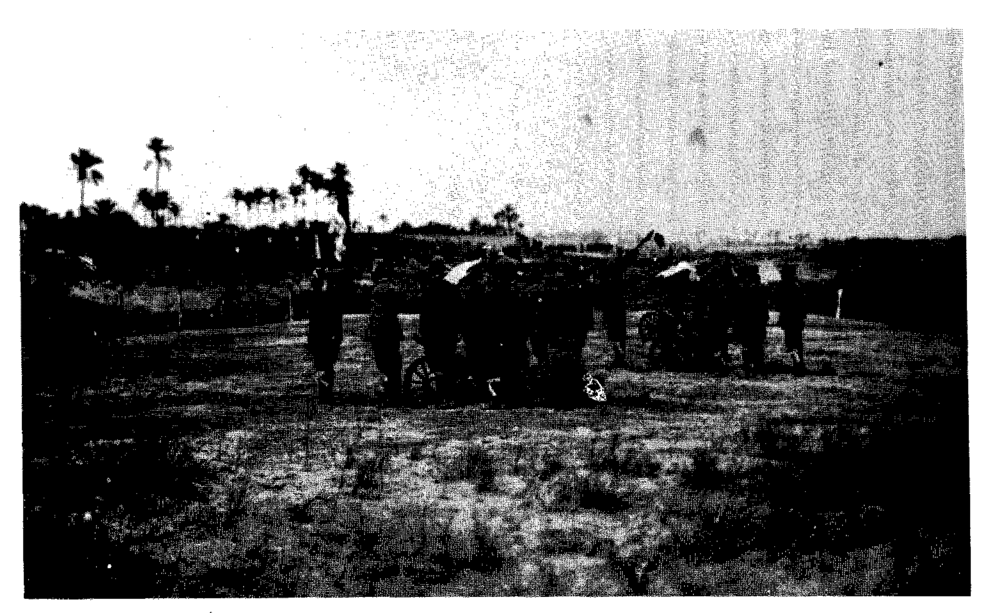


المجاهدون يتسلمون الأسلحة من الغواصة.



بحارة الغواصة التي كانت تحمل الأسلحة إلى المجاهدين أيام سعدون.





صورتان تاريخيتان تمثلان قوات الاستعمار الطلياني وهي في بداية غزوها للأراضي الليبية.



فريق من المجاهدين الليبيين يتوجهون إلى ساحة الشرف.



إنطلاقة الفرسان في ساحة الشرف من أجل الوطن.

مقدمه

سعدون البطل.

سعدون المجاهد الشهيد.

إسم يلمع في سجل النضال، ويشير إلى معدن هذا الشعب.

مصباح من مصابيح الطريق الطويل.

مثل نابض من مثل الشجاعة والفروسية.

مناضل قاد الكتائب دفاعاً عن حمى الوطن والعقيدة.

قدم روحه عصارة ووقوداً للهب المقدس.

في اسمه رهبة الحق.

وفي سجل تضحياته قدسية الواجب.

وفي صراعه مع الاستعمار قصة بطولة عربية.

من تاريخ حياته يفوح عبق النضال.

وينتشر نور فيه وهج الإيمان.

لبنة قوية في صرح جهاد هذه الأمة.

وصفحة كتبت بالبارود والنار والنور في كتاب الوطنية.

ذاق طعم السجون والمنافي.

وبات الليالي الطوال يفترش الحصباء، ويتوسد الصخر، وأصابعه على زناده يواصل الجهاد من معركة إلى معركة، ومن معمعة عنيفة إلى ما هي أشد هولاً.

قاد فيالق الجيش الوطني المنظم وكتائب المجاهدين.

يصد قوات أسطول الإمبراطورية الإيطالية، في جرأة الأحرار، وعزم المؤمنين الأباة، بروح فدائية حارب الاستعمار ونازل قواته وطوابيره وصنائعه وطائراته ودباباته.

حتى عرف الاستعمار الإيطالي من هو سعدون!.
وأرسل لمنازلته الجنرالات والطوابير الجرارة.
وأبدل خططه العسكرية أكثر من مرة.
وألقى القنابل ونوّع في الأسلحة وبذّر المال.
ولكن البطل (محمد سعدون) ومعه المجاهدون وقفوا في الميدان وقفة الشموخ والاعتزاز، واتخذ أولئك الضباط والجنود والمجاهدون شباناً وشيباً.. مدنيين وعسكريين، اتخذوا من صدورهم سوراً فولاذياً، ومن جماجمهم قلعة حصينة من أجل الدفاع عن حمى الوطن الليبي وحريته.

* * *

وأصبحت تلك المعارك الوطنية والمواقع البطولية التي خاضها الشعب صفحات مطوية.
وهي ثروة في تاريخ البطولات.

وكنا ونحن أطفال صغار، وقد نشأنا بعد استشهاد سعدون وصحبه كنا نلثغ باسم سعدون وأسماء الأبطال المناضلين في شتى أنحاء الوطن العزيز.

كنا نستمع إلى أهلنا وهم يسردون ذكريات النضال ويصفون المعارك ويرسمون في ذهننا صورة لأولئك المجاهدين.

وكان سعدون الشاب الشهيد دائماً يذكر الناسُ كباراً وصغاراً نساء ورجالاً اسمَه بهالة من التقديس والتقدير.

أعجوبة يكاد أن يصبح أسطورة من بطولات صادقة.
وكبرنا.. وتباعد الزمن.
وكادت أن تبتلعنا الهجرة ومشاغل الدراسة ومشاكل الحياة.

ثم رأيت من واجب القلم أن ألتفت إلى تلك الحقبة، فقد شعرت بهذا الفراغ الموحش في المكتبة الليبية.

تاريخ نضال هذا الشعب يكاد أن يطمس كآثار أقدام في الرمال تذروها رياح ويجرفها موج.

قبسات النور في سجل الجهاد هل تطمس؟.
لقد آن لهذا الشعب أن يلتفت إلى أقباس أمجاده.

وأخذت جاهداً أفتش عن تلك الأسماء اللامعة في مدارج النضال وساحاته.

تلك الأسماء التي حفرت مجدها بدم الشهداء الزكي وحفرت حقيقة وجودها بجهادها البطولي.

حتى المستعمرون الأعداء في تقاريرهم وكتبهم شهدوا بصلابة نضال المجاهدين وقوة مراسهم.

فهل نترك عوامل النسيان والإهمال تمحو صور البطولة والرجولة!.

ويكاد محمد سعدون البطل الشهيد المجاهد أن يتوارى وراء الأفق ويكتنفه الضباب كما تكتنف الرمال قبره في جوف الصحراء عند طريق (السدادة).

كاد أن يصبح نسياً منسياً ذلك الشاب الذي أرعب الاستعمار وقاتل في سبيل الحق والوطن.

وشمرت عن ساعدي لأكتب عن سعدون البطل الذي خاض المعارك في أحلك الظروف، وأعصب الأوقات.

ولم يخضع رأسه، ولم تلن قناته.
حتى سقط شهيداً في أشرف ساحة.
ومنذ سنوات وأنا أجمع المعلومات وأهيىء هذه الدراسة.
وأضم الخيوط، وألملم السطور.

ومن أجل البحث عن حياة سعدون وتاريخ كفاحه.

ما تركت إنساناً عرفه والتقى به، أو كانت له به صلة أو ساهم معه في المعارك البطولية إلّا ذهبت إليه، أو راسلته.

وقطعت البلاد الليبية بالطول والعرض، سواء في طرابلس أو برقة أو فزان في الشطوط والمدن والقرى.

وسافرت إلى البلدان العربية للبحث عن زملاء سعدون من المجاهدين والجنود والضباط الذين بقوا على قيد الحياة.

هؤلاء مصدر من التاريخ النضالي لهذا الشعب ولتلك الحقبة.

ووجدنا بعضاً من المعاصرين للبطل سعدون من رفاقه المهاجرين في القاهرة والإسكندرية والصحراء الغربية العامرية، والحمام، ومرسى مطروح.

وآخرين في بغداد ودمشق ولبنان وتركيا والأردن.

وذهبت إلى البيت الذي وُلِد فيه سعدون.

والمدرسة التي تعلم فيها.

وبحثت عن بقية زملائه في أيام طفولته وصباه الذين كانوا يلعبون معه ويمرحون.

وسافرت أيضاً إلى المكان الذي سجن فيه بجزيرة سراكوزا بإيطاليا.

وذهبت إلى الأماكن التي خاض فيها المعارك الحربية في شطوط مصراتة، قصر أحمد، وعين كعام، والسلحيبة النقازة، والمشرّك، والسدادة.

وإلى المكان الذي سقط فيه شهيداً في آخر معركة له في منطقة «المشرّك».

ودرست فترة النضال والواقع السياسي والاجتماعي لتلك الحقبة.

والمشاكل التي كانت تكتنف نضال الشعب الليبي المجاهد.

وفي مجال الاهتمام بإبراز الملامح لشخصية سعدون، بجانب الاتصال بأهله وزملائه وأقاربه.

فقد جلست إلى خاله الذي عرفه في طفولته وصباه وشبابه.

كما ساعدني على إبراز هذه الدراسة وتسليط الضوء على جوانب من حياته العسكرية ومعاركه إني عثرت أيضاً على مذكرات لأحد الضباط المجاهدين الذين كانوا في صفوف «سعدون» إلى آخر معركة.

وهو ابن عمنا المرحوم السنوسي بن أبو القاسم.

وكنت قد رجوته أن يسجل ذكرياته والمعارك التي ساهم فيها، كان ذلك منذ سنوات.

وقد وجدت هذه المذكرات بعد وفاته، وكان قد شرع في جمعها وهي لدي بخط يده.

كما أني قد جلست جلسات طويلة مع الضباط الذين ساهموا مع سعدون في الجهاد وكانوا بجانبه إلى يوم المعركة التي استشهد فيها بمنطقة «المشرّك».

* **علي إبراهيم القن**

ذهبت إليه في مرسى مطروح وهو طريح الفراش. ومع ذلك أخذ يستعرض مواقف النضال في صفاء ذهن وذاكرة قوية وقد عرضت عليه هذه الدراسة وأكد لي صحة هذه المواقع والأسماء والأماكن.

* **عبد الله السركسي** وهو أحد الضباط القدامى وخريج مدارس اسطانبول العسكرية.

* **محمد الفقي.**
* **الهادي الزريدي.**
* **إبراهيم شنينة.**
* **محمد عطية الورشفاني.**
* **مصطفى الجزيري.**
* **محمد بن عباس.**
* وشقيقي الأكبر (**أحمد مصطفى**) الذي كان جندياً في جيش سعدون.

وكذلك المرحومين **أحمد الشافعي وعلي الجابرية** وعشرات من الضباط القدماء والجنود والمجاهدين.

وكنت أتحرى المعلومات بدقة وأستعرضها على الذين حضروا المعارك أكثر من مرة للتأكيد والتصحيح.

وهكذا لجأت إلى طريق السند وتأكيد الرواية الصحيحة على منهج القدامى في بحثهم وتحرّيهم الحقيقة حتى تأخذ هذه الدراسة وذلك الاستعراض الثوب الحقيقي ولا سيما أن المصادر الورقية والسجلات لظروف البلاد وكوارث الاستعمار قد ضاع أكثرها.

لقد حاولت في هذا الكتاب أن أبرز صورة واضحة عن البطل محمد سعدون وملامحه من عهد طفولته إلى أن لقي ربه شهيداً في ساحة الشرف.

كما ترجمت عن الكتب الإيطالية والبلاغات الحربية الشيء الذي تحتاجه هذه الدراسة.

وبعـد،

هذا كتاب نقدمه عن سعدون الشهيد للقارىء العربي ليرى صورة صادقة عن حياة بطل مجاهد في سبيل الحرية والوطن ومقومات العروبة هي صفحة من نضال شعب ليبيا نعتز بها لأنها ترتبط بمثل عليا، وكرامة مقدسة.

وآمل أن أقدم صوراً أخرى وحلقات من بطولات هذا الشعب المجاهد.
وهل هناك أعز من حرية هذا الشعب الذي دفع ثمن حريته مهراً غالياً.
رحمات الله على سعدون.
ورحمات من الله على جميع الأبطال والمجاهدين والشهداء الأحرار.

على مصطفى المصراتى

6 - يونيو 1964
طرابلس الغرب - ليبيا

من هو سعدون

محمد سعـدون.

كان مولده حوالي 1893م. بزاوية «المحجوب» بمنطقة «أم البخور» بمدينة مصراتة.

والده الشتيوي بن أحمد السويحلي الذي كان يمتاز بالفروسية والشجاعة وقد توفي هذا الوالد في عام 1337هـ ـ 1918م ودفن بمدينة طرابلس.

* * *

والدة «سعدون» هي السيدة إمْنَى بنت الحاج سالم الكريك.

كان محمد سعدون سابع إخوته وأصغرهم.

ومع أنه الأصغر فلم يفسده الحنان والدلال بل تربى في جو عائلي.

مرن على الجد والمثابرة والصرامة.

كان الأخ الأكبر له «رمضان» ذو الشخصية الفذة والهيبة ثم «أحمد» و «فاطمة» و «أم السعد» و «عيشة» و «حواء».

فله من الإخوة الذكور اثنان.

وأربعة من الاناث.

* * *

درج سعدون في بيت من البيوتات التي يقدرها أهل البلد.

وشأن تربية الفروسية في تلك الأزمان فقد شهدت الوديان أنواعاً من مغامرات الفروسية. وتروي الجدات عن تلك الحقب أقاصيص ومرويات عن

مصاولات ومغامرات يقوم بها فرسان المنطقة على صهوة خيولهم، تنم تلك الوقائع عن ألوان من المغامرات والسطوة. .

ومن بين هذه البيوتات. . بيت اشتيوي.

التي اشتهرت بألوان الفروسية وكرم المحتد.

وكان هذا الابن الصغير قد ظهرت عليه معالم الذكاء والنشاط والعناد والإصرار منذ صباه.

* * *

كان أسمر اللون تميل سمرته إلى الصفرة قليلاً.

جميل الملامح والتقاطيع.

له شارب خفيف صغير.

وعينه اليسرى بها حول خفيف.

طويل القامـة.

خفيف الجسم أقرب ما يكون إلى النحافة منه إلى السمنة.

سريع الحركة نشيطاً.

عصبي الانفعال، حاد التوتر، والتأثيـر.

جريئاً أكثر ما تكون الجرأة، إرادته ممزوجة بالعزم الفولاذي.

* * *

درس المبادىء التعليمية في المدرسة الملحقة بجامع «الفحول» في قريته ـ زاوية المحجوب ـ التي هي إحدى ضواحي مدينة مصراتة.

كما درّس أيضاً في نفس المدرسة زاوية المحجوب.

تلك المدرسة الدينية التي كانت تعج بطلاب العلم من أبناء مصراتة والبلدان الأخرى من الدواخل، من الساحل والبادية.

ولكن الشاب ـ محمد سعدون ـ لم يواصل السير في دراسته فقد مكث في سلك الطلاب فترة غير طويلة.

وفي الأيام التي قضاها في سلك الدراسة بزاوية المحجوب كان ينزل عند أسرة «عزوز».

فقد كان هناك صديقه «إبراهيم عزوز» من أبناء هذه الناحية بينما كان الطلاب الآخرون يقيمون في «خلوات» بالزاوية.

* * *

كان من أساتذته في المرحلة التعليمية:

* الشيخ مختار الغرياني.
* الحاج محمد قزيط.

تلقّى عليهما في المرحلة الأولية في «الكتّاب» فك الخط ومبادىء الهجاء والمطالعة.

وكان من مدرسي تلك الفترة:

* الفقي السوسي.
* الشيخ عبد السلام قاجة.

درس على الأول شيئاً من القرآن الكريم.
شأن مناهج التعليم والتربية في تلك الآونة.

وتلقّى على الثاني شيئاً من علوم الشريعة وما يتعلق بها من مواد كانت تدرس في زاوية المحجوب والزوايا الأخرى التي كانت تقوم برسالة التدريس والتثقيف.

* * *

ولكن حياة الدراسة الرتيبة.
وذلك الجو الذي كانت فيه الحياة أقرب ما تكون إلى الاعتكاف والتبتل لم ترق ولم توافق مزاج الشاب المتوثب المنطلق.

ضاق ذرعاً بهذه الدراسة.
ولم يرضَ أن ينخرط أو يطول به المقام في هذه المسالك.
فقد كان الشاب مغرماً بالفروسية.

جانحاً إلى رحاب الإنطلاق.
فهو يريد أن ينغمس في الحياة وتجاربها في ساحات أكثر رحابة.
كان ميله إلى صهوة الجياد.
وتصويب الهدف والصراع والسباق.

وشغفه بأنواع الرياضة أكثر منه ميلاً إلى مسالك الدراسة الرتيبة والكتب المتداولة.

فهو يفضل جولة على جواده.

وأن تداعب أصابعه زناد بندقيته أحب إليه من قعدة في ركن مظلم أو اجترار ليالٍ في همهمات لا يطيقها.

لم تألف نفسه حياة الخلاوي المنتشرة في المدارس القديمة والملحقة بالمساجد مع أن علاقته مع أساتذته وزملائه الطلاب كان طابعها الاحترام التقليدي والتقدير المتبادل.

* * *

ومن أنواع الرياضة التي كان يمارسها «سعدون» وشغف بها:
* ركوب الخيل.
* إصابة الهدف ـ الرماية.
* السباحة.
* لعب الكرة.

فهو يسابق زملاءه وقد ساعده جسمه النحيل على السباق وقصب السبق وهو يثب على الخيل وثباً.
وتراه يتدفق حيوية ونشاطاً.
ويستطيع في مقدرة خارقة أن يصيب الأهداف من بعيد.

ولقرب بيته من الشاطىء فالبلاد على ساحل البحر مرن على السباحة من صغره شأن أبناء السواحل.

* * *

ومن أنواع ألعاب الكرة هناك ما يسمى عندهم «كرة المعاقيف».
وهي لعبة تشبه «الجولف» اللعبة المحببة عند الأمريكان.

كان يتقابل فريقان وفي يد كل لاعب عصا تنتهي بعقفة ويجتهد اللاعب في تثبيت ودقة بضربة مركزة ليدفع الكرة إلى الحفرة الصغيرة في الأرض.

كان سعدون حاذقاً في رياضته وطالما انتصر الفريق الذي يقوده هذا الشاب.

وكان شباب ذلك العهد يتخذ الكرة مصنوعة من جلد الجمل وتكون محشوة بالكتان.

وهناك نوع آخر من أنواع الرياضة التي كان يحبذها كما يحكي لنا زملاؤه الذين عاصروه ولعبوا معه في صباه.

* لعبة الشـاش.
وهي كرة تقذف في الهواء.
كان يتسابق إليها اللاعبون لملاحقتها وهي في الهواء يحاولون التقاطها في خفة ومهارة.

والشاب سعدون ينزل أحياناً من بيته في ضاحية «زاوية المحجوب» إلى مقهى «باتيستا» في قلب مدينة مصراتة وهذا المقهى كان منتدى يلتقي فيه وجهاء البلد وأعيانها.

وكان المقهى يفرش بالحصير الفاخر.
وتقدم فيه الأقداح الصغيرة من القهوة ذات النكهة الطيبة على الطريقة التركية.

ويدخن بعض التجار ـ النرجيلة ـ في استرخاء وهدو.
وتدور الأحاديث والأسمـار.
يستمع رواد المقهى النظيف إلى الأخبار من رواتها.
يحملها المسافرون من أبناء القوافل التجارية التي كانت همزة وصل بين

طرابلس وافريقية وبين طرابلس والمشرق.

كانت هذه الأنباء والأحاديث تدور حول السياسة والاقتصاد وأحوال الشعوب وتطورات الأحداث.

وهناك ألوان من السمر تدور أيضاً في ندوات خاصة كانت تعقد في البيوتات والمرابيع.

وكان من الشباب الملازم لسعدون في سمره وسهره.
* محمد صالح رقيق من قبيلة الغرابة.
وقد استشهد معه في معركة «المشرّك».

* * *

كان سعدون يدخن لفائف الدخان بكثرة.
ومن طبعه المرح ومداعبة أصحابه في بساطة وصدر منشرح.
يطرب للفكاهة والمداعبة.
فهو من النوع المنبسط غير المنقبض.

وكم روى زملاؤه في الحرب والمقاومة ألواناً من المداعبات والفكاهة حتى في أحرج المواقف والأزمات.

لكنه في حالات يقطب سعدون حاجبيه وتثور نفسه حتى لا يستطيع أحد من زملائه وأقرب المقربين إليه أن يكلمه أو يناقشه.

* * *

كانت هناك ـ لازمة ـ لسعدون في حالات الانفعال والغضب عند التأثر النفسي فهو يرسل من فمه صفيراً متواصلاً مقطباً حاجبيه.
عند ذاك يكون ـ البحر هائجاً..
كما كان يعبر ويصفه زملاؤه ومرافقوه.

أما في حالات الصفاء النفسي وانشراح الصدر فهو الشاب البشوش المرح.

كان من لازمته في مثل هذه الحالات بيت من الشعر الشعبي يردده من أنواع فن ـ العَلَم ـ . .

اطـرو عـزيـز يـأتيكم فـرج   عليكم إن ضـاق الحـال[1]

كان زملاء سعدون إذا سمعوا منه تنغيم هذا البيت وترديده أدركوا أن حالته مطمئنة منبسطة.

وقد نشأ سعدون من أيامه الأولى قوي الإرادة جريئاً لا يعرف الخوف أو التردد.

كريماً يبذل ما عنده.
قوي الشخصية، له نظرات حادة فيها بريق العزم.
وتلمح من وراء نظرته الذكاء الوقّاد.
وشدة التأثير في جلسائه ومحدثيه.

فكان هذا الشاب من ذلك النوع الذي تدخره الطبيعة للقيام بدور في جانب من مسرح الوجود.

فكان يفرض احترامه ويبسط سلطانه وسيطرته بقوة شخصيته حتى على من هو أكبر منه سناً وأقدم في وجوده الزمني.

كان الناس إذا شاهدوا سعدون أو جالسوه شعروا بالتقدير له وبالإحترام نحوه والإعجاب به.

فهو من هذه الناحية موهوب مفطور.
أهّلته مواهبه الطبيعية وقوة شخصيته إلى التزعم وقيادة الناس في فترة من أصعب الفترات التي مرت بوطنه.

والصفات النفسية قد لا يمكن تعليلها فهي موهبة وفطرة.

---

(1) اطرو: اذكروا وتفكروا ـ عزيز: الله ـ ومعنى البيت اذكروا الله في حالة الضيق يأتكم الفرج.

وقد سمعنا معاصريه يتحدثون عن عمق التأثير في جلسائه حتى كدنا أن نراه ضرباً من الخيال لولا أن الجميع وكل الذين شاهدوه أكدوا هذا بل أكدته الفترات العصيبة والأحداث التي مرت به يوم أن خاض معارك النضال بعزم وإيمان، لولا قوة شخصيته ونفوذه لانفرط العقد وتقطع الخيط من أول يوم.

ولكنه أثبت وجوده في أرض البطولة والرجولة.
فهو من معدن الرجولة التي لا تعصف بإرادتها العواصف.
وكثير ممن حوله كان أكبر منه سناً أو أكثر تجربة ودراسة.
ولكن نظراته كانت فاحصة، وعمق تأثيره كان جذاباً، وقوة شخصيته كانت لها كفة الرجحان حتى في أحلك الظروف.

* * *

كان سعدون أنيقاً في ملبسه ومظهره.
يلبس الرداء القومي من أجود الأنواع.
ثم ارتدى الزي العسكري في الميدان.

كان يحلق رأسه بالموسى كعادة أهل بلده، ثم في الفترات الأخيرة غدا يرسل شعر رأسه مسدلاً.. طويل الشعر.

حتى أنه عندما سقط من فوق حصانه صريعاً غطى شعرُ رأسه الكثيف المسترسل جبينه ووجهه.

وبذلك الشعر المرسل المسدل لم يستطع الطليان أن يتعرفوا على الشهيد البطل قائد المعركة.. وظنوه شخصاً آخر.. فتركوه.. وكانوا يريدون جره ولو مجندلاً.

* * *

كان سعدون قد تزوج قبل سجنه ونفيه.
والزواج الأول كان من الآنسة حواء بنت الحاج محمد الحاج علي.
مكثت هذه الزوجة معه سنة واحدة.

ثم توفيت. . ودمعت عين الشاب دموع الوفاء للمـأتم السريـع. . بعدها. . نفي الشاب وسجن في إيطاليا.

كان زواجه الأول مبكراً كعادة أهل البلد.

وتزوج مرة أخرى عام 1919 من الآنسة «فاطمة بنت عمر شقلوف السويحلي».

وأنجب من هذه الزوجة **سليمان**.

الذي توفي في الطريق الصحراوي أثناء هجرة القـوافل بعـد انتهاء المقاومة.

كان الطفل سليمان لم يتجاوز العامين من عمره وكانت وفاته في منطقة صحراوية تسمى «أم الغرانيق».

وسكينة ـ وهي بكرة سعدون.

وتوفيت أيضاً طفلة صغيرة بمدينة «الفيوم» بمصـر دون الرابعـة من عمرها.

ولـه ولد اسمه **سالم** أنجبه سعدون من زوجة ثالثة سمراء. . ولا زال حياً حتى كتابة هذه السطور.



سجن ونفي

وسعدون لم يدخل مدينة طرابلس إلّا وهو مكبل بالحديد مساق إلى السجن من طرف القوات الإيطالية.

وكان القبض عليه مع أخيه ـ أحمد ـ في أيام معركة «القرضابية» بعد انتصار المجاهدين والموقف البطولي الذي وقفه أخوه ـ رمضان الشتيوي ـ.

وللقبض على هذا الشاب قصة وإثارة.

كان اليوم جمعة.
في موسم الزرع والحصاد من أيام شهر مارس عام 1915م.

والبطل رمضان في معركة «القرضابية» يلقن القوات الاستعمارية درساً قاسياً.

بعد أن رسم خديعة للطليان ونفذ الخطة العسكرية المحكمة في الإطباق والإنقضاض عليهم.

وتمت عملية مهاجمة القوات الإيطالية.
واستطاعت قوات المجاهدين الفوارس أن تدحر جحافل الطليان.

كان ـ أحمد وسعدون ـ في قرية زاوية المحجوب.
وأديا صلاة الجمعة بمسجد الزاوية.

بعد الصلاة كانا في طريقهما إلى البيت مع خالهما وجمع من الأصدقاء.

وبينما هم راجعون إذ اعترضهم في الطريق صديق من جيرانهم من أبناء الحي يسمى محمد محجوب الجروشي.

وقد أصرّ الجار على أن يستضيفهم، واعتذر البعض ولكنه أصر، وإصرار الجار له حرمة في التقاليد.

ومضى سعدون وأحمد إلى بيت الجروشي.

ولم يكن غداء فقط.

بل غداء ثم تبعه عشاء وشاي وسمر طويل وأحاديث منوعة تدور حول الحالة وأنباء القتال ونضال المجاهدين في الميدان.

وتوجه سعدون إلى البيت.

وطلع صباح السبت.

وعند الساعة العاشرة صباحاً.

جاء إيطالي من الضباط إلى منزل «سعدون» في منطقة «أم البخور» وفي حبكة أتقن صنعها طلب حضور «سعدون» إلى نقطة زاوية المحجوب.

كانت الحجة التي أبداها أن أخاه «رمضان» وهو أكبرهم طلبهما على التلفون.

كانت هذه النقطة قد عسكرت فيها قوة من الطليان وهي تقع على الطريق العام وعندما وصل أحمد وسعدون ألقي القبض عليهما فوراً مع جماعة أخرى من المواطنين.

وعندما تمت عملية القبض في خدعة محبوكة جاء إلى بيت خال سعدون «شتيوي الكريك» رجل يسمى ـ الصغير الشكماني ـ وأخبره بأن أحمد وأخاه سعدون ألقي القبض عليهما من طرف الطليان.

ثم انتشر الخبر سريعاً في المنطقة وبدأت مقاومة وتحركات.

مطاردة ومقاومة:

قامت كوكبة من الفرسان تطارد فلول الطليان.

تلك الفلول التي بدأت عمليات الانسحاب من النقط العسكرية.

كانت عمليات الانسحاب هذه بعد توارد أنباء هزيمة الجيش الإيطالي المريرة في موقعة القرضابية واتجهت هذه الكوكبة من الفرسان إلى النقطة العسكرية التي قبض فيها على سعدون وأخيه أحمد.

والتقى هؤلاء الفرسان من أقارب سعدون بالمواطن ـ عبد الله سلطان ـ الذي كان موجوداً بالنقطة وهو من أبناء هذه المنطقة.

وقال لهم:

ـ لقد رحلوا إلى «المواطين».

والمسافة بين «المواطين» وضاحية زاوية المحجوب حوالي ثلاثة عشر كيلومتراً.

كانت عساكر الطليان تسيّر سعدون والمقبوض عليهم على أرجلهم ويلكزونهم بأعقاب البنادق في عبارات شامتة ساخرة.

وزجوا بهم في السجن.
كان السجن في مكان ـ فندق بن إسماعيل ـ قرب مركز الحكومة.

* * *

ووقعت في هذا اليوم مناوشات وتواصلت عملية المطاردة والاشتباكات بين الفرسان وفلول قوات الطليان.

وكان من شهداء هذه المطاردات:
* الشهيد فرج العزيبي.
* الشهيد محمد محجوب الجروشي.

وهذا الرجل هو الذي كان قد تعشى عنده سعدون وأخوه كما سبقت الإشارة.

يوم النقطة:

ومر يوم الأحـد.

والمدينة تستعد للصراع وهي في حالة تتأرجح فيها بين الفرحة العارمة بانتصار الأبطال في معركة «القرضابية» وبين الهزات العنيفة التي تلاقيها وتتعرض لها من فلول القوات الطليانية التي أكدت نواياها في أن تثأر لهزيمتها وتغطي خسائرها.

فقد جنّ جنون القوات الإيطالية.

ولجأت إلى أسلوب العنف والقبض والثأر.

وأخذ الفرسان في الاستعداد.

مع أن أغلب الكتائب والمقاومين قد توجهت مع رمضان إلى القرضابية إلّا أن المدينة وضواحيها ما زال بها عشرات ومئات من الرجال والفرسان.

وأخذ هؤلاء يخرجون الأسلحة المردومة والمخبأة.

ولا يوجد بيت يخلو من سلاح.

وفي يوم الاثنين.

بعد يومين من إلقاء القبض على سعدون وزملائه.

جاءت حملة من البوليس الإيطالي كان قصدها نهب بيت سعدون وأهله.

وفي الطريق إلى منزله في عصبية وهيحان قتلت القوة المعتدية جماعة من المواطنين.

وفي لصوصية وقحة طوقت قوة البوليس منازل القرية ونهبت بيت سعدون.

وجاءت هذه الحملة عن طريق كان يطلق عليه «الحاجية».

وهو الطريق الرئيسي اليوم.

وتأزم الموقف وازدادت شحنات الغضب بين السكان.

وهنا تجمعت كوكبة من الفرسان قوامها اثنا عشر رجلاً فارساً.

* الشتيوي الكريك.
* عمر شقلوف.
* مفتاح فتولة.
* محمد مسعود قزيط.
* محمد الترهوني.
* الحاج علي ادغيلي.
* مبارك اقلاش.
* مصطفى خليل السيوي.
* إسماعيل السيوي ـ أخوه.
* محمد بن مصطفى.
* محجوب اشكيب.

وقد استشهد الأخير، فيما بعد في منطقة الوادي الفارغ مع أدوار الشهيد «عمر المختار».

وتجمعت هذه الفرسان وأصرت على رسم خطة المقاومة ومطاردة الطليان، ووقعت اشتباكات ومصادمات.

وفي إحدى الالتحامات استشهد من هؤلاء، الاثني عشر الشهيدان:

ـ محمد قزيط.
ـ محمد الترهونى.

وبدأت الفرسان تتجمع من هنا وهناك من أطراف الضواحي حتى بلغت ثلاثمائة فارس أخرجوا الأسلحة من الردم (الطوابي).

عندما أخذت تتوارد الأنباء التي تحمل بشرى الانتصار في معركة «القرضابية».

لقد ألهبت «القرضابية» الروح المعنوية وأذكت الحماس الوطني في نفوس أبناء الشعب.

كان لصداها هزة قويـة.

وتجمهر أبناء الشعب من كل صوب وقبيلة عند سماع نبأ القبض على سعدون وزملائه من الشيوخ والشباب.

وفي نقطة «العبيدات» إلى نـاحية «شفـرت» بدأت المـطاردة للجنود الطليان.

كان هؤلاء يختبئون في نقاطهم التي تمركزوا فيها.
والتي كانوا قد بدأوا الانسحاب منها.
كانت خيول الطليان تجـر وراءها عـربات محملة بـالذخيـرة والعتاد وحوائجهم المنوعة.

في عمليات الانسحاب أخذت قوات الشعب تصطدم مع هذه الجنود.
وبدأت عملية إطلاق النار.
ولكن الطوابي والأسوار الطينية المرتفعة على جنبات الطريق.
تلك الحواجز الطينية ذات الأشواك من غرس «الهندي».
كانت خيول الطليان تستطيع أن تقفز منها وتجتازها بخفة وسرعة فقد تدربت عليها طويلاً في عمليات المران العسكري.

وأما خيول المجاهدين المقاومين من أهل البلد لم تستطع أن تقفز منها وتجتازها إلّا بصعوبة ومن هنا استطاع أن يهرب بعض خيالة الطليان عن طريق القفز السريع من الطوابي.

وتركوا وراءهم العربات التي كانت تجرها الخيول.
عربات كثيرة محملة بالعتاد والذخيرة والمؤونة.
وهي من أنواع العربات المربعة والمستطيلة.
كالتي يشاهدها أبناء هذا الجيل في الأفـلام السينمائية.
لقد غدت غنيمة للمقاومين.
واستطاع الفرسان أن يأسروا بعضاً من جنود الطليان.
وهذا اليوم في تاريخ معارك المجاهدين يطلق عليه:

«يـوم النقطـة».

وتوالت الأيام والمعارك محفورة في جبين الاعتزاز بمداد الشهداء.

معركة يوم العودة:

تكاثر الفرســان.

وتقاطرت أفواج المجاهدين المقاومين.

كانوا اثنـا عشر فـارساً.. فغـدوا مئة.. ثم تكـاثروا.. وأصبحـوا ثلاثمائة.. ثم تزايدوا مئات وآلافاً.

وهنا شعرت قوة الطليان الموجودة التي قذف بها الأسطول.. شعرت برائحة الخطر الملتهب.

غضب هؤلاء يحمل في طياته الهول.

صرخات هؤلاء المجـاهدين تجـر من ورائها المتـاعب للامبـراطوريـة المغرورة.

إن سجن «سعدون» ألهب الأهالي.

وشغل بال المواطنين.

والبلد منذ نزول قوات الأسطول الإيطالي في شواطىء ليبيا كل يوم يسمع نبأ ويتلقى خبراً.. ويخوض معركة.. ويصنع مجداً..

إنها غضبة الشعب.

ولن يكون هؤلاء المواطنين في موقف المتفرج.

وبعد إلقاء القبض على الشاب «سعدون» وصحبه وبعد حوالي أسبوع قدمت قوات البطل «رمضان» والمجاهدون معه من ناحية القرضابية.

جاؤوا يحملون راية الانتصار.

يرفعون الرؤوس في عزة وإباء.. في شمم الأبطال.

دفعت هذه القوة المجاهدة في معركة البطولة ثمناً من الأرواح الذكية.

ولكل انتصـار ثمن.

ولكل مجد ضريبة.

وعسكرت قوات البطل «رمضان» في موقع يسمى «كرزاز».
في مكان يطلق عليه «الغريفة».
وهذا الجيش النظامي الذي عاد من المعركة الخالدة.
ها هو يوم عودته يخوض معركة جديدة.
زحف على بقية قوات الطليان في مصراتة.
كان ذلك يوم الأربعاء من شهر رجب 1333هـ ـ 1915م.
وكان لقاء هذه المعركة واحتدامها في مكان يسمى:
«رأس مفتـاح».
يقع بالقرب من جبانة اليهود.
وكانت هذه الجبانة تبعد حوالي كيلومترين عن «المواطين» التي هي قلب المدينة.

كانت معركة في أول يوم العودة لقوات المجاهدين.
بعد زغاريد فرحة اللقاء.
ارتفعت زغاريد الحماس والاندفاع لتلهب المعركة.
وهناك من الجنود في الجيش من لم يذهب إلى بيته وأهله وهم على قيد خطوات من المكان الذي عسكروا فيه.

واقتضى الواجب الوطني أن يخرج من معركة ليستأنف أخرى.
ودفع الشعب ضريبة الصراع البطولي فكان من شهداء هذه المعركة يوم العودة عشرة من الشباب من بينهم الشهداء:
* محمد الرغيوي، من المقاصبة.
* محمد بو ليفة، من المحجوب.
* محمد بن قطنش، من المحجوب.

في سجن طرابلس

كان القبض على «سعدون» عندما كان في حي «أم البخور» بقريته.

ومن جملة المقبوض عليهم في هذا اليوم من رجال البلد وشبابها:

* أخوه أحمد الشتيوي.
* التهامي قليصة.
* محمد بن الحاج علي لاغا.
* محمود بن الحاج علي لاغا.
* محمد باشاغة.
* الأصيفــر.

وبعض أفراد من عائلة «بن صويد».

وضع أحمد وسعدون في مكان ـ فندق بن إسماعيل ـ مكبلين بأرجلهم وأيديهم، وظلوا هكذا إلى انتهاء معركة القرضابية وأرسلوا بعد معركة «بوفار» إلى مدينة طرابلس عن طريق البحر.

ووضع سعدون وصحبه في حبس السراي.

وكان هناك في الحبس أقسام وساحات تحمل هذه الأسماء:

1 ـ البالــوص.

2 ـ حوش الفار.

3 ـ الكراكـة.

4 ـ حوش الدالية.

5 ـ حوش العسكر.

وهناك حراس من الأحباش تحت السراي مدججين بالأسلحة.
وضع سعدون في حبس «البالوص».
وكان الحارس على سعدون وزملائه يسمى «ميلود السركسي».
وخليفة الفزاري ومحمود الرملي من الورديانية.
هذا بعد إرجاعه من إيطاليا وزجه في سجن السراي بحوش «البالوص».

* * *

رُحِّلَ سعدون وصحبه إلى مدينة طرابلس التي كانت تسيطر عليها الإدارة الإيطالية.

وضعوا في سفينة حربية إذ أن الطريق البري غير مأمون للقوات الإيطالية فقد كان المقاومون يسيطرون على الطرقات والأودية ويتربصون في المنحنيات بقوات الاستعمار.

وكان مع سعدون في السجن بطرابلس من عائلة الأصيفر:
* إبراهيم الأصيفر.
* أخوه محمد الأصيفر.
* وعمر الأصيفر.
* وعلي الأصيفر.

* * *

كانت نوايا إيطاليا متجهة إلى إعدام «سعدون» وزملائه من شباب البلد ورجاله وهيأوا محكمة لهذا أو تبريراً لهذا.

كانت في الواقع إجراءات صورية ومن نوع المبررات الشكلية.

محكمة.. إنها في الواقع من صور المهازل الاستعمارية شأن المحاكم التي يقيمها الاستعمار ويصنعها في مثل هذه الظروف فهي من نوع المحاكم التي شهدتها كل الشعوب التي تقاوم الاستعمار.

وأين صوت الضمير والقانون.. ومفاهيم العدالة؟!.

وعلى أي شيء يحاكم «سعدون» والشباب والرجال الذين قبض عليهم الطليان.

منطق غـريب.

مستبد يحاكم مواطنين.

وأسطول يجر المدافع ويقذف بالديناميت وصواعق النيران.

ثم يزعم قادة الاسطول أنهم يجلبون معهم قضاة ومحامين ومواد قانون.

مستبد غاز يحاكم المواطنين، ودخيل بالقوة يسوق الأحرار إلى قضبان السجون وأعواد المشانق.

هل يمكن أن يسمع صوت العدل بين طلقات مدافع الأسطول وقذائف القنابل من الطائرات.

هل يمكن أن يرى شبح الحق في محراب العدالة بين كثبان الدخان وضباب نيران المستعمر.

إن ضباب الاستعمار ونيران هجماته لا يتبين منها إلّا ملامح البغض وعوامل الاستبداد.

وفي مثل تلك الظروف تزعم إيطاليا أنها هيأت محكمة للشاب «سعدون» وزملائه المساجين.

وكانت النية المبيتة، والخطة المرسومة أن يعدم هؤلاء.

هكذا رسموا الخطة، وأكدت الظواهر والسوابق واللواحق هذا، فقبل هذا.. عشرات.. مئات من أبناء الشعب سيقوا إلى ساحة الرصاص وأعواد المشانق.

غرز الاستعمار في أرضنا أعواد المشانق.

فهل هناك وسيلة لإنقاذ هؤلاء الشباب قبل أن تقدم محكمة الطليان على المهزلة المكررة.

هنا تحركت قوات المجاهدين.

وسرى الحماس الغاضب يلهب النفوس.
«سعدون» ورفاقه سيساقون إلى ساحة الإعدام.
فهل يسكت الناس؟.
خرجت قوات المناضلين إلى منطقة «بوفار» قِبلي «مصراتة» والتحمت في معركة حامية مع القوات الإيطالية.
واستطاعت قوات المجاهدين أن تدحر الجيش الإيطالي وتغنم بعض الغنائم وتسوق الأسرى.

كان من بين الأسرى القائد الإيطالي في هذه المعركة.
وكان مع القائد الأسير سبعون عسكرياً أسيراً.
وقع هؤلاء في قبضة القوات الوطنية.
وظل هـؤلاء كرهينة في أيديهم.
هل يجرأ الطليان على نصب المحكمة الصورية وتقديم رأس سعدون إلى المشنقة أو ساحة الرصاص.
وفكر المجاهدون كيف يبلغون إنذارهم الحازم إلى صفوف الطليان.

رهائن.. وإنذار:

أرسل المجاهدون رسالة إلى القائد الإيطالي في المنطقة التي كان يعسكر بها وراء «الكردون».

كانت الرسالة مع أحد أبناء الشعب الذين يطوفون الأسواق.
ويرتدون ثياب الدراويش.
اختاروه أن يكون مندوباً لهم يحمل رسالة الإنذار المستعجل إلى الطليان.
وكان اسم هذا الرجل الذي حمل رسالة الإنذار:
* سيدي عبودة.
وهو رجل كان يعتقد فيه الناس الصلاح والدروشة.

وعندما يراه الطليان بثيابه وحالته هذه لن يصوبوا إليه الرصاص من بعيد.

وانطلق «عبودة» وحمل في رأس عصاه الطويلة قطعة من قماش أبيض علامة الأمان.

وانطلق بالرسالة التي حمّلها له المجاهدون صوب المعسكر الطلياني عند «الكردون».

وهو يتمتم بعبارات وأدعية وخليط من الكلمات.

كانت الرسالة موقعة بإمضاء «رمضان اشتيوي».

هذا الاسم الذي أرعب الطليان وأفزع مفاصلهم... وكان فحوى الرسالة ومضمون الإنذار شيء موجز ولكنه خطير.

* إذا أقدمت إيطاليا على إعدام «سعدون» والمساجين الذين عندها فإن الأسرى ضباطاً وجنوداً الذين تحت يدي سيعدمون جميعاً.

* * *

وقرأ الضابط الإيطالي المسؤول في المعسكر الرسالة الموجزة.

وارتبك واستبد به الخوف.. لقد ارتـاع ذعراً.

فلقد كان منذ قليل يشرف على عملية تعذيب المساجين الذين تحت يـده وسقاهم الملح المذاب في الماء.

وألهب ظهورهم بضرب السياط وأصناف الأذى.

هؤلاء المساجين الذين لم يسفّروا إلى طرابلس وما زالوا في المعسكر الإيطالي.

وأما «سعدون» فقد سبق أن رحل إلى سجن طرابلس.

بعد أن وصلت رسالة «رمضان» تحمل الإنذار والوعيد تخوّف الطليان بالغ التخوف على مصير الأسرى الذين وقعوا تحت يده.

وكان مع هذه الرسالة التي تحمل الإنذار والوعيد رسالة أخرى بخط القائد الإيطالي الأسير يخبرهم فيها بأنه يلقى من طرف العرب معاملة طيبة ويجد الطعام الدسم والفراش الوثير وحسن المعاملة.

وأنه كان جريحاً. . وكان في موقع ـ كرزاز ـ.
وأخذ يوصي في رسالته بإلحاح بأن يعامل الطليان المساجين والمعتقلين من العرب معاملة حسنة.

* * *

وأسرع الضابط الذي وصلته الرسالتان مع ـ عبودة ـ فأبرق إلى زوجة الأسير الضابط بروما يطمئنها على حياة زوجها الذي كان قد اعتبرته البلاغات الحربية الصادرة من قيادتهم مفقوداً.

وأبرق إلى مقر رئيسه بطرابلس يخبره بفحوى الإنذار الخطر.
وبعدها. . حمَّل الطليان ـ عبودة ـ ثلاثة رسائل إلى مقر المجاهدين.
وكان أن خففت القيادة الإيطالية أحكام الإعدام على «سعدون» وزملائه وأفرجت عن بعض المعتقلين.

ولكنها عمدت إلى ترحيل بعض العائلات بالإجبار من مدينة مصراتة إلى مدينة طرابلس وأما «سعدون» فقد ساقوه إلى طرابلس وزجوا به في سجن السراي على شاطىء طرابلس.

وبقي في زنزانة ـ رجب باشا ـ بالسراي الحمراء بالقلعة.
كان سعدون مكبلاً بالحديد.
ثم سيق إلى المنفى.
إلى جزيرة ـ كورسيكا ـ بإيطاليا.
وظل سعدون والمساجين الآخرين بإيطاليا مدة ثلاث سنوات.
من عام القرضابية 1915م حتى عام الصلح وصدور القانون الأساسي 1919م.

ثلاث سنوات وسعدون منفي في جزيرة بإيطاليا.
واستطاع أن يلم باللغة الإيطالية وأن يسمر مع المثقفين المنفيين معه.
وكان من ضمن الموزعين على سجون إيطاليا أيضاً:
* التهامي قليصة.

* سالم قصيبات.
* الحاج محمد كريديش.

وكان يقوم بعملية الطهي المواطن السجين معهم «محمد كريديش».
وطالما سمع منه المواطنون ذكريات تلك الأيام.
الذكريات الطويلة مع سعدون الشاب الجريء.
والمناضلين الذين كاد يطويهم ضباب النسيان.

معركة رأس الطوبة

يوم الأربعاء 28 جمادى الثانية 1333 هـ.

كلف ـ رمضان ـ الذي كانت بلدة مصراتة وما حواليها تحت حوزته ويقود حركات المجاهدين في شاطىء مصراتة.

كلف المجاهد ـ عمر أبو دبوس ـ أن يمضي بفصيلة من المجاهـدين ويضعها في الطريق ما بين «قصر أحمد» ومدينة مصراتة.

وهناك دارت إحدى المعارك اللاهبة الشهيرة.

كان اللقاء عند هضبة مرتفعة تسمى «رأس الطوبة».

وقوات الطليان كانت قد أخذت في الزحف ناحية الهضبة لتعسكر عندها من أجل أن ينصبوا هناك كميناً للمجاهدين ويركزوا المدافع فوق الهضبة وليؤمنوا الطريق لهم ما بين شاطىء «قصر أحمد» ومدينة مصراتة «المواطين».

هذه كانت خطة الطليان.

ولكن قوات المجاهدين بادرت واستطاعت في حركات بارعة وبسرعة مناسبة أن تصلي قوات الطليان ناراً متواصلة وارتفعت أهازيج الجهاد.

وامتزجت في الجو مع طلقات الرصاص من بنادقهم.

وتساقط الصرعى.

وهرب من الطليان من استطاع النجاة.

وتقهقر الطليان مع خريطتهم المرسومة في حالة ذعر وانهزام.

عادت قواتهم إلى «الكردون» يحتمون به.

ومكثوا على هذه الحالة ـ الطريق مقطوع عليهم مليئة بفرسان الجهاد ما بين قصر-أحمد والمواطين.

ظل الحال هكذا بعد معركة «رأس الطوبة» أربعة عشر يوماً. . أسبوعان كاملان والمدد البحري يصل إلى معسكرات الأعداء في «الكردون» ويستعدون.

* * *

وفي يوم الثلاثاء 11 رجب 1333هـ ـ 25 مايو 1915م.
أخذ العدو يجمع قوات جيشه التي نزلت له من جانب البحر.

في شكل إمدادات متواصلة.
وحشد القوة التي تبقت له في مصراتة.
وأخذت المدافع تواصل ضرب البلد وتزمجر بالقنابل.
وقصدت طوابيـرهم الزاحفـة صوب منطقة «رأس الطوبة».
وسرعان ما انبرى لها الفرسان المجاهدون.
واستمرت المعركة في لهيبها المستعر.
من مطلع الفجر عند الأذان الأول حتى العشاء عند الأذان الأخير.
يوم كامل بليله ونهاره.
حتى أن المجاهدين كانوا يصلون صلاتهم فوق صهوات جيادهم حسب الشعائر الإسلامية في صلاة الميدان.

والنار متواصلة. . وأبناء الشعب يتسابقون لتقديم الوقود في معـركة النضال البطولي.

وقود من الضحايا والشهداء في لهب الجهاد المقدس.
أرواح طاهرة بدافع الإيمان، وصدور جريئة لا تعرف مساومة في الذود عن الحق.
ولكن كان في جانب القوات المغيرة عتاد أكثر.
وجنود في أيديهم أسلحة فتاكة من طراز حديث.
عدد وعدّة متكاثرة. . وتقدمت قوتهم.

ولكن هذا التقدم لم يكن سهلاً رغم الأسلحة الحديثة والعدد الكثيف.
لم يكن الطريق للأعداء مفتوحاً.
بل على جثث المواطنين.
لقد زرع الشهداء الطريق.. في عيونهم وميض النور وعلى شفاههم بسمة الإيمان وفي صدورهم غليان يتدفق بالدم الطاهر الذكي.

واحتل جنود الطليان الهضبة وعسكروا على «رأس الطوبة» ونصبوا هناك ستة مدافع.
كانت من طراز 149.
وأخذت تصوب فوهاتها نحو الطريق إلى «قصر أحمد».

معركة السبخة

في يوم الجمعة 14 رجب 1333هـ ـ 28 مايو 1915م.

كان المجاهدون يركبون خيولهم وبعضهم يتمرن على عمليات الكر.

ويقومون بحركات الفروسية.

وبينما هم في هذا ـ الميز ـ.

كان قائدهم ـ رمضان ـ واقفاً في ـ الغريفة ـ التي كانت مقر قيادته وشاهد بالمنظار المكبر «قرابيل».

كان ينظر إلى الجهة القبلية فأبصر خيالة وتحركات ومثاراً من الغبار، ولكنه لم يستطع أن يتبين حقيقة هذه الحركة والجلبة.

فاستدعى المجاهد ـ محمد بن الحاج أحمد الجمل ـ وقال له:

ـ أنا رأيت حركة من تلك الجهة ولم أتحقق منها.. خذ معك مائة فارس واذهب واكشف لنا ما هي حقيقة هذه الحركة.

وبسرعة ركب الفرسان خيولهم وانطلقوا إلى المنطقة التي بها الحركة.. فماذا لاحظوا.

إنه جيش عرمرم.. طوابير تتبعها طوابير.

قوة من الطليان أخذت تقيم استحكامات جديدة.. كانت خطة قائدهم الإيطالي أن يعملوا كماشة على البلد كله.

وهنا.. وأمام هذا.

هل ينطلق الفرسان إلى المدينة ويرجعوا من حيث أتوا..؟

أم يحتم عليهم الواجب الوطني ونخوة الدفاع عن الحمى أن يبقوا مكانهم ويثبتوا لأجل الدفاع ومنازلة هؤلاء الغائرين؟.

وكانت نظرات عميقة بين الفرسان تحمل تساؤلات.

وفي التساؤلات والنظرات عزم وإصرار.

إنه الحماس في موجته العارمة.. ودوافع الفروسية تلهب.

ورؤية الأعداء في أرض الوطن أمر لا يمكن السكوت عليه.

وبقي ثمانية وتسعون من الفرسان المجاهدين يجابهون القوة المغيرة.

وأرسلوا اثنين إلى المدينة إلى منطقة «الغريفة» ليخبروا القائد «رمضان» وأهل البلد.

إن الحركة التي شوهدت بالمنظار المكبر ما هي إلّا تحركات من قوات مغيرة تريد أن تطوق البلد وهي الآن تقوم بعملية حفر وتهيئة استحكامات.

وهنا عند وصول الفارسين. علمت الحقيقة.

وأسرع المجاهدون.

وطلع قائدهم «رمضان» من غير حزام وبيده سوطه التقليدي وعلى كتفه سلاحه وصاح منادياً في نبرات قوية:

- يا أولاد.. أسرعوا إلى السبخة، العدو خارج لحربنا.

وذهب المجاهدون سراعاً بأجمعهم.

وأرسل قائدهم الخيالة إلى القبائل يدعوهم إلى المساهمة في خوض المعركة. وما كاد يسري النبأ في صفوف المواطنين حتى تسارعوا إلى الميدان وتدفقت الجموع من كل جانب وقبيلة.

وكانت الخطة التي رسمها قائد المقاومين أن يتوجهوا إلى منطقة «السبخة» التي كانت قوات العدو قد باتت عندها ليلة البارحة.

وفي تنظيم يشوبه الحماس كانت كل قبيلة تأتي تدخل الساحة فتأخذ مكانها في الخط الدفاعي.

كانت ليلة ملأى بالحركة والتحفز.

وما أصبح صباح السبت 15 رجب 1333هـ ـ 29 مايو 1915م.

حتى وجد الجيش الإيطالي نفسه في مأزق.

أراد أن يطوق البلد فوجد نفسه مطوقاً.

بيَّت أمره على أن يفاجىء البلد بالحركة.. فكان هو المفاجأ؛.

أصبح الجيش الإيطالي مطوقاً بقوات المجاهدين.

من الناحية القبلية.

ومن الناحية البحرية.

ومن الناحية الغربية.

وهكذا في عملية التطويق والإحاطة هذه لم يجد الطليان منفذاً ولا باباً للفرار إلّا من ناحية الجهة الشرقية.

ودارت معركة لاهبة.

واشتد عزم المناضلين وبلغ الذعر أشده في صفوف القوات الإيطالية التي كان يداعب رأسها الغرور وتمنيها خطتها وأسلحتها بأحلام الانتصار، فلقد ذاقت الصفوف الإيطالية من هجمات الفرسان ما لم يخطر على بال القائد الذي رسم لهم خطة النزول والتطويق.

وحاول الطليان أن يلوذوا بالفرار.. ولكن أي فرار؟..

ها هم يغوصون في هذا المستنقع.. الأرض تبتلعهم فهي ـ سبخة ـ ملحة.. بحيرة عميقة فقد خدعهم السراب فظنوها أرضاً صلبة.. تبدو من بعيد كأنها جافة.. ولكنها أرض غائصة تبتلع كل هذه القوات وأضعافها.

جروا سراعاً كأنما قوتهم مرنت على السباق في الجري السريع وتركوا ما معهم من عتاد حربي.. وعربات كانت تجرها الخيول.

وهرب من استطاع النجاة.. وأي مهرب.

غاص في الأرض اللزقة من ظن أنها صالحة للزوغان.

وكان من بين من تركوه أثناء فرارهم.

القبطان «فكّي».

وهو من أبناء روما الذين كانوا يحلمون بنيشان الانتصار.

وقع أسيراً في قبضة المجاهدين.

وكان معه جملة من العسكر.. جنود وضباط تحولت في حناجرهم نغمات أناشيد الانتصار ونشوة الغرور إلى نغمات تضرُّع ورجاء.

قبض المجاهدون على الأسرى وساقوهم إلى مقر قيادة التحركات الوطنية.

وعندما أحصيت الخسائر في هذه المعركة من جانب المجاهدين كانت يسيرة. فقد وجد المجاهدون أنفسهم في هذه المعركة لم يفقدوا إلاّ ثلاثة شهداء فقط.

وهذا شيء يسير بالنسبة إلى لذة الانتصار الذي أحرزته قوات المجاهدين في هذه المعركة.

وهذا شيء يسير إذا قيس إلى لهب المعركة وعنفوانها وما كان يدبره القائد الإيطالي من خطة مبيتة لتطويق البلد ومهاجمتها على حين غرة.

ثلاثة شهداء فقط.

في هذه المعركة يعتبر أمراً يسيراً بالنسبة إلى معركة وموقعة «رأس الطوبة» إذ كانت هناك خسائر قوات المجاهدين في الأنفس:

72 شهيداً.

150 جريحاً.

وغير هذه الخسارة في «رأس الطوبة» كانت هناك مأساة «حوش ماطوس».

حوش ماطوس

يوم 11 رجب 1333هـ ـ 25 مايو 1915م.

الذي كانت فيه معركة «رأس الطوبة».

كانت فصيلة من القوات الإيطالية راجعة في طريقها إلى «الكردون» بعد أن واصلت إطلاق النيران وكبدت المجاهدين خسائر.

وجدت في طريقها عائلة «ماطوس».

وهي عبارة عن ثلاثة منازل متلاصقة في وسط البلدة.

وكان بالمنازل الثلاثة ثمانية وثلاثون شخصاً.

نسوة وأطفال وشيب ورجال.

وكان هناك بالقرب من المنازل على الطريق العام أحد الإيطاليين ملقى طريح الأرض بعد أن أصيب بضربة قاتلة.

فوجدتها القوة الغازية الموتورة فرصة أو هي من مبررات خيوط العنكبوت.

واقتحمت الفصيلة المنازل في دخلة منكرة هوجاء وطوقتها تطويقاً مفزعاً.

دخلت المنازل ووجهت الطلقات الرصاصية إلى صدور النسوة والأطفال وكل من في المنازل الثلاث.

أبادتهم عن آخرهم.

والمنزل الأخير كان به ـ ماجن ـ لماء المطر شأن البيوت العربية فأحرقت القوة الإيطالية الجثث في عملية يقشعر منها ضمير الإنسانية.

ثم وضعت القتلى الأبرياء، نسوة وأطفالاً ورجالاً، الثماني والثلاثين في

هذا البئر العميق وغلفوه بالأسمنت.

وإلى اليوم ظل مقرهم الأرضي.

وأُقيم فيما بعد في نفس الموضع بعد أن هدمت المنازل كنيسة صغيرة وسط المدينة تدق أجراسها.

والمسيح عليه السلام بريء كل البراءة من وحشية القوات الاستعمارية.

المسيح رسول المحبة والسلام لا يرضى أن تدق الأجراس على أنين الثكالى واليتامى وعلى لهفة الأطفال الأبرياء وناقوسه يدعو إلى محبة الإنسان.

لا أن يقام على أنقاض ثمانية وثلاثين جثة وضحية.

لقد كان حجة الهجوم وإبادة «حوش ماطوس» أن عثرت دورية متقهقرة على جندي من جنودهم في الشارع الرئيسي فأصلت البيوت ناراً حامية وذبحت وفتكت.

إنها أبشع من حادثة «دنشواي».

إن «دنشواي» جريمة.

وحوش «ماطوس» جريمة أبشع.

وكان من ضمن ضحايا حوش «ماطوس» صاحب المنزل محمد ماطوس وعشرون شخصاً من عائلته والبقية من الجيران والأقارب[1].

* * *

رسالة وأسـرى:

وقعت مأساة حوش ماطوس.

وكانت موجة اعتقال المواطنين مستمرة في البلاد.

وكان هناك «سعدون» وعدد كبير من المواطنين الأحرار في السجون والمنافي.

لقد تأثر المواطنون للحالة التي تواترت أنباؤها.

فقد كان المساجين في جزر إيطاليا النائية في حالة صعبة.. يلقون من طرف السلطات الإيطالية المعاملة السيئة بينما كان هناك في قبضة المواطنين

(1) كان من بين الضحايا الشهداء الأبرياء في حوش ماطوس عمة المؤلف وأبناؤها الصغار فقد ذبحهم الاستعمار ذبحاً.

«بمصراتة» أسرى إيطاليين من بينهم القبطان الجريح والذي وقع أسيراً مع جنوده ـ كما سبقت الإشارة إليه.

كان هؤلاء الأسرى يلقون من طرف العرب المجاهدين المعاملة الحسنى بمقتضى الخلق العربي والتقاليد الإسلامية وحسب ما يمليه العرف السليم والضمير الحي.

طباع تفرضها التقاليد وشهامة المناضلين الشرفاء.

بينما كان الاستعمار في حربه وغزواته الاستبدادية يتجرد من كل معنى القيم ويتعرى من كل الفضائل والمثل ولا يعرف أو لا يراعي الاستعمار في غزواته حتى القوانين المتعارف عليها دولياً واجتماعياً.

والدليل على هذا.

وهل يحتاج هذا إلى دليل!؟.

شواهد بينات وأفاعيل يندى لها جبين الإنسان:

* الهجومات البحرية الغادرة.
* حركات الإبادة الجماعية.
* قنابل الطائرات.
* ضحايا حوش ماطوس.
* معاملة المساجين والمعتقلين والتضييق عليهم سواء في سجون طرابلس أو الذين طوحت بهم قيادة الحملة الإيطالية مع «سعدون» هناك في الجزر الإيطالية.

إنها أدلة ملموسة تؤكد خبث الطوية والإصرار على روح العنهجية والاستبداد. هي دلائل ملموسة قريبة، بيوت تهدمت، وعائلات شردت، وضحايا أبرياء، فيهم براءة الملائكة في عمر النوار والزهور.

وهناك دليل من بعيد.

حملته الأنباء الأكيدة.. حتى أنباء الطليان أنفسهم وبعض الرسائل السرية وصلت بطريق خفي إلى مركز قيادة المجاهدين.

وتأثر ـ رمضان ـ وثارت ثائرته، ثائرة الغضب المقدس في نفوس الناس.

فقال رمضان للقبطان الأسير فكّي.

ـ اكتب رسالة إلى حكومتك وأخبرهم بما حصل لك من طرف العرب.. اكتب الحقيقة وليس غير الحقيقة.

وكتب الأسير الإيطالي رسالة إلى قائد القوات الإيطالية يقول فيها:

ـ «وقعت أسيراً في أيدي العرب بعد إصابتين في ركبتي الشمال ولكن العظم سليم ومعي بعض العساكر وقعوا في الأسر والعرب عاملونا معاملة حسنة».

كانت رسالة موجزة ولكنها تحمل الحقيقة الواقعة.

ومهر القبطان الرسالة.

وسلمها للمسؤولين العرب.

وعند ذاك سأل رمضان:

ـ مَن مِن الضباط المجاهدين يعرف القراءة باللغة الإيطالية ليقرأ علينا الكلمات التي كتبها القبطان الأسير.

وكان من الطبيعي أن يسأل القائد المجاهد هذا السؤال.

فلربما كتب الإيطالي الأسير أسراراً.. أو رموزاً.. أو سطَّر شيئاً بخلاف الواقع.

سؤال معقول.. وتحرٍ لازم في مثل هذه الأحوال.

قبل أن يرسل المجاهدون رسالة الأسير لا بد أن تعرف.. كلمة.. كلمة.. وكان هناك من الضباط الوطنيين الذين يعرفون اللغة الإيطالية ودرسوها.

المجاهد ـ السنوسي بن أبي القاسم حمزة ـ من أبناء مصراتة والذي رجعنا في بعض النقاط إلى مذكراته التي خطها بيده في هذا الموضوع.

وقرأ الضابط المجاهد ـ السنوسي بن أبي القاسم ـ رسالة القبطان الأسير.

وهنا أملى «رمضان» على هذا الضابط المجاهد رسالة ليكتبها بالإيطالية

يقول فيها موجهاً الخطاب إلى الإيطاليين:
- بلغني أنكم مشددين على المواطنين المسجونين، فعليه إذا حصل أي شيء منكم فأنا سأهلك الذين تحت يدي وسنعاملهم بما تعاملون به المساجين».
ووقع القائد - رمضان - على الرسالة.
وقال سائلاً وهو يرفع نظره الحاد إلى من حوله:
- من يرفع هذه البوسطة إلى الطليان؟.

وكان هناك مواطن يسمى «محمد بن سليمان بو شحمة» وهو من صفوف المجاهدين فبادر قائلاً في ثبات:
- أنا أرفعها وأسلمها.
وفعلاً قام بعملية تسليم الرسالتين إلى الإيطاليين وعمل إشارة للعسس الذين كانوا يقفون عند المداخل بأن يتركوه يسلم البوسطة.

وحمل «أبو شحمة» العلم الأبيض على عصا طويلة وعندما اقترب من «الكردون» كانت في الواقع لحظات حرجة مشحونة بالخطر، كادت أن تصوَّب إلى صدره نيران الطليان..

وطلع إليه اثنان من عساكر الأحباش.
وعندما شاهدا الراية البيضاء تقدما إليه في حذر وربطا له عينيه بمنديل كبير.

وفتحوا له الباب، ودخل واحد من الحراس خلفه بالسلاح والآخر يسحب يده في حذر.

وكان باب «الكردون» هذا عند مدخل المدرسة الثانوية بمصراتة الآن.
وسلم «أبو شحمة» الرسالتين إلى الكولونيل الإيطالي في مقره.. كانت الساعة العاشرة صباحاً.

وفي اليوم نفسه. وقبل هذا بثماني ساعات كان من طرف الطليان تهديد مخيف للمساجين.. إذ كان في الساعة الثانية صباحاً دخل ضابط برتبة كولونيل إلى السجن ومعه ترجمان.

وكان اسم هذا الترجمان «جوسيبي كورنيري».

وقال القبطان في لهجة المتغطرس وإشارة المتعجرف وفي عبارات مسرعة كأنما يلقي شيئاً عادياً وهو يلتفت للترجمان:

ـ اخبر هؤلاء العرب المحابيس أن اليوم عند تمام الساعة الحادية عشرة سينفذ فيهم حكم الإعدام ومن يرغب فيهم عمل شيء من شعائر دينه فعليه أن يعمله ويفرغ.

وقد سلموا لكل سجين كوب ماء وبه حفنة من الملح.

وكان المساجين في صلواتهم وأدعيتهم ينتظرون الموت وساعة فراق الحياة والتخلص من قضبان الطليان.

ما كانوا يظنون أنهم سيخرجون إلى الحياة.

ولما جاءت رسالة ـ رمضان شتيوي ـ وقرأها الإيطالي دهش وفتح فاه ذعراً.

وفي لحظات شدّته دوّامة من المخاوف والارتباك.. دهش لأنه كان يعتقد أن الأسرى في يد العرب يعاملون معاملة سيئة.

ثم بلغت به الدهشة حافة التخوف والذعر فهو لو نفذ حكم الإعدام في المساجين العرب الذين تحت يده ـ لا شك ـ عند ذلك أن الأسرى الإيطاليين سيعدمون وسيلاقون نفس المصير.. وارتبك وأعاد قراءة الرسالة.

ونادى على زملائه من الضباط.

ونظروا في الرسالتين بسرعة.

إحداهما بإمضاء ـ رمضان شتيوي ـ.

قد لا يعرفون إمضاءه بالعربي.

ولكنهم يدركون لهجة التهديد.. تهديد الواثق بنفسه.

والرسالة الأخرى بإمضاء القومندان الأسير «فكّي» يعرفون خطه وإمضاءه جيداً.

لا زال حياً يرزق.

وسرعان ما أبرق المسؤول الإيطالي إلى طرابلس.

وطلب رفع حكم الإعدام موضحاً الأسباب الطارئة المخيفة.

وأما حامل الرسالة ـ محمد سليمان بو شحمة ـ فقد مكث بدار الكولونيل ساعات قليلة ولكنه رغم القلق الداخلي كان رابط الجأش وإن زج به هؤلاء في السجن لا يهم فهو قد تطوع لأداء الواجب.. وانتظر ساعات.. ثم كتبوا له جواباً على الرسالتين بل غدت ثلاث رسائل.

وقدموا له شيئاً ملفوفاً في قرطاس.. صناديق صغيرة من علب الكرتون.. وزجاجات بها سوائل وسأل.. ما هي؟.. لن أستلمها حتى أعرف ما في هذه اللفائف.. وفتحت الأوراق الملفوفة.

إنها أدوية ليعالج بها القبطان الجريح.

لقد ألغي حكم الإعدام على المساجين العرب ولم يكن هذا بدافع الرحمة والشفقة على هؤلاء إنما بدافع التخوف على مصير أبنائهم الأسرى.

خضع الطليان تحت تأثير اللهجة الحادة الحازمة.. فلولا تهديد المسؤولين في القيادة الوطنية لضاعت أرواح أولئك المساجين العرب بعد ساعة من زمن.

بل لو تأخرت الرسالة في الطريق.

أو لو جبن إنسان عن حملها لضاعت أرواح بريئة تضاف إلى قوائم الضحايا الأبرياء.

وعاد «أبو شحمة» بعد أن ربطوا له عينيه في الخروج كما ربطوها عند الدخول.

وحمل الرسائل الثلاث وقراطيس الدواء.

وأيضاً كان الذي قرأ الرسائل الواردة.. الضابط المناضل «السنوسي أبو القاسم» فقد كانت الرسائل محررة بالإيطالية مع أن كتيبة الطليان كان لديهم من يعرف الكتابة العربية من المترجمين الذين صحبوهم معهم في حملتهم.

ولكنه نوع من الغطرسة وإظهار التشبث بلغتهم.

● الرسالة الأولى ـ إعلام المسؤولين العرب إبدال حكم الإعدام على المساجين.

● الرسالة الثانية ـ يخاطب فيها القبطان الأسير:

كنا قد بلّغنا أنك مفقود والآن بلغنا زوجتك أنك أسير عند العرب وبلغنا الحكومة الإيطالية التي لن تنساك.

● الرسالة الثالثة ـ من طرف الضباط الإيطاليين إلى زميلهم الأسير يتمنون له السلامة والأشواق الحارة.

وهناك ورقة أخرى من الطبيب الذي صحب الحملة يبدي فيها النصائح والإرشادات للأسير الجريح وجاء في سطورها:

ـ اغسل الجرح بهذا الماء.. وادهن بـ «البوماطة» واربط بالشاش، وحذار أن تأكل الفلفل.

* * *

وهكذا يبدو أن المجاهدين أرسلوا الإنذار أكثر من مرة.

مرة مع الدرويش «عبود» كما سمعنا من أكثر من مجاهد حضر تلك الأيام.

ومرة مع «أبي شحمة» كما قرأنا في مذكرات الضابط «السنوسي بن أبي القاسم».

وهي تدل على مدى التنظيم والاهتمام في الحركة الدفاعية وإنقاذ «سعدون» وزملائه من حبل المشنقة ورصاص الغادرين. وقد ادخرته الأيام ليعيش ويخوض معارك أخرى تشرف تاريخ النضال البطولي.

* * *

معركة رأس الطوبة وبفار:

عندما وقعت معركة القرضابية عام 1915م.

واعتقل سعدون وهو في بلدته مصراتة وجمع من المواطنين تجمع المجاهدون يوم الثلاثاء وهرع الناس من كل قبيل واستطاعت قوات الفرسان أن

تستولي على المركز الإيطالي وحاصر المجاهدون قوات الطليان ومعسكراتهم في مدينة مصراتة من كل جانب ومكان.

كان موقع المجاهدين ومركزهم في مكان يسمى «كرزاز» يقع في طرف المدينة.

ووقعت المعركة الحامية التي تعرف في تاريخ النضال باسم:

● رأس الطوبـة.

وهذا الموقع بين المدينة وشاطىء «قصر أحمد».

واستطاع المجاهدون أن يطهروا هذه المنطقة من فلول الاستعمار ولكن هذا كلف ثمناً من دماء الأحرار.

سقط من الشهداء 150 شهيداً من شباب البلد وشيوخها.

كان منهم 70 شهيداً في يوم الأربعاء.

و 200 من الجرحى.

وانسحبت فلول الطليان لتستعد لمعركة أخرى.

وأيضاً أظهر المجاهدون بطولة في اقتحام طوابير الجيش الإيطالي.

إنها معركة تسمى في تاريخ بطولات الشعب.

● معركة «بفـار».

كان بين معركة «رأس الطوبة» ومعركة «بفار» عشرة أيام وهناك من لا يزال من المجاهدين يربط جراحه من معركة «رأس الطوبة» ولكن مع هذا ها هو يسرع ليخوض معركة جديدة معركة «بفار».

فقد كان من العيب على الفارس والشاب أن يستمع إلى صوت النفير يدعو للجهاد وصد قوات العدوان ولا يتقدم.

ولقد كان من حسن الحـظ في هذه المعركة أن شاركت الطبيعة.. طبيعة الأرض في محاربة ومقاومة الأعداء.

فرغم خططهم التي رسمـوها.. رغم خـرائطهم التي بـرقشوهـا.. ومعداتهم الفتاكة التي اعتمدوا عليها.

فرغم نشاط جواسيسهم وصنائعهم والذهب الذي نثروه قبل إنـزال الحملة العسكرية.. مع هذا كله.. كانت قوات إيطاليا في سيرها تغرق في أرض - السبخة - التي غاصت بهم ومادت.. كانت تظنها مستنقعاً ضحلاً أو أرضاً يمكن السير فيها.. أو هي بحيرة صغيرة يمكن للقوات المنسحبة تحت ضربات الفرسان المجاهدين أن تجتازها.

ولكن القوة الإيطالية غاصت وابتلعتهم - السبخة - تلك الأرض التي أغرتهم ومسحت الغرور عن جبينهم وكم كانت تتعالى صرخات جنودهم وهم يلوحون طالبين النجاة - ولات نجاة - وفي هذه المعركة أسر المجاهدون القبطان الإيطالي وجماعته.

وجرح في معركة «السبخة» واستولى المجاهدون على كميات وافرة من الغنائم والذخيرة والأسلحة وقد ضرب المثل الشعبي في كثرة الغنائم فيقال «غنيمة بوفار».

معركة جرف المقاصبة:

وبعد معركة وموقعة - السبخة -.. بوفار.. رأس الطوبة.

حيث ابتلعتهم الأرض وأصلاهم المناضلون بضرباتهم وهجماتهم المنظمة.

هدأت الساحة قليلاً هدوءاً نسبياً.

ذلك السكون الذي يمزقه بين يوم وليلة طلقات مجاهد واقتحامة فارس وتجمعات واستعداد.

إلى أوائل شهر رمضان.
عند وقت السحور.
وقبيل الفجر عند تمييز الخيط الأبيض من الخيط الأسود.
طلعت قوات من الطليان على ناحية تسمى:
● جرف المقاصبة.
وتصدى لها فرسان المقاومة فرسان الساحة والمناضلون عن الديار.

ووقعت مشابكات عنيفة.

واشتد حماس المقاومة.. وثبت المناضلون.. وبدأت التكبيرات تعلو لتمتزج مع طلقات الدفاع.

وانكسرت القوات المباغتة.

وبعد هذه المعركة التي أوضحت.. كالمعارك الأخرى.. معدن هذا الشعب وأوضحت جرأة هؤلاء الفرسان صدرت الأوامر للقوات الإيطالية من قيادتهم بالجلاء عن مدينة مصراتة.

وانسحبت إلى ميناء «قصر أحمد».

وشأن القوات الاستعمارية في عمليات الانسحاب وساعات الجلاء والتقهقر بدأت من طرفها روح الانتقام والثأر في أثناء الانسحاب.

لقد أخذت هذه القوات المنسحبة تنهب الأموال وتهدم البيوت.. بل إنها أجبرت تحت تهديد السلاح وفوهات المدافع بعضاً من أهالي مصراتة على الذهاب معهم عن طريق البحر.

بعدها خرجت قوات إيطالية من الجهة الشمالية مقتربة من قبيلة «يدّر» إلى «أبي شعيفة»، من طرف المدينة إلى ناحية «قصر أحمد».

وخرج المواطن (إبراهيم الشوشان) وقال:

ـ المدينة ليس بها أحد من قوات الطليان.

ثم دخلت قوات المجاهدين إلى المدينة.

وأسبوع واحد بعد معركة «جرف المقاصبة» تطهرت البلاد من أقدام الجنود الاستعمارية.

وفي اليوم السابع من شهر رمضان 1333هـ.

دخلت القوات الوطنية برئاسة «رمضان الشتيوي» مدينة مصراتة وكان دخول هذه القوات النظامية المناضلة ليس تحت جنح الظلام بل في وضح النهار علناً.

عند الساعة الثالثة بعد الظهر.

ولكنهم وجدوا أن قوات الطليان المنسحبة عاثت في الأسواق فساداً..

حطمت الدكاكين.. وسرقت أقفالها وبضائعها ونهبت البيوت.

ولكن من الغريب أنهم وجدوا في المخازن التي خلفها الجيش الإيطالي وراءه في المعسكرات والثكنات شيئاً من المكرونة والبشماط والدقيق.

وما يقرب من عشرة آلاف طن علف للخيول.

أترى كان سهواً تركوه.. أم لم يجدوا وسيلة لحمله.. أم ظنوا أنهم عائدون إليه؟.

* * *

وسبعة عشر يوماً مرت على انسحاب القوات الإيطالية من مدينة مصراتة.

ومكثت في «قصر أحمد» حيث الميناء البحري.. واحتمت في ظل الأسطول حتى يوم 24 رمضان 1333هـ.

وأخيراً اضطرت إلى الانسحاب من ميناء قصر أحمد.

لقد جلا الأسطول عن هذا الشاطىء.

ولكن هل يعود ثانية..؟

إن عاد.. فإن القدر هيأ له أبطالاً يخوضون المعارك ويبذلون النفس.

إن سعدون ورجاله ذخيرة هيأتها المقادير لتسطر في سجل البطولة والمقاومة سطوراً من نور ونار.

من ضياء النور ومن لهب النار.

من قبس الحق.. من معدن البطولة.. سعدون.

هو ابن الشعب الذي سيقف لعودة الأسطول الإيطالي وينازل جحافل الاستعمار.

ولكن قبل هذا.. كانت في الميدان السياسي والعسكري حالات وأحوال هناك صفحات مطوية يجب أن نبسطها ونلقي عليها نظرة.. كيف كانت حالة البلد الاقتصادية والاجتماعية.. هناك صفحات من تاريخ النضال مطوية يجب أن تبسط.. صفحات يجب أن يعرفها أجيال شباب هذا الوطن.. إنها أزمات وهزات في المجالات العسكرية والسياسية.

كان في تلك الآونات مجاعة اجتاحت البلاد.. والغلاء مرتفع وليس بالبلد طعام كاف.

والطليان يُنزل كل يوم مزيداً من القوة والعتاد ويعبىء كل جهده لاحتلال هذه الرقعة.

ومع هذه الضربات المتوالية والحصار المشدد والخطط الممولة من طرف الاستعمار وأعوانه.

مع كل هذا.. هناك في ساحات النضال وميدان الجهاد بواعث الإعجاب والتقدير لهذه البطولات.

فروح المقاومة قوية ومعنويات المجاهدين فوق ما يتصور الناس.

صفحات مطوية يجب أن تعرف وتدرس ونلتمس فيها جوانب العظمة وآيات الاعتزاز.

تنظيمات

1 ـ غواصـــه

وهذه إحدى الأسرار وجوانب من الصفحات المطوية من تاريخ النضال لتلك الحقبة.

هذه إحدى الأسرار عن وصول الأسلحة والذخيرة إلى أيدي المجاهدين في ذلك الجو الذي قاوم فيه سعدون وأمثاله من رجال الحركة الوطنية. وننقل هذه المعلومات بدقة وأمانة معتمدين على مذكرات أحد المجاهـدين الذين شاهدوا هذه العمليات.

وأيضاً رواية الضباط والمجاهدين الذين أخـذنا نستقصي منهم هـذا الموضوع.

فقد كانت الغواصات هي المنفذ الوحيد الذي تصل منه الأسلحـة والذخيرة إلى أيدي المجاهدين وقوات الجيش النظامي.

كانت الغواصات تأتي بين الفينة والفينة.

وهي غواصات ألمانية.

ومن طرائف ما حدث في قصة إرسال الغواصات هذه الحادثة التي نسوقها هنا عام 1916 م ـ 1333 هـ.

أرسلت الحكومة التركية غواصة إلى المجاهدين وبعثت معهـا (يحيى الباروني).

ونزلت على قصر العرعار ويقع هذا المكان قبلي مصراتة.

واتفق مع قائد الغواصة بأن تعود إليه في يوم كذا.

وكان الرجل يرتدي بذلة وطربوشاً وفي الطريق تقابل مع أعرابي يسوق جملاً ودهش الأعرابي لهذه الهيأة في هذا المكان ولهذه المشية المتوجسة.. شخص وحيد في الخلاء يمشي مشية الحذر والارتياب.

ودنا الأعرابي منه وسأله ما يكون من أمره وما مقصده.

وهنا بادر الرجل المطربش وسأل الأعرابي:

- من يحكم مصراتة؟

أجاب الأعرابي:

رمضان الشتيوي

وعاد يسأل:

- وما مصير الطليان؟

أجاب:

- حاربناهم وطردناهم من بلادنا من يوم كذا.

وهنا اطمأن (يحيى الباروني) وعاد يسأل للتأكد قائلاً:

- وما هي حالة المجاهدين؟

- الحمد لله عندنا مجاهدين وعسكر وعسكرنا يلبس رسمي وعندنا «سنسق» وهلال ونجمة والعسكر يدعو للسلطان.. هكذا كانت إجابة الأعرابي بالحرف الواحد.

وفرح «يحيى الباروني» وقال لصاحبه:

- ارفعني إلى مصراتة عند قيادة المجاهدين وأعطيك الأجرة التي تطلبها.

وهنا سرعان ما بدت نخوة وشهامة المواطن البدوي صاحب الجمل وقال:

ـ لا أجرة.. أنت مجاهد نرفعك للمجاهدين في سبيل الله.

وحمله فوق جمله وأتى به إلى مصراتة.

وعندما وصل إلى قبيلة ـ المقاصبة ـ من الناحية القبلية نزل الرجل المطربش.. مندوب الغواصة ليستريح قليلاً.. وأرسل يخبر المسؤولين في قيادة المجاهدين.

وما مضت ساعة حتى جاء من طرفهم من استقبله الاستقبال الحسن.

وكان ـ رمضان الشتيوي ـ أوان ذاك في «مسلاتة».

وأرسلت له رسالة مع راكب هجين.

وكان أن بادر رمضان بالعودة ومقابلة مندوب الغواصة «يحيى الباروني»، وكان لقاء حاراً واجتماعاً أخوياً.

وعاد رمضان إلى مسلاتة.

وأما السيد «يحيى الباروني» ففي اليوم المحدد مع قائد الغواصة رجع إلى منطقة «قصر العرعار» هناك عند الشاطىء المهجور ينتظر إشارة الغواصة.

وبعد أربعين يوماً تقريباً رجعت الغواصة وفي صحبتها غواصة أخرى كان بها المجاهد «سليمان الباروني» ويحيى الباروني، والبنباشي أركان حرب «عبد الرحمن نافذ» واليوزباشي «حسني» ومعهم البنباشي الألماني «بارون فون تندوره» وخادمه «باؤمن».

* * *

كانت مساع حميدة من المناضل «سليمان الباروني» للصلح بين صفوف المواطنين في أنحاء طرابلس الذين كادت أن تعصف بهم رياح الخلافات والمشاكل الداخلية.

تلك الخلافات وأشكال الصراع الداخلي بين الأطراف التي هزت الجبهة الوطنية.. والتي كان يود كل منصف ألا تحدث بين صفوف المناضلين.

ولقد كان لصفوة من الأحرار السياسيين مساع متواصلة وخطوات مخلصة للصلح وضم الشمل والاتفاق بين زعماء المقاومة.

* * *

ولقد أدت الغواصات دوراً في مدّ المجاهدين بالأسلحة والذخيرة، وكانت تأتي كل أسبوع تقريباً غواصة وأحياناً غواصتان تكون مشحونة بالعتاد الحربي وأجهزة اللاسلكي والمدد للجيش المناضل.

* * *

2 ـ مدرسة ومصنع

وفي هذه الفترة من المقاومة كانت هناك ترتيبات اتخذت لسد حاجة البلدة من الصناعات الضرورية وأنشأت لهذا مدرسة فنية ومصنعاً واستطاعت هذه المؤسسة أن تقوم بسد كثير من الحاجيات التي تطلبها مثل تلك الظروف غير العادية.

واستطاع «نوري باشا» الرجل النشيط أن يضع مع المسؤولين تخطيطاً وتنظيماً لبرامج هذه المدرسة والمصنع.

فعندما جاء إلى جبهة ـ مصراتة ـ وأطلعه المجاهدون على تطور الحالة من الناحية العسكرية والاقتصادية والفنية وكان هناك عدد من الأسرى الطليان وقعوا في أيدي المجاهدين أثناء المعارك فطلب «نوري» من قومندان الأسرى أن يقدم له كشفاً بالمهن والصناعات التي يحترفها هؤلاء.. وقدم القبطان كشفاً يوضح ما لديه من الصناعات والحرف المختلفة.

عدد من الحدادين والنجارين والميكانيكيين وغيرهم.

وابتنى «نوري» مشروع المدرسة الفنية وقسم فيها أنواع المهن والصناعات.

كان رئيس العمل في الورشة يدعى ـ سرجيتني فاريني ـ وهو من الذين وقعوا في قبضة الوطنيين أسيراً وكان الرئيس المسؤول عن التنظيم الإداري وسير الأمور في المدرسة من المجاهدين هو «أحمد أفندي الكاشف».

وظل الأسرى يشتغلون في صنع الطناجر، الكيزان، قصاع الأكل، المطارق، وأعمال منوعة من الحدادة والنجارة. وخطط «نوري» أيضاً بجانب مشروع المدرسة الفنية مشروعاً آخر كانت البلدة في حاجة إليه:

● المدبغة.

وكان رئيس المدبغة المجاهد «نوري أفندي» وهو من العناصر المثقفة وخدم هذا الرجل البلد بإخلاص وغيرة أيام المقاومة وأدى مجهودات طيبة.

فقد أصبحت مدينة ـ مصراتة ـ في حالة حصار لا منفذ لها يفرج أزمتها الاقتصادية.

ولكن المجاهدين أخذوا ينظمون العمل في الورشة الفنية والمصنع والمدبغة.

وأخذت الأيدي العاملة من أبناء الوطن تدبغ جلود الجمال وجلود الماعز وتصنع منه «فيلالي» والأحذية والصنادل والقرب وشتى المصنوعات الجلدية.

يعلمون أن الشوط طويل.

وأن المقاومة والحصار ليس بالشيء اليسير.

كانت النعال في أرجل المجاهدين وجنود الجيش المناضل تصنع من جلود الجمال وما كانت تخاط بالخيوط إنما كانت تشبك بنوع من التل «السلك» وكانت تصنع أيضاً في مدرسة «نوري باشا».

* * *

3 ـ مشكلة الكساء

وأما مشكلة الكساء والمنسوجات.

فهي مشكلة أخذت الأيدي المواطنة تعمل جادة في التغلب عليها

ومواجهتها بجد متواصل وقد أدت المرأة المواطنة مجهودات متواصلة في هذا الحقل.

كانت الأقمشة معدومة.

ولم يكن هناك طريق مفتوح للتجارة لا مع مصر من ناحية الشرق ولا مع تونس من ناحية الغرب.

الإنجليز يسيطرون على مصر ويراقبون الحدود الشرقية.

والفرنسيون يسيطرون على تونس ويراقبون الحدود الغربية.

والبلد محاصر مطوق.

والطريق البحري غير مأمون لجولان الأساطيل الإيطالية.

وحتى القوافل التجارية التي كانت تسير إلى بر السودان وأفريقية توقفت.

وهنا في أشد حالات الأزمة الاقتصادية والأزمة المعنوية.. في أيام الكفاح المرير يبرز دور المرأة المناضلة.

عملت نسوة البلد عذارى وفتيات وعجائز على حل هذه المشكلة.. فكانت الأيدي تنسج العباءات الصوفية والجرود والأحزمة والأبسطة وأنواع الكليم.

كانت المغازل في أيدي النسوة تواصل نشاطها وتؤتي نتاجها كسوة للعساكر والمجاهدين سواء أنفاراً أو ضباطاً.

وبجانب الأكسية والبدلات تصنع أيضاً الطواقي والسراويل والصدارات والجوارب.. كلها من صنع هذا النسيج الوطني.

تغزل صوفها الأيدي الرقيقة على فتائل الزيت وأضواء الشموع.

وبجانب هذا أيضاً تصنع المفروشات والزرابي والحمول والأبسطة الدقيقة الصنع الجميلة المظهر.

فقد تطوعت نسوة البلد في شكل جماعي وبروح مؤمنة من أجل العمل في أيام المقاومة الطويلة.

طالما سهرن الليالي.. ليالي الصيف وليالي الشتاء الطوال.. وكنت تسمع ـ لو أتيح لك أن تتجول ليلاً بين الأحياء والقبائل ـ تسمع أصوات ـ الخلالة ـ الحديدية ذات الجلاجل الصغيرة وهي تضرب بنغماتها المنظمة عندما تنسج بها المرأة العباءات والجرود وأصوات «القراديش» وهي تنفش الصوف.

وأغنيات فيها صور الإعجاب بالفروسية.

وأصوات رقيقة حنونة تهدهد الأطفال بألحان وطنية عذبة والدعاء بالنصر للمجاهدين.

أنشودات فطرية وأغان عفوية تزيح الملل وتبعث في النفوس نشوة الأمل.

أغنيات تلقنها الأمهات للأطفال، فيها معاني المثابرة والإصرار على فداء الوطن.

بابور الطليان تكسر

وهذه المغازل والقراديش والمسدة قد ساهمت في ميادين النضال بصورة فعالة.

وحتى ـ فحلات ـ الرصاص والأحزمة التي تكون للبنادق والسيور مأخوذة من هذا الصوف المنسوج وغطاء الجنود والضباط في ثكناتهم.

كل هذا من صنع نسوة مصراتة في أيام قطعت فيه البلد عن كل اتصال خارجي وطوقتها أساطيل الأعداء وطوابير الجنرالات.

كانت الكساوى والبدلات تفصل من هذا الصوف المنسوج ثم تخاط على شكل سراويل وسترات في مدرسة «نوري» أي بنطلونات وجاكتات للجيش النظامي المقاوم.

أما المجاهدون الفرسان فكانوا يرتدون اللباس القومي والزي المعروف من العباءات والأحزمة والجرود.

* * *

الكل في البلد غدا مجنداً يسهم في معركة النضال.

رغم الحصار المطوق وشدة المجاعة.

وحتى «نوري باشا» وكان للباشاوية وزن ونغمة في تلك الأيام.. كان هذا الباشا يلبس الطاقية والكسوة المصنوعة من غزل نسجته أيدي المواطنات.

* * *

4 ـ حلو.. وصابه..

كان مع شدة الحصار وعنف المقاومة مجاعة عمت البلاد حتى أنهم أطلقوا على بعض السنين تسمية.

● عام الحلو.

وإذا سألت عن أثمان المواد الغذائية الضرورية لهالك الأمر ويتضح جلياً على ضوء هذا مدى صبر هؤلاء الناس وشدة بأسهم وقوة روحهم المعنوية.

60 قرشاً أقة التمر.

700 قرشاً مرطة الشعير.

سبعمائة قرش ـ أي ما يوازي ثلاث ليرات ذهباً.

* * *

ولقد جادت الطبيعة بعد جدبها وإمساكها.

كانت جيدة مدرارة في عام 1335 هـ. 1916 م.

وأطلق الناس على هذا العام تسمية:

● عام الصابة.

أفاضت السماء بأمطار غزيرة وكانت سنة خصبة المرتع حتى أن الذين شاهدوا موسم الحصاد في هذه السنةقالوا:

- إن المحصول الزراعي كان بصورة نادرة.. المرطة تعطى (150) مرطة. بل في بعض المناطق كانت الطبيعة جيدة بصورة لا مثيل لها.. أعطت المرطة (220) مرطة.

ولكن مع هذا، لم تكن الأزمة الاقتصادية لتنفرج أو يزول شبح المجاعة.. لأنها سنة من عدة سنوات.. ولأن متطلبات الميدان الحربي والمصروفات العسكرية كانت تأخذ كل نتاج.. وتستوعب كل محصول وتجند لها كل ثروة مادية ومعنوية.

كان يفكر ويعمل للميدان ومساندة الحركة الوطنية كل مخلص في قلبه غيرة دافقة وإحساس كريم.

* * *

5 - تموين وكساوى الجيش

كان تموين النفر في الجيش المناضل على هذا الشكل:

● نصف أقة دقيق يومياً. وفي بعض الحالات قد يكون نصيب النفر ربع أقة دقيق شعير بنخالته.

● كل تسعة جنود كان نصيبهم ربع أقة زيت في اليوم. أو طاسة زيت للنفر - والطاسة هي الكوب الصغير الذي يشرب فيه الناس الشاي، وطول الكوب حوالي أنملتين - أي عبوة فنجان قهوة.

● أما السكر والشاي فمن عند أنفسهم.

● هو شيء كان يعتبر من الكماليات وأنواع الترف.

● أما الدخان - فكان من الطبيعي أن يتكفل به صاحبه، فإدارة الجيش

ما كان في إمكانياتها توزيع الدخان على الجنود والضباط والمجاهدين. . فالدخان نادر.

وهو من الترتيبات التي لا تنصرف إليها أفكارهم.

* * *

وكان مرتب الجنود النظاميين شيئاً ضئيلاً. . شيئاً رمزياً لا يزيد عن جنيهين في الشهر للنفر.

وأحياناً أقل من هذا.

أو بعملة ذلك الوقت $2\frac{1}{2}$ مجيدي شهرياً.

وكانت هذه المرتبات الرمزية تسمى بالتركي «كاتيك بدلي» أي بدل لحمة وخضار.

فكان الناس يقدمون لمقر قيادة الجيش والمجاهدين الزيوت واللحم والفحم للوقود.

وكانت نسوة مصراتة يصنعن الصابون في قوالب طويلة ويقدم هذا للمعسكر مجاناً.

ضريبة من تلقاء أنفسهن عن طيب خاطر. . فالمرأة التي تقدم زهرة بيتها وفلذة كبدها ورجلها للميدان. . للمعركة. . لخط النار. . هذه المرأة لا تضن أن تقدم من صنع يدها قوالب الصابون والأكسية. . وتصنع الطعام للجنود المجاهدين.

بل هي في ساحة المعركة تترك الحجاب. . وتنزل لتسقي الماء وتضمد الجرحى. . بل منهن مواطنات في الخط الأمامي ساعدن على تقديم ـ الجبخانة ـ الرصاص والبنادق المعبأة. . مساعدات جنود في خط النار. . ومنهن مواطنات ترسل الأغاني والأناشيد والزغاريد والشعر الشعبي المفعم بألوان الحماس.

شيء يجب أن يلاحظ هنا بكل اعتزاز وفخر، أن المرأة في تلك الآونة كانت تفخر بالشهداء. . فإذا سمعت أن رجلها أو ولدها سقط في ساحة الجهاد

شهيداً لا تبكي، وهي الأم أو الأخت، بل تجد في هذا فخراً واعتزازاً ـ بمثل هذه الروح في المجتمع النظيف.. في الوطن الجريء خاض المناضلون معارك الدفاع عن الوطن، وبمثل هذه الروح استطاع البطل «سعدون» أن يقاوم في ثبات وجرأة وإيمان لا يتزعزع.

* * *



المدرسة العسكرية

سدت فراغاً كبيراً. . وقامت بدور هام في ميدان الكفاح.

هي مدرسة عسكرية يجب أن لا ينسى أثرها الذين يكتبون تاريخ النضال الشعبي.

أدَّت سهماً في التنظيمات العسكرية وتدريب الشباب وتخريج أفواج الضباط.

أفواج تتبعها أفواج. وطوابير. . تتلوها طوابير.

كان تأسيس هذه المدرسة العسكرية في مدينة «مصراتة» بعد معركة «القرضابية» مباشرة وتعرف بمدرسة «نوري»، ولله در هذا الرجل كم ساهم في تنظيم الحركة مع القادة والزعماء المناضلين.

برزت هذه المدرسة العسكرية بتخريج الضباط عام 1915 م. وظلت حتى عام 1921 م.

زهاء ست سنوات ونيف.

نظمت فيها الدراسة العسكرية لتواجه الحاجة الملحة لتدريب الشباب الوطني الذي كان يواجه عدواً يقذف الشاطىء بالكتائب والطوابير المنظمة والمدربة.

خرجت هذه المدرسة العسكرية أفواجاً ومئات من الشباب الضباط،

مرنوا على التدريب واستعمال الأسلحة والتكتيك العسكري وفنون المقاتلة.. والحركات البارعة.

كانت فكرة إنشاء هذه المدرسة قد وجدت تجاوباً لدى قيادة المجاهدين..

وجُلبت لها المقاعد والأدوات ورسمت الخرائط.. وأحضرت الأسلحة اللازمة للتدريب.

وألقيت فيها المحاضرات والدروس في فنون التكتيك العسكري وإطلاق النار والمباغتة وتنظيم الصفوف والخدع الميدانية.

كان مقر المدرسة في ناحية «قصر أحمد».

كان مديرها اليوزباشي «أمين بك».

وفي مرحلتها الأولى عند بدء تكوينها كان عدد الطلاب المنتسبين حوالي (200) من شباب البلاد.. وقد ضمت المدرسة طلاباً من أنحاء زليطن والخمس وطرابلس والعزيزية والنوحي الأربع وترهونة ومسلاتة والجبل وغيرها وإن كان غالبية الطلاب الذين كانوا يتلقون الدراسة والتمرينات بها من شباب زليطن ومصراتة.

* * *

وكان التدريب الذي يقوم به العساكر في الجيش الوطني في مكان بالقرب من حيشان الملايطة. ومن المدرسين بها - عبد الله الشامي -.

وقد وضعت برامج الدراسة العسكرية على أن يأخذ المتطوع عاماً في التدريب.

ولكن الظروف المحيطة بالبلاد.. ومن أجل الضرورة الملحة.. كانت الأفواج تتخرج بسرعة لتأخذ مكانها في الميدان العملي.. فلم يكن هناك وقت طويل للدراسة النظرية والعدو يقرع الأبواب بقواته ويقتحم الشواطىء ويتوغل

في الوطن من عدة جوانب. . والطائرات تحلق والخطط ترسم للقضاء على هذا الوطن. .

وقد تخرج عدد وافر من ضباط الميدان من هذه المدرسة المحلية ووزعوا فعلاً على جبهات القتال. كان منهم من ذهب فور فراغه من التدريب للمساهمة في معارك ومواقع. . الخمس ـ المرقب ـ لبدة ـ سواني بن يادم ـ سيدي بلال ـ جنزور ـ عشيبة ـ الزاوية الغربية ـ زوارة ـ ترينة. إلخ.

* * *

ولا نستطيع هنا أن نثبت أسماء جميع الذين تخرجوا من هذه المدرسة. . وإنما في آخر الكتاب سنلحق جدولاً بالأسماء التي حصلنا عليها من خريجي هذه المدرسة العسكرية. . كما سنشير في بعض الحالات أثناء ذكر المعارك والنضال إلى الخريجين من هذه المدرسة العسكرية التي وجد البطل «سعدون» في خريجيها سنداً يؤازره وشباباً سار معه في معركة النضال أشواطاً أكسبت الوطن عزة ودافعت عن عروبته وإسلامه.

* * *

مجلس العلماء

وكان لهذه الفترة من أيام الكفاح وأعوام المقاومة مجلس لهيئة العلماء.

تعرض عليه المشاكل والشؤون التي تحتاج إلى رأي الشريعة، وصدرت عنه عديد من الفتاوى ووجهات النظر في الشؤون الإدارية والاجتماعية. . وكان هؤلاء العلماء يؤخذون من أهل الدراسة والشرع. . وتكوّن هذا المجلس من حضرات المشايخ:

- عمر المساوي.
- السنوسي عبد العال.
- رمضان بو تركية.
- رمضان بليبلو.
- عبد الرحمن بن نصر.

واستمر هذا المجلس للعلماء بعد موقعة (القرضابية) وأيام النضال.

وأيضاً كان موجوداً يؤدي مهمته، مسموع الكلمة، أيام مقاومة البطل «سعدون».

كان كثيراً ما يستشيرهم ويجتمع معهم.

وانتهى هذا المجمع العلمي عند احتلال مدينة مصراتة بعد استشهاد «سعدون» في موقعة (المَشرك).

* * *

بعد سفر نوري

وسافر نوري إلى الأستانة عن طريق الغواصة.

ولا شك أن الرجل بسفره ترك فراغاً في الجبهة.

وكان أن خلف مكانه اليوزباشي أركان حرب «محمد نشأت» في جبهة «مصراتة» وضواحيها وفي جبهة «الزاوية الغربية» كان «إسحاق باشا».

وأيضاً لم تدم مدة هؤلاء العسكريين إذ حصل خلاف بين «إسحاق» والمسؤولين الوطنيين في مصراتة وبلغ الخلاف والتوتر إلى مسامع الأستانة. وهنا أرسلت السلطات العثمانية حفيد السلطان (مراد) وكان هذا المندوب الجديد هو ـ.

- البرنس عثمان.. وبرفقته ـ عبد الرحمن عزام.

ثم عاد «نشأت» إلى البلاد التركية عن طريق الغواصة ورجع إسحاق إلى مقر قيادته في الزاوية الغربية..

وظلت الأحوال على المسرح السياسي والعسكري على ما هي عليه.. على الصعيد السياسي الداخلي موجة من الاضطرابات.. وعلى الصعيد العسكري والحربي مناوشات ومعارك بين الحين والحين.. ولكن بصفة عامة

كانت مثار الخلافات والنزعات الشخصية بين الساسة والقادة قد أخذت تشكل طابعاً مخيفاً وبشكل لم تستفد منه الجبهة الوطنية.. بمقدار ما انتهزتها اتجاهات السياسة الاستعمارية.. إذ وجدت منفذاً تتسرب منه..

وكان هذا التدخل الخفي وغير الخفي من السياسة الاستعمارية نتيجة حتمية للخلافات والصراع المرير بين أبناء الوطن.. فقد ظل المسرح السياسي فترة غير قصيرة مثار مضاربات..

ومن هنا تعرض الكفاح الوطني لهزات عنيفة. بينما كان العدو يتربص.

يسيّر القوة من ناحية.. ويغري بالذهب من أنحاء.

وعلى شاطىء البلاد وسواحلها يرسل الحملات العسكرية إثر الحملات وتقذف الأساطيل الاستعمارية بطوابير مسلحة وينثر الذهب لبعض أنصاره.

لقد أحدث الخلاف بين الزعماء هوة سحيقة.

وكانت تطورات وأحداث شغلت بال الناس.

ونحن هنا في الحديث عن تلك الفترة لا نود أن ندخل في التفاصيل.

لا نريد أن نغوص في أبعاد بعيدة.

ولكن بصفة عامة نريد أن ندرك الحقيقة الدامية حيث وجد البطل «سعدون» أمامه هزات عنيفة وأزمات في المسرح السياسي والعسكري.

وكان واجبه المقدس مضاعفاً ومجهوداته التي بذلها هو وأصحابه فوق التصور.

لأنه وجد أمامه تركات ثقال.

والأزمات يجر بعضها بعضاً.

وبصفة عامة.. قبل أن يتسلم «سعدون» زمام المعارك الوطنية كانت هناك حقائق مؤلمة. فمنذ سنوات كان النشاط في الميدان السياسي، والمجهودات العسكرية ظلت موزعة القوى مبعثرة.. هذا بينما كان الأعداء

المستعمرون يرسمون الخطط في تفنن ودراسة لسكب الزيت على النار.

حتى استطاعت قوة الاستعمار بشتى الوسائل أن تـدق ـ اسفيناً في صفوف وجبهات القوات الوطنية.

حتى ساءت الأحول على الصعيد السياسي والعسكري والاقتصادي في المسرح الداخلي، على المسرح أو على خيوط المسرح في الخارج.

وكان عام 1918 م.

وخسرت الحكومة العثمانية الحرب مع حلفائها.

ودخلت القوات المنتصرة ـ إسطامبول ـ وضـاعت عاصمـة الخلافـة وأصبحت البلاد هنا في الميدان وحدها بلا سند أو معونة خارجية.. سواء من الناحية السياسية أو الإمدادات العسكرية.. أو الإعانات الاقتصادية..

ومن هنا تضاعفت مسؤولية المجاهدين.. وأصبـح العبء على المناضلين مضاعفاً..

وبهذا لم يعد يجد المناضلون ـ الغواصة ـ التي كانت ترسل لهم شيئاً من إمدادات الذخيرة بل لقد كانت البلاد في نضالها الوطني وحدها من أول يوم.. إذ أن المساعدات كانت في الواقع بصورة غير منتظمة.

ومن أجل الحقيقة المجردة.

ومن أجل التاريخ وروح الانصاف.

نقول ونؤكد.. كان أكثر الضباط الذين ساهموا في الميدان العسكري من أبناء تركيا.. كانوا في تلك الآونة متطوعين من تلقاء أنفسهم وبدافع من الروح الإسلامية والكرامة العسكرية.. أو بدافع من معاني الغيرة الوطنية بمفهومها آنذاك.

فقد كانت ـ مع الأسف ـ حكومات تركيا الرسمية غير جادة كل الجد في

الأخذ بيد المناضلين وإمداد المجاهدين . .

ولكن كان هناك حفنة من الضباط المناضلين . . أمثال (نوري) وأخوه (أنور) و (إسحق) و (عبد الله تمسكت) وأضرابهم . . كانوا في صدق وإخلاص يقفون في صفوف المجاهدين بعزم قوي وحرارة ملتهبة وإيمان لا شك فيه . .

رغم الشوائب والملاحظات والسحب التي تعكر الأفق . .

رغم تخلي حكومات تركيا عن دراسة قضية جهاد الشعب دراسة واعية جادة .

وأيضاً إمدادات الغواصات الألمانية ـ مع أهميتها . . وسدها لبعض الفراغ ـ كانت ذخيرتها لا تغطي أرض المعركة ولا تكفي لاستمرار حرب طويلة في صحراء ممتدة ، وعلى شواطىء مترامية ، كانت ذخيرة الغواصات لا تكفي لمجابهة أسطول يتزايد في قواته على مر الأيام .

وهنا . . وبعد هنا . .
تبرز المعجزة التي صنعها الشعب المناضل .

ثبات الشعب وإصراره على مواصلة الجهاد وامتداد حلقات النضال في الجبهات الشرقية والغربية والجنوبية في ليبيا مع أن العواصف الداخلية والخلافات بين الزعماء تهز الموقف . .

كل زعيم له نعرة . . كل قائد له فكرة وخطة . . والشعب المناضل رغم كل الظروف وهيجان الأعاصير يقدم الضحايا ويجود بالقرابين .

يقدم الشهداء كل يوم . . في كل معركة . . في كل شبر من أرض ليبيا . . سهولها . . وشواطئها وجبالها ووديانها . .

ونحن نقف أمام هذه الحقبة .

حقبة المعجزة في تاريخ النضال .

وتبهرنا هذه الصورة البطولية .

وليت المجهودات التي بذلت في الخلافات بين الساسة والقادة في فترات الكفاح.. ليتها توفرت هذه المجهودات لضرب قوات الأعداء المستعمرين.

لو كان هذا..

لما استطاع الاستعمار أن يجد طريقاً للتدخل ورسم خططه لضرب قوات المناضلين ومحاولاته لتمزيق الصف النضالي.. وقد انتهز الاستعمار بخبثه وتربصه فنثر المال لضرب المعسكرات الوطنية من الخلف في شكل مرتزقة يسيرها «وبندات» يرسم لها طريق الانقضاض.

وقد انتكست بعض المجهودات.

وسارت «البندات» بقيادة الخطط الاستعمارية وبتوجيه من «روما» لضرب التجمعات الوطنية.. ومع كل هذا ـ ورغم سوء الحالة في الخارج وتخلي حكومات تركيا الرسمية عن مدّ المناضلين ورغم «الباندات» صنائع روما من المرتزقة.. رغم كل هذا.

فما زالت المعارك الوطنية تتوالى في صبر وثبات ضد الغزو المسلح.. رغم مدافع الأساطيل وقنابل الطائرات.

ما زالت قوات المجاهدين ترابط في جبهات متعددة وجرأة تسيطر عليهم.. روح فدائية.. وغيرة وطنية..

وهناك أزمات سياسية.

ولعل مما يعطي صورة أو جانباً من الأزمات السياسية في تلك الحقبة أن البرنس فؤاد أحدث أزمة.. فقد أبرقت له حكومته من إسطامبول تقول له في برقية عاجلة:

ـ لقد خسرنا الحرب (تقصد الحرب العالمية الأولى).

وتمضي البرقية في تعليماتها قائلة:

ـ وعليك أن تجمع الضباط والجنود الذين هم من أصل تركي وابتعد بهم

إلى بلد بعيد عن خطوط الحرب.

ولكن البرنس فؤاد كتم أمر البرقية وفحواها عن المسؤولين المجاهدين.

أوتدري ماذا صنع «البرنس فؤاد».. والبلد في موقف حرج متأزم؟..

* * *

البرنس في الموقف الأخير

أما هذا «البرنس» فبمجرد وصول البرقية إليه كتم أمرها ولم يشأ أن يطلع عليها رمضان شتيوي الذي كان يدير دفة الإدارة السياسية والنضالية في جبهة «مصراتة» ونواحيها.

وكانت هناك في الشاطىء المهجور آخر غواصة وصلت البلاد تحمل آخر شحنة من الذخيرة وبعض النقود.

وسارع البرنس فؤاد إلى طريق الهروب.

وركب الخيول هو وحاشيته.

من مقره بمدينة «مصراتة» في مكان يبعد أربعة كيلومترات عن «المواطنين» وسـار إلى طرف البلد حتى وصل إلى «قصر أحمد».

وكانت هناك نقطة عسكرية لأجل المراقبة والمحافظة وإعطاء الإشارة عند الخطر.

وعندما وصل «البرنس فؤاد» وقابله الضابط المسؤول برئاسة النقطة رحب به وهش له وهو لا يدري سر مقدمه المفاجىء في هذه الكوكبة.

وتقدم «البرنس فؤاد» وطلب من الضابط المسؤول بالحراسة أن يسمع له بالتخاطب بالتلفون ودخل الحجرة التي بها آلة التلفون.

وكان برفقة البرنس التركي وحفيد السلاطين برنس آخر من طرف دولة النمسا. لأن النمسا كانت حليفة لتركيا..

وكان معه المجاهد ـ سليمان الباروني ـ وبعض الضباط الأتراك والياور الخاص ـ شرف الدين ـ والملازم إحسان.

ومهندس التليفونات.

ومد البرنس يده لجهاز التلفون وطلب مأمور السر للقيادة ـ بلال أفندي ـ وأرهفت الأسماع وكانت نظرات من الموجودين تحمل أكثر من تساؤل لا سيما أن حركات «البرنس» غير عادية بدت على سحنة وجهه علامات الارتباك والحيرة أو مزيج من علامات الانفعال والقلق المفاجىء وجاء على خط التلفون صوت ـ بلال أفندي ـ

ـ حاضر نعم..

وطلب منه البرنس أن يرسل فوراً ثلاثة جمال إلى بيته ـ أي بيت البرنس ـ الذي بالمدينة ويحملها بالصناديق التي كانت توجد في الحجرة رقم (6).

كان جواب ـ بلال أفندي ـ للبرنس العثماني مفاجأة ما كان ينتظرها.. جواب صعق له.

لقد أجاب مأمور السر للقيادة قائلاً:

ـ آسف يا جناب البرنس.. إن «رمضان» أرسل قوة جندرمة يطوقوا المنزل، ويشددوا الحراسة عليه وكذلك المخازن عليها حراسة يقظة شديدة.. ليس من الممكن أن يخرج أي شيء.. لا ثلاث جمال ولا حتى صندوق واحد.

وألقى «البرنس» من يده سماعة التلفون.

واستشاط غضباً وبلغ به التأثر حده.

لا سيما وإن العلاقات بينه وبين رمضان شتيوي ليست على ما يرام، فقد كان هناك في المحيط الإداري بوادر وظواهر لسوء التفاهم وعدم الانسجام بين البرنس المدلل والقائد العنود، وقبل إرسال البرقية المشار إليها كانت بوادر الخلافات تتسع وتشتد بين الرجلين فكل ما كانت ترسله القيادة التركية من

هدايا ورسائل لصاحبه.. كان البرنس العثماني يحتفظ بها لنفسه ولا يطلع عليها - رمضان - وكان من ضمن هذا:

- سيف مرصع بالذهب وأحجار كريمة كان مكتوب عليها اسم رمضان.
- بدلة تشريفية.
- كان البرنس يكتم هذا الأمر في نفسه.

ومن الطبيعي أن مثل هذه التصرفات لا بدّ أن تتسرب أخبارها مهما طال كتمانها.

وفي ميدان التخطيط العسكري اختلفت وجهات النظر واتسع الخلاف وتزايدت الجفوة بين البرنس والقائد الصارم الجرىء - رمضان - فكان من الخطوات الطبيعية أن يطوق المخازن خوفاً من نوايا وتصرفات البرنس فؤاد.

وعندما تمت المحادثة التلفونية بينه وبين - بلال أفندي - تأكد له جلياً أنه لا يستطيع أن ينال شيئاً من المخازن ركب البرنس وصحبه من الضباط الأتراك خيولهم وقصدوا المكان الذي كانت ترسو فيه الغوّاصة الألمانية.. وكان بمقربة من - قصر العرعار - .

وعندما وصلت الأنباء إلى مسامع رمضان شتيوي.

وعلم بتفاصيل تحركات البرنس نحو الشاطىء وما جرى من المحادثة التلفونية وطلبه للذخيرة وحركاته المريبة.

وكانت قد تسربت أنباء البرقية.

عند ذاك طلب رمضان حضور البارون الألماني الذي كان موجوداً هناك.

وعندما حضر إليه سأله قائلاً:

- هل فيه معلومات جديدة؟

وأجاب البارون الألماني:

ـ لم يرد إليّ أي خبر جديد، وإنما وردت برقية بالشفرة إلى «البرنس فؤاد» وأرسلناها له فوراً.

وسأل رمضان:

ـ وما بها؟

أجاب الألماني:

ـ لا أعرف ما بها.. لقد سلمتها له.

فقال رمضان:

ـ إذن خابر برلين.. وماذا هناك من خبر؟

وخرج البارون إلى أجهزته اللاسلكية وبادر بالاتصال ببرلين.

وجاء الرد بعد منتصف الليل.

وكان فحوى الرد خطيراً ومزعجاً.

● الأتراك والألمان خسروا الحرب.

وليس هذا فقط بل هناك أمر موجه للألماني كنفس الأمر الذي صدر للبرنس العثماني.

لقد قالت برلين للضابط البارون:

ـ أنت ومن معك اعتصم في منطقة بعيدة عن خط الحرب إلى حين إشعار آخر.

* * *

وتأزم الموقف.

لقد سحبت تركيا نفسها من ميدان الحرب بطرابلس بصفة رسمية.. وحتى الألمان لن تكون لهم مساعدة.

وهل ينتظر ممن خسر الحرب وفقد الجولة أن يقف ليحارب مع الغير؟..

وها هو «البرنس فؤاد» يريد أن يتسلل هارباً في هذه الأوقات الحرجة.

قد يكون له مبرر عندما يطيع أوامر دولته.

ولكن لماذا يحاول أن يأخذ الذخيرة معه؟..

شيء لم أجد له تفسيراً أو وجهة نظر..

ولكن رباطة جأش المقاومين وإصرار أبناء الوطن على مواصلة الجهاد مهما كانت الظروف، ومهما ساءت الأحوال كانت مواقف رائعة..

إصرار على مواصلة النضال.

سواء تعكرت الظروف على مسرح السياسة الدولية أو على المسرح الداخلي فإن رغبة الشعب هي الصمود والنضال.

القوات الإيطالية تغزو البلاد.. والأعداء المستعمرون يتربصون بالوطن.

لا يهم.. أغضب البرنس العثماني.. أو انسحب البارون الألماني من الخط الحربي.

المعركة في الواقع معركة جهاد ضد غاصب أراد احتلال الوطن والقضاء على مقومات عروبته وإسلامه.

وطلب رمضان شتيوي من الضابط الألماني أن يذهب للغواصة ويبلغ قومندانها أن لا يأخذ معه البرنس فؤاد.

وركب الألماني الهجين ووصل إلى ضابط نقطة الحراسة في «قصر أحمد».

كان ذلك في ساعة متأخرة من الليل.

وسأله هل جاء إلى هنا البرنس التركي؟..

وأجاب الضابط المسؤول عن الحراسة:

ـ نعم جاء إلى هنا، ومكث نحو ساعتين ثم ركب هو ومن معه وقصدوا المكان الذي توجد فيه الغواصة، وأسرع البارون الألماني قاصداً جهة الغواصة. .

* * *

هذا بينما كان البرنس التركي عندما قصد الغواصة وجدها راسية وعمل وصحبه الذين معه إشارة لأجل أن ترسل لهم زورقاً.

ومضت لحظات ودقائق حرجة. . ثم مر الوقت ثقيلاً. . ولم يخرج من قاع البحر شيء.

وظل البرنس ينتظر.

وعندما وصل الألماني نزل بعيداً عن الخيمة التي كان ينتظر بها البرنس.

وعمل إشارة للغواصة ببطارية يد صغيرة كانت معه.

أرسل منها أضواء متقطعة بإشارات ورموز متعارف عليها.

سرعان ما طلعت فلوكة.

وكانت تحية سريعة وإشارات مطمئنة.

وحملته للغواصة وأخذته ونقلته إلى قاع البحر. . إلى الغواصة. . وفي جوف الغواصة اجتمع مع القبطان.

كان حديثاً حول موضوع الساعة والتطورات الدولية.

وتساؤلات عن أنباء المسرح السياسي.

وقال قائد الغواصة وهو يحاول أن يضغط على شعوره:

ـ نحن خرجنا من ميناء «بوله» النمساوية وبعد إبحار الغواصة منها بثلاثين ساعة احتلتها جنود إيطاليا وخط الرجعة الآن قطع علينا. . ولا يمكن أخذ أي شخص معي.

* * *

وفي الصباح طلعت فلوكة من الغواصة وبها القبطان والبارون الألماني.

تكلم البرنس التركي الذي تطاول ليله بخيمته على شاطىء «عرعارة» وقال لقائد الغواصة:

ـ خذني معك..

فأجاب هذا بنفس الكلام الذي أخبر به صاحبه البارون الألماني:

ـ إن خط الرجعة قطع علينا ونحن في حالة خطرة والمياه غير مأمونة العواقب.

ولكن البرنس المضطرب ألح في لهفة:

ـ خذني معك مهما كانت الحالة.

فكان الجواب.. مكرراً مؤكداً:

ـ آسف لا يمكن أبداً.

* * *

ورجع البرنس فؤاد إلى مصراتة في اليوم التالي في حالة مرتبكة.. وكان خجلاً من المسؤولين هناك.. ولكن عندما وصل إلى ـ رمضان الشتيوي ـ طمأنه وهدأ خاطره، وقال له بالحرف الواحد:

ـ أنا ومن معي فداك ولا يكون منك أي تفكير. وأنت لا زلت قائد وسنواصل الجهاد.

وتأثر البرنس من هذه الملاطفة وكان قد صور في ذهنه أنه سيلاقي حتفه أو على الأقل السخرية منه..

وأحضر البرنس ما في الخزينة التي كانت بها النقود في حوزته وأخذ في حسابها وعدّها.

وقام بتسليم ضباط الأتراك معاشهم حوالي سبعة أشهر مقدماً.. وقام بتسليم الباقي إلى رمضان.

ثم توجه البرنس إلى نواحي - بني وليد - وترهونه - ومنها إلى غريان.

وصمم البرنس على أن يدخل إلى أراضي تونس بعد ذلك بأيام.

فدخلها ومعه ياوره الخاص.

وسلم نفسه للسلطات الفرنسية.. والسلطات الفرنسية سلمته بدورها إلى السلطات الإيطالية وجيء به إلى المدينة طرابلس ومكث بمدينة طرابلس مدة، ومنها سار إلى إيطاليا.

* * *

موقعة ترينه

عندما خسرت تركيا وحلفاءها الحرب العالمية الأولى.

اجتمع رمضان الشتيوي مع أركان حرب ـ عبد الرحمن نافذ ـ والبارون الألماني وأبدى هؤلاء رأيهم ووجهة نظرهم في التطورات السياسية وقضية الصلح مع إيطاليا..

وكانت إيطاليا هي التي بدأت في طرح مسألـة الصلح على بسـاط البحث..

وقد أظهر هؤلاء الضباط المشار إليهم أن إيطاليا تريد الصلح لأجل المحافظة على الضباط والعسكر الأسرى لدى القوات الوطنية.. وقد أصر هؤلاء الضباط ـ عبد الرحمن نافذ ـ وأصحابه على قضية الصلح، وكان هؤلاء مخلصون في هدفهم..

ولكن كان هناك من طرف آخر تدبير لأحد الضباط.

وهذا عندما أصبح في مكان ـ إسحق باشا ـ من جهة «قصر خيار» حتى حدود تونس.

وكان مع ذلك الضابط بعض من الضباط الوطنيين.

وفي تلك الفترة.. ومن وراء ظهر المجاهدين.. وفي خطة لا يعلم بها المناضلون..

دبرت إيطاليا خدعة ومكيدة مع أحد الضباط.

وصار بينهم اتفاق على أن يسلم لهم جميع المهمات والأسلحة التي تحت قيادته - أي التي في الجبهات الغربية - من قصر خيار حتى حدود تونس..

وأرسلت إيطاليا مركباً بحرياً إلى ميناء «الزاوية الغربية» وركب بها ذلك الضابط واليوزباشي «حسن» واستقبلوا استقبالاً حسناً من طرف الطليان.

دبرت هذه الخدعة، ورسمت هذه المكيدة لضرب الحركة الوطنية.

ولكن كان في الجيش المجاهد المعسكر بالزاوية الغربية مناضلون أكفاء أباة أحرار.

● عبد العاطي الجرم ● عبد الله تمسكت ● مفتاح الفيل ● عوض العبيدي ● عمر سليمان الضراط ● السنوسي العسيلي ● محمد البهيليل.

وغير هؤلاء من المناضلين الأكفاء، وكان هؤلاء الضباط ورؤساء المجاهدين ناقمين ساخطين على خطة الضابط رئيسهم عندما تسربت فكرته التي أراد بها مخادعتهم.

ورأى هؤلاء أن ما رضخ له وفكر فيه هو خطوة خطرة على الحركة الوطنية، بل هي ضربة من الخلف للقوات الوطنية المناضلة.

ولكن كل واحد من الضباط - في بادىء الأمر - كان متخوفاً من الآخر، ويخشى أن يفاتحه في الموضوع لأن موضوع التسليم يكاد لا يصدقه مواطن مخلص..

وبعد أن مرّ يومان.. وبدت في الأفق علامات مريبة.

تصارحوا مع بعض لخطورة الموقف.

وهنا وجد الضباط المناضلون أنفسهم على رأي واحد وهدف واحد.. وبادر هؤلاء المناضلون إلى عقد جلسة مستعجلة.

في شبه مؤتمر عسكري.

ورسموا في هذا الاجتماع الخطة والهدف من النضال الواضح.

رسموا خطة الانتقال من «الزاوية الغربية» إلى موقع يسمى:

● ترينة ـ والعزيزية.

وكانت تحركاتهم فوراً بعد أن جمعوا مدافعهم ورشاشاتهم والذخيرة التي معهم..

وقصدوا فنادق «ترينة».

وكان هناك من لا يريد هذا من بعض أهل المنطقة.. اعترضوا على الفكرة وحاولوا منعهم.

لكن بالقوة والإصرار نفذ الضباط المجاهدون فكرتهم.

فوصلت قوات المجاهدين إلى منطقة «ترينة».

* * *

وأخبروا ـ رمضان الشتيوي ـ بالتلفون في مقر قيادته بمصراتة وأطلعوه على أن ذلك الضابط يريد عملية التسليم للطليان.. وتسليم الذخيرة والأسلحة.

وقالوا لرمضان.. قد سافر الضابط ومن معه إلى طرابلس في مركب، ولكن ضميرنا لا يرضى بخطتهم وخطواتهم.. لقد انتقلنا من الزاوية الغربية إلى موضع «ترينة» أدركنا غداً.

هكذا بادر المجاهدون بإخبار ـ رمضان ـ الذي كان يقارع الاستعمار الإيطالي ويسقي إيطاليا كأس المرارة.

وفي الحال بادرت القوات الوطنية في مصـراتة وأصدر رمضان أمره إلى حاكم مسلاتة بتحضير 1500 ألف وخمسمائة قفيز زيت من عنابر الحكومة الوطنية والمبادرة بإرسالها إلى قوات المجاهدين.. وطلب من الحاج «محمد الديب» قائم مقام الساحل بأن يبادر بإرسال مائة حمل شعير ومائة حمل من التمر إلى موقع ترينة..

كما طلب من قائم مقام «زليطن» عبد السلام التومي أن يجهز مائة حمل

من التمر ومائة حمل من الشعير وإرسالها فوراً إلى منطقة «ترينة» وجهز من مصراتة مائة حمل دقيق ومؤن عديدة وعشر شباك كساوى وأمدسة وعباءات وجرود.

أما عن الإمداد العسكري للمعركة فقد أرسلت هيئة القوات الوطنية (280) فارساً.

وركب معهم رمضان الشتيوي من مصراتة وأخذ معه نقوداً وذخيرة..

وفي الطريق وهو متوجه إلى «ترينة» ركب معه من زليطن: 95 فارساً.

وانضم إليهم من ناحسة الساحل: 47 فارساً.

فكانت جملة الحملة من كتائب المجاهدين التي بادر بها رمضان وتوجهت إلى «ترينة» ما يزيد على (422) فارساً مع الذخيرة والمؤونة.

* * *

وعندما وصل رمضان بقوته إلـى الموقع وزع على الضابط مبالغ من المال والكساوى والذخيرة والتحمت المعركة واشتدت المقاومة.

وبرهنت قوات المجاهدين على أنهم لا يسلمون أرض بلادهم للاستعمار والجيوش الإيطالية لقمة سائغة..

وما أن سمع ذلك الضابط الذي أراد تسليم وتقديم الأسلحة والذي كان قد سعى من طرفه للتسليم المبطن من وراء ستار حتى أحسَّ أن الجيش الوطني وقوات المجاهدين أدركت اتصالاته المريبة ونواياه.. فاغتاظ وانهار وأصيب بصدمة وذهب إلى إيطاليا قبل أن تمتد إليه يد المجاهدين..

هرب إلى إيطاليا وكانت نهايته بإيطاليا..

أما اليوزباشي ـ حسن ـ فقد سافر إلى إسطامبول.

* * *

واتخذ رمضان الشتيوي مقر قيادته في منطقة:

سواني بن يادم.

وفي هذه الفترة كان من المناضلين والمقاومين في صفوف الحركة الوطنية «صالح بن تنتوش» و«الصويعي الخيتوني» و«أحمد المريض» وغيرهم.. ودارت الأحوال بين مدّ وجزر وانتصار وهزيمة حتى جاءت مسألة الصلح وفترة الصلح المشهور..

وطويت صفحات.

وبدأت صفحات.

ويبرز موقف البطل «سعدون» بعد هذه الفترة ويكون دوره على المسرح النضالي بعد هذه الحقبة فيكون فارساً ادخرته الأيام ليؤدي الدور المشرف ويجود بنفسه في ساحة النضال في أحلك الظروف التي مرّت بالوطن العزيز.

* * *



عودة سعدون من المنفى

إطلاق سراح المساجين والصلح

في شهر شعبان 1337 هـ . 1918 م .

كانت اتفاقية الصلح بين حكومة المقاومين وإيطاليا .

وصدر القانون الأساسي .

وأخذت البلاد شيئاً من مقومات الحرية والحكم الوطني . . وأفرجت إيطاليا عن المساجين المعتقلين الذين كانوا تحت يدها . . وأيضاً عاد إلى مدينة مصراتة الأهالي الذين أجبرتهم إيطاليا على النزوح معها أثناء عمليات الانسحاب الأول من شاطىء مصراتة . . ورجع هؤلاء العائدون إلى مصراتة عن طريق البحر . .

كان في مقدمة العائدين من المنفى الشاب «سعدون» .

وجماعة من الأعيان والرجال المشهورين بمواقفهم الوطنية .

● التهامي قليصة ● سالم قصيبات ● محمد بن علي دغدنة ● أحمد السويحلي وغيرهم . .

وأطلق رمضان سراح الأسرى الإيطاليين الذين كانوا لديه ، ولكن كانت هناك شروط خطرة .

وفي اتفاقيات الصلح وجدت نوافذ ينبعث منها شرر الخطر .

فكان من شروط إيطاليا على حكومة المقاومين. .

- أن يكون جمرك ـ مصراتة ـ في أيديهم ـ أي الإشراف للطليان.
- أن يكون عندهم ضابط برتبة ـ ميجر ـ في نفس مدينة مصراته.
- ويكون مع هذا الضابط ـ الميجر ـ عشرة أنفار لأجل الإشراف على التلغراف المركزي.
- ويكون في سرت أيضاً نقطة عسكرية من الإيطاليين مكوّنة من مائتين (200) ما بين نفر وصف ضابط وضابط.

وهي في الواقع ثغرات ومنافذ.

شأن الاتفاقيات والمعاهدات التي تبرم مع دولة مستعمرة قوية.

ولكن مما كان مبعث رضا المقاومين أن صار الاتفاق على أن يكون الجيش الوطني كله من أهل البلاد وضباطه كذلك. . والمواطنون مسؤولون عن ملابس الجيش ومرتبات ضباطه وجنوده.

وعملت حكومة المقاومين على تنظيم الجيش وكتائب المجاهدين. . ولكن كان هناك في التنظيمات في صفوف الجيش الوطني ضابط واحد إيطالي.

كان برتبة ـ كولونيل ـ زعموا أنه للاتصال.

كما اشترطت الاتفاقية المبرمة إبدال العملة العثمانية ـ أي إبدال عملة الورق بورق إيطالي.

وهذا بلا شك خنق للاقتصاد الوطني.

وكان واضحاً جلياً أن المقصد من اشتراط المفاوض الإيطالي من وجود الضابط الإيطالي بمصراتة أن يكون قائماً بمهمة سياسية وليطلع على تخطيطات وتحركات حكومة المجاهدين. .

إنه جاسوس رسمي.

* * *

ولكن كان ـ رمضان الشتيوي ـ المسؤول عن حكومة مصراتة.

أذكى مما يتصورون وأشد حزماً وإدراكاً للموقف.

فقد رسم خطة لمحاصرة هذا الضابط.. وعمل على شل حركته ومراقبة تحركاته.

فقد هيأ للضابط الإيطالي منزلاً خاصاً وضيّق عليه المحاصرة والمراقبة وجعل عيون الجند والحراسة عليه يقظة.

كل من يدخل عليه أو يتصل به يعاقب عقاباً شديداً.

وتخوف الناس من الاتصال به.

ولا سيما أصحاب النفوس المريضة والذين قد يسيل لعـابهم ويذيب وجدانهم بريق الذهب الأجنبي أصبحوا يخشون الاتصال بهذا ـ الميجر ـ

فمكث مدة طويلة يحرق لفائفه وتتحرق أعصابه في سحب دخانها.. تبددت خططه التي رسمها والتي كان يحلم بتنفيذها.

وجد نفسه في منزل شبه أسير أو محاصر أو معتقل.

وأصابه القلق والفشل.

وأرسل لحكومته والجهات المسؤولة عنه يقول لهم:

ـ أنا شبه أسير لا أستطيع أن أبذل نشاطاً أو أتحرك.. لا يتصل بي أحد من الناس لا أستطيع نفعكم بشيء..

* * *

وعلى هذا أصدرت الإدارة بطرابلس أمرها إلى هذا ـ الميجر ـ القلق أن ينسحب من مدينة مصراتة بعد أن يأخذ آلة اللاسلكي ويرسلها إلى ميناء «قصر أحمد».

كانت هناك باخرة راسية في الميناء.. وركب مع آلته بعد أن أخبر ـ

الميجر - الإدارة الوطنية بمصراتة بأن حكومة إيطاليا أمرته بـالانضمام إلى طرابلس.

وكانت مخازن «الجمرك» ملأى بالمؤن.

فترك الإيطاليون المخازن وما بها والعسكري منهم ما كان يأخذ معه إلا معطفه وبندقيته.

أما نقطة مدينة «سرت» فقد كان بها القائم مقام المجاهد.

الحاج علي المنقوش.

* * *

معارك قصر أحمد

بعد عودة «سعدون» من سجنه بإيطاليا.

كان يتردد على قوات المجاهدين.

ويتابع شأن الشباب المتحمس في تلك الآونة مجاريات الأمور..

لكن - في الواقع - لم يظهر اسم «سعدون» في المحيط السياسي أو في الميدان العسكري إلا بعد موت أخيه الأكبر.. المجاهد البطل - رمضان الشتيوي - .

كان اسم رمضان وشدة بأسه يبعثان الرعب في قلوب الغزاة الإيطاليين.

وفي هذه الفترة بعد زوال شبح رمضان من المسرح السياسي والميدان العسكري.

بينما كان أخوه أحمد هو المسؤول عن الشؤون الإدارية والتنظيمات في هذه المنطقة الممتدة من ناحية «القره بوللي» حتى القوس بعد «سرت».

أما «سعدون» فهو المواطن العادي.

والشاب المتحمس لقضية وطنه.

والذي ذاق آلام النفي ثلاث سنوات متواصلة بين كورسيكا وسراكوزا.

الذي شاهد وهو يافع منذ عشر سنوات صولات المناضلين على الشاطىء.

الشاب المتحمس الذي ساهمت بلده بخيرة شبابها ورجالها كان قد ازداد حماساً والتهب إحساسه. . وتفجرت إرادته.

لقد كانت المقادير تخبأه ليخوض المعارك. . ويقود الجحافل. . ويسيّر الكتائب. .

«سعدون» قبل الغزو الثاني لشاطىء وسواحل المنطقة كان مجرد اسم شاب متحمس قد لا يعرفه إلا خاصته وأهله وأقرانه.

وإن كانت قصة سجنه وثباته قد عرفها الناس.

إلا أن كثيراً من الحوادث والتطورات قد غطت على هذا.

فقد تكاثرت السجون والمنافي وكثرت زحامات الاعتقال ووقعت في المنطقة وعلى طول الساحل ووديانه معارك وجرت أحداث وتطورات جعلت «سعدون» اسماً منزوياً ومجرد شاب من رعيل جيله المتحمس.

وظل الشاب الصريح أشد ما تكون الصراحة. . مواطناً عادياً. .

ولكن الأحداث كانت تهيئه لأن يقوم بدور في تاريخ النضال. . وكانت هناك صفات ومواهب تؤهله لذلك الدور البطولي.

وملابسات وهزات.

وقد أصيب الجيش الوطني النظامي بصدمة وارتباك في صفوفه.

نتيجة طبيعية للهزات العنيفة في الداخل والخارج.

كان لموت البطل ـ رمضان ـ وضياعه في دوامة وأعاصير الخلافات الداخلية صدمة في صفوف الجيش المقاوم.

بعد مصرع رمضان.

سرح عدد كبير من أفراد الجيش النظامي.

ولم يبق من القوات النظامية إلا حوالي (500) أو (600) من القوة النظامية

التي كانت تعسكر في منطقة «عبد الرؤوف» قرب مصراتة وعلى بعد حوالي (25) كليومتراً من قلب المدينة.

ورغم الهزات والصدمات العنيفة المتوالية ظلت معنويات الشعب قوية لمواجهة وصد الغزو الاستعماري..

* * *

كان هجوم الأسطول الإيطالي على شواطىء طرابلس في أكتوبر 1911 م، ولكنه لم يستطع أن يحتل مدينة «مصراتة» وشواطئها إلا في شهر مايو 1923 م.

وظل المستعمر بقواته وطائراته وأساليبه السياسية حوالي اثني عشر عاماً وهو يرسم الخطة تلو الخطة.

تارة من ناحية البحر.
وتارة من ناحية البر.

وثالثة ورابعة بالحرب النفسية والدعائية.

وبث عوامل الفرقة بين الزعماء والقادة الوطنيين أو إثارة النعرات ورياح التعصب على مختلف أشكالها في مجتمع كان العهد السابق قد تركه بلا مزيد من الثقافة والتفتح.

وكانت هناك في بعض الحالات وعند بعض النفوس قابلية لهذا.

ولكن بالرغم من كل تعبئة استعمارية ظل الشعب في هذا الوطن يناضل صادق النضال.

يصد قوات الأسطول.

وظلت تخطيطات الاستعمار تتربص وتكيد وتنتظر الفرص الملائمة والأجواء المتاحة لمواصلة التوغل والهجمات.

وكل ظاهرة وحادثة على المسرح السياسي الداخلي كان الاستعمار يتحينها وينتهزها للانقضاض على الشواطىء والوديان والبلدان.

ورسمت دوائر الطليان وفكرت جدياً في الانقضاض على شاطىء ـ قصر أحمد ـ بعد موت رمضان الشتيوي ومصرعه في النزاع الداخلي. .

لقد اختفى رمضان من المسرح السياسي والميدان العسكري.

وكان أن تعين ـ وولبي ـ حاكماً على طرابلس في شهر يوليه 1922 م.

وهو شخصية ضالعة في الروح الاستعمارية.

أخذ يضع التخطيطات من الناحية السياسية والعسكرية والنفسية.

كان في مقدمة تخطيطه الانقضاض على «مصراتة» وأنحاء الجهات الشرقية.

وتشهد ناطقة أدراج وزارة المستعمرات سابقاً وملفاتها. .
وتشهد مؤكدة أوراق وزارة الخارجية للامبراطورية سابقاً.
وتشهد الأوراق الكثيرة في جعبة القادة العسكريين سابقاً.

كل هذا يؤكد ويدل على رغبة الحاكم «وولبي» وتقريراته الطويلة التي كان يوالي إرسالها إلى «روما» على أنه يريد أن يهاجم الضفة الشرقية وإنهاء قلعة مصراتة بأي ثمن ومهما كلف الأمر. .

كان من ضمنها تقرير أرسله في شهر سبتمبر عام 1921 م. . أي بعد أن عين حاكماً على طرابلس بشهرين.

وفي هذا التقرير كان «وولبي» يستنجد بروما وبأصدقائه من كبار المسؤولين والمقربين هناك سواء كانوا مدنيين أو عسكريين ويرغب ملحّاً في أن تمدّه ـ روما ـ بالمدد الهائل.

وذهب التقرير الطويل والتخطيط المتشعب لينام في ملفات الأدراج الباردة. .

وظل الحاكم الجديد طموحاً إلى أن يكتسب نصراً ولو على الأشلاء والجماجم.

إنه يتحرق على الرد والجواب.

فالعظمـة الرومانية تدغدغ أحلامه.

والنفخة الرومانية تنفخ أوداجه.

ومرّت ثلاثة أشهر.

كلما فتح رسالة لا يجد رداً على مخططه الطويل.

ولم يتلق باللاسلكي رسالة الموافقة..

وما زال يحلم باحتلال شاطىء «مصراتة» والجبهات الشرقية..

* * *

وأخيراً.. وبعد تكتم شديد.. وفي عملية سرية.

قامت التحركات العسكرية في أول شهر في العام الجديد.

يوم 16 يناير 1922 م.

ولم تشعر القوات المجاهدة في البلد بتحركات القطع البحرية على ميناء «قصر أحمد» إلا بعد ثلاث ساعات من محاولة نزول القوات على الشاطىء.

وكانت حملة الطليان على «قصر أحمد» في هجومها المباغت مكوّنة كالآتي:

18 ـ قطعة بحرية من الأسطول.

1500 ـ بندقية.

4 ـ مدافع جبلية.

34 ـ رشاشـــة.

وكان ذلك في فجر الخميس 27 جمادى الأولى 1340 هـ 26 يناير 1922 م.

شركة التنارة

كانت هناك شركة تسمى «التنارة».

من مهمتها صيد الحوت الكبير وصنع «التن» وتعليبه..

وكان مكانها في موضع يسمى «الجزيرة» على صيغة التصغير.

وقد كان لهذه الشركة نشاط آخر ومهمة خطرة.

فقد كان رئيسها ومدير حركتها قبطان إيطالي يدعى «بلوزو».

وهو الذي استطاع أن يخدع كثيراً من أعيان مصراتة وتجارها وأن يتصل بالناس على مختلف طبقاتهم..

كان قبطاناً بحرياً في الموانىء الإيطالية.. جاب كثيراً من شطوط البحر الأبيض..

وكان عسكرياً.. ولكنه تظاهر بأنه استقال من الخدمة العسكرية.. وكان ـ آوان ذلك ـ عمره فوق الأربعين.

وقد قام «بلوزو» هذا بتأسيس الشركة في عام 1337هـ ـ 1920م.

وظل زهاء ثلاث سنوات يمارس نشاطه.

كان السهم في الشركة بمبلغ خمسين بينتو.

وظل يمارس نشاطه في مصراتة ونواحيها حتى مصرع البطل المجاهد ـ رمضان الشتيوي ـ ولكن كان نشاطه بصورة محدودة.. ولكن بعد زوال رمضان زاد نشاطه وكثرت اتصالاته بالناس وزاد عدد عملائه في الشركة.. وكان كثيراً ما يتردد بين مصراتة وطرابلس.

وكان يدرس الفرصة الملائمة ويتحين الوقت المناسب.

وقد أدرك الشعب نشاط «بلوزو» المريب.

وصوّره الشعر الشعبي قائلاً في تلك الآونة:

سياسات «بلوزو» في التن.
غير استّن.
غير اصبر ما زال يجن.
سياسات كبـار.
عاملهم ولدين الفار.
جايب حملة من الكفار.
بيملكنا ما عنده ظن.
سياسات «بلوزو» في التّن. إلخ...

* * *

ثم وجد «بلوزو» فرصة حانت له ولرؤسـائه في إيطاليا.

لقد مات رمضان واختفى هذا الشبح المرعب لهم.

ذهب عدو الاستعمار في دوامة دامية.

وقد تناقص عدد الجند النظامي.

وتبلبلت الأفكار بالاتجاهات السياسية.

وحدثت على المسرح الداخلي أحداث دامية.

والخلاف بين الزعماء والقبائل اتسعت رقعته.

حدث فراغ كبير في الميدان السياسي والمجال العسكري.

أصيبت البلاد بهزات متوالية.

ونشط عملاء الاستعمار واصطدم المجاهدون بأزمات متعددة وها هو «أحمد السويحلي» حاكم مصـراتة والمسؤول عنهـا إدارياً بعـد مصرع أخيـه رمضـان.

ها هو يذهب إلى منطقة «سرت».

ويقابل المجاهد «صالح الأطيوش» ورؤساء المجاهدين الآخرين لأجل

دراسة الموقف والظروف المتأزمة التي حدثت في المجالين السياسي والعسكري.

* * *

عند ذاك وجد «بلوزو» البلد ـ مصراتة ـ ليس بها الحاكم الذي كان يدير شؤونها الإدارية.

كانت تتعاون مع الحاكم الإداري هيئة منظمة على هذا المنوال:

علي بو حبيل	قائم مقام مصراتة
التهامي قليصة	المسؤول عن الشؤون المالية.
عمر الزيادي	قومندان الأمن المسمى «بالجندرمة»
عبد الله السركسي	قومندان المدافع
علي إبراهيم القن	قومندان البيادة ـ المشاة

* * *

وواصل «بلوزو» نشاطه وقدم للجهات الإيطالية المعلومات الكافية ولعب دوراً في المخابرات الإيطالية.

وكان نزول الطليان على شاطىء مصراتة بقصر أحمد يوم الخميس 27 جمادى الأولى 1340هـ.

وكانت قوات الجيش النظامي الوطني قد سرح أكثرها وتوزعت بعد مصرع رمضان.

وكان قوامها أثناء هجوم الطليان على قصر أحمد كما يلي:

150 ـ مشاة.

200 ـ طوبجية.

50 ـ جندرمة.

وكان مجموع القوات العسكرية النظامية لا يتجاوز (500) تعسكر في «عبد الرؤوف».

* * *

وحدث الهجوم المباغت على الشاطىء.

كان هناك ثلاثة أنفار من قوة الجندرمة للحراسة والمراقبة وهم:

- الأونباشي سالم وقة ـ من المحجوب.
- رحيمة القريد ـ يـدّر
- علي الأزرق ـ الرمـلة.

وسمع الجندرمة ضجة وضوضاء ولما أطلوا من الشرفة لاحظ الحراس جنود القوات المغيرة تصطف وأخذت في النزول من القطع البحرية.

وبادر أحد الحراس ومدّ يده إلى آلة التلفون ونادى:

ـ مصراتة.. مصراتة.

وأراد أن يخاطب مركز القيادة بالمدينة.

وردت مصراتة على الخط.

فقال الحارس بسرعة.. وفي عبارات مرتبكة هذه العبارة:

ـ المرسى مليان جيش.

وما كاد يصل لهذه العبارة حتى كانت مفاجأة سريعة في هذه اللحظة فتح الباب بقوة وعنف المدعو (بلوزو) وأخذ منه عنوة السماعة وقال:

ـ أنت تذهب لمصراتة.. اذهب وقل لهم إيطاليا احتلت «قصر أحمد» وعليكم أن تلزموا السكينة.. وكان (بلوزو) يجيد العربية.

* * *

الشعب يهرع إلى الميدان:

وكان من الجندرمة من نزل يعلم أهل البلد وينادي:

ـ الجهاد.. الجهاد..

ووصل الخبر إلى مصراتة.. وحصلت رجة في البلاد.

كان يوم خميس من أيام الأسواق.

والناس هارعة في جلبة السوق يقضون مصالحهم.

ترك الناس السوق وكل قد أخذ يستعد للمعركة.

بعضهم ذهب ليحضر سلاحه وكل بيت لا يخلو من سلاح ومن العار

على الرجل البالغ أن لا تكون عنده بندقية.

وتسارعت الطوابير النافرة إلى القتال لصدّ الغزاة الغاصبين.
والشباب على صهوات الجياد يشق طرقات المدينة.
والقبائل في الشوارع.
وجلجل الصوت منادياً في نبرات جهيرة.
ـ الجهاد في سبيل الله..
ودقّ الطبـل.
وذابت نغماته المدوية في الأسماع لتسري لهيباً حماسياً في النفوس.
وتراءت أمام عيونهم ذكريات الأمس القريب.. معارك لاهبة خاضها هذا الشعب.
وها هو النزول الثاني لهذا الأسطول ومدمراته.
منذ أحد عشر عاماً جاء بمدافعه وجنوده ودارت المعارك وتذكر الفرسان إخوانهم وأبناء عمـومتهم وضحايـا الشعب في معارك هـذا الشاطىء وفي القرضابية..

وعلت أصوات التكبيـرات.

وما زال في صفوف هؤلاء.. في هذه الجموع المتدفقة من خاض بالأمس في هذه الروابي وتلك الشطوط.. تذكر أيام ـ الرميلة ـ وجرف المقاصبة ـ ورأس الطوبة ـ.. بل منهم من خاض معركة «القرضابية» في الصحراء والهاني على شاطىء طرابلس.

وسرى الحماس والتهبت الأحاسيس. ودوى الطبل.
كل الجماهير في ساعة النفير تسارعت إلى الساحة.. نحو «قصر أحمد».
لن يهربوا من الأسطول.. بل سيجابهون الأسطول وينازلون الغزاة.
الأسطول عاد مرة أخرى.
والشعب يتحفز ويستعد.

والمنادي في فورة عارمة يلوح ببندقيته في فوران الحماس الملتهب وتمتزج

الأصوات.. أصوات الطبل المدوي بهتاف السماء.. بنداء الواجب.

بالنغمة المقدسة تسري من الحناجر القوية..

ـ الجهاد في سبيل الله..

* * *

والاستعداد لمجابهة المعركة لم يأخذ وقتاً عند هذه الجماهير المتدفقة كأنما انشقت الأرض عنهم..

في ساعات.. كانت مئات.. وآلاف.. جموع لا ندري كيف تسارعت.

وجموع القبائل تتوارد على الساحة.. منهم من جاء على صهوة جواد.. ومنهم من جاء على هجين وهناك من جاء على حماره.. وهناك من جاء يجري مقبلاً يهرع على أقدامه وسلاحه في يده.. ولهب الحماس يبرق في عينيه وشيوخ قد ابيضّت لحاهم.

وشباب ما زالت شواربهم طرية.

كان يوم الخميس من أيام النفير العام.

شباب في ربيع العمر ومقتبل الحياة.

وشيوخ في السبعين أو فوق.. أعمار متفاوتة.

لكن الهدف الذي يصوب إليه هذا السيل الجارف من الغضب المقدس.. هو هدف واحد عقيدة تلتهب..

يوم الخميس.. تاريخ من أعمق تواريخ هذا الشعب.

يوم الخميس.. الذي تسابقت فيه جماهير الشعب بصدورهم يفتدون أرضهم.. ويذودون عن الحرية.

* * *

وهناك من هرع في النجدة ـ والفزعة ـ لا يحمل سلاحاً بل لحمل الجرحى.

أو لبث كلمات التشجيع والأناشيد البطولية.

ذلك اللون من المقاطع الذي عرف في ميادين القتال ـ مهاجاة ـ وهو لون

من ألوان الفن الحماسي الذي كان يرتجل فيه الرجل المقاطع الارتجالية الحماسية.

ومنهم من جاء يحمي ظهور المجاهدين.. ومن أصيب في المعركة يحمل سلاحه ويضمد جراحه.

وأنشودة الزغاريد تنطلق من النسوة فتسري كالكهرباء.

نفير عام.. في يوم مهول.

يوم الخميس.. يوم هجمة الأسطول على «قصر أحمد».

* * *

طلقات وقذائف ولهيب:

انهالت الطلقات والقذائف من الأسطول بدون توقف.

وتوالت تدفقات الجماهير من أبناء الشعب دون انقطاع.

وفي هذا اليوم عمدت جواسيس إيطاليا إلى قطع جميع أسلاك التلفون المتصلة بمدينة مصراتة والجهات الأخرى وذلك ضمن أعمالها التخريبية ماعدا خط «قصر أحمد» أبقوا عليه لأجل غرض.

وكانت القوة العسكرية النظامية للقوات الوطنية تعسكر في منطقة «عبد الرؤوف».

* * *

والميدان يتطلب قائداً.

والساعة الحرجة تريد رجلاً يشرف على المعركة.

من يكون قائد الميدان.. ورجل الساعة الحرجة؟..

هنا.. يبرز «سعدون».

يبرز في تاريخ الكفاح البطولي شاباً يخوض المعركة بعزم لا يعرف اللين.. وإيمان لا يعرف التردد وبجرأة لا يشوبها خوف أو يعتورها خور.

ولكن قبل مجيء «سعدون» كيف كانت الساحة؟..

وما زالت الجماهير والقبائل صوب الميدان تتدفق في شكل تلقائي.

تجمعت قوات قبيلة «الرملة» وكان في طليعتهم شيخهم المجاهد «علي السطا».

وكان تجمعهم ما بين حيشان «قصر أحمد» والميناء الذي غزاه الأسطول.

وكانت قوات الجماهير متحفزة للضرب.

ولكن القائم مقام «علي بو حبيل» كان يقول للمجاهدين والقوات التي تدفقت من جموع الشعب ـ لا تطلقوا النار حتى تأتينا تعليمات من المتصرف (وكان يقصد ـ أحمد السويحلي ـ) الذي كان في تلك الآونة في منطقة «سرت».

وكانت التلغرافات مع «سرت» مقطوعة.

وكيف يعلم المتصرف.. ثم كيف يطول الانتظار.

إن لغة الروتين وأسلوب الإدارة والوظيفة لا ينفع في مثل هذه المواقف.. وليس من المعقول الانتظار..

وصبر هؤلاء قليلاً.. وشيخ قبيلة «الرملة» المجاهد «علي السطا» حاول أن يهدأ فوران القوات الشعبية المتحفزة.. ولكنه لاحظ مع المجاهدين أن قوات الطليان الغازية أخذت تنزل من الأسطول.. بل بدأت تتحرك من أماكنها.. وبدأت تزحف.. وأخذت تهيء شكائر الرمل.. وتحفر لإقامة الاستحكامات.. وهنا تأثر «علي السطا» وتوجه نحو القائم مقام «علي بو حبيل» الذي أمر بعدم إطلاق النار.. وقال له كلاماً عنيفاً في لهجة حادة شديدة.

ومن عبراته:

ـ أتريد مني أن أترك الطليان يحتلوا مصراتة بلا بارود.. ها هم ينزلوا ويزحفوا..

وأصدر «علي السطا» الشيخ المتحمس إلى أفراد الشعب أمره بالهجوم، وأشار بإطلاق النار.

واندلعت الشرارة.. والتحمت المعركة..

كانت الساعة حوالي التاسعة صباحاً..

وتوالت تدفقات الجماهير من كل صوب..

ومن الساعة التاسعة صباح الخميس 26 يناير 1922 استمرت المعركة

النضالية عاماً وشهرين متواليين. لا تستطيع قوات الطليان أن تتقدم رغم المدافع والطائرات والقوات المنوعة.

* * *

سعدون ينقذ الموقف:

ارتدى الشاب الجريء ملابس الميـدان.. وركب حصانـه.. ولكزه لكزات قوية.. وانطلق يثير الغبار من ورائه..

تتغبر قدماه في سبيل الوطن.

توجه «سعدون» إلى ساحة الميدان وكان معه (400) أربعمائة فارس من تلك الضواحي وما حولها.

جاء «سعدون» من زاوية المحجوب ـ أم البخـور ـ.. واستلم قيادة المجاهدين من أول يوم في معارك «قصر أحمد» وبادر «سعدون» بعقد أول جلسة مع أركان جيشه الحربي واتخذ مقرّ القيادة بناحية حيشان ـ الملايطة ـ ورسم خط الحرب الدفاعي.

- من وادي «بو شعيفة» إلى اتجاه «السبخة» من اليمين.
- ومن ناحية الشمال من ناحية «السبخة» إلى جهة البحر.

وكانت المسافة بين قوات المجاهدين وبين طوابير الأعداء مسافة قريبة جداً، مسافـة يسيرة كان يمكن أن تشاهدها بالعين المجردة.. إنها نصف كيلومتر.

* * *

عندما وصل «سعدون» إلى ساحة الميدان، كانت الساعة حوالي الخامسة مساء، وجد صفوف المجاهدين في ارتباك إذ أن المعركة تتطلب قيادة منظمة.. وكل خطة عسكرية تريد قائداً حازماً.

وسرعان ما سرى الخبر بين الصفوف المتحفزة..

ـ سعدون.. سعدون..

ذلك الشاب الفدائي الجريء.. صاحب الشخصية القوية والإرادة

الحازمة. . فكان لمقدم هذا الشاب مع هذه النجدة من الفرسان وقعاً رهيباً في النفوس وأثراً بالغاً في صفوف المجاهدين.

وكان يمتاز هذا الشاب بموهبة الشخصية الجذابة. . ورمقته العيون وهو فوق حصانه ويده تمسك بالسلاح وترسل عيناه بريقاً حاداً. .

ومن حوله الفرسان الأشاوس.

إنه لا يعرف الكلام الكثير. . ولكنه مفطور على النضال والفروسية. . وحتى من هو أكبر منه سناً كان يحترم سعدون ويشعر نحو «سعدون» بالإكبار.

تلك موهبة من الطبيعة لن تجد لها تفسيراً على محك العلم والتحليل.

* * *

ما كادت الجماهير المتحمسة في ساحة النضال تشاهد الشاب الفارس يقدم لخوض المعركة في الصفوف الأولى حتى ازدادت روحهم المعنوية قوة.

وعلت الأصوات والتكبيرات.

لقد كان مقدم «سعدون» إنذاراً بأن دفة المعركة ستسير بنظام وخطة محكمة. .

والتف حول «سعدون» كل القطاعات المناضلة. .

● الضباط في الجيش الوطني النظامي.
● رؤساء المجاهدين. .

وأخذوا ينظمون خطة الدفاع ووزع عليهم الأوامر والإرشادات. . وفي نفس الليلة وصلت قوة عسكرية من القوات النظامية قادمة من معسكرها في «عبد الرؤوف».

كان وصولها حوالي الساعة العاشرة ليلاً. . بعد مقدم سعدون بساعة. . وكان التفاف القوات النظامة والمجاهدين والفدائيين وجماهير الشعب وراء «سعدون» يشكل تجاوباً طيباً وتماسكاً في خطة الدفاع بشكل منظم.

* * *

وعين «سعدون» الحاج علي المنقوش قومنداناً للجبهة. . وكان اختياره لهذا لما اتصف به الرجل الحازم من شدة البأس وقوة المراس. . وكان هذا المناضل الجريء ينتقل من استحكام إلى استحكام آخر في خطوط الجبهة الأمامية. . ويتفقد الصفوف، ولا سيما في الليل حيث تشتد عمليات إطلاق المدافع من أسطول الغزاة.

وقرب طلوع الشمس. . شمس يوم الجمعة 27 يناير 1922م.

كانت قد بدأت في سرعة تنظيمات حركات خط الدفاع. . وكان ارتسامها من:

- ناحية «أبي شعيفة» ومن ناحية الغرب إلى حيشان «الملايطة».
- وبحراً إلى ناحية البحر.
- وكان خط الدفاع في تنظيمه من منطقة «أبي شعيفة» إلى حيشان «الملايطة» أطول من الخط الثاني ـ أي أطول من خط الملايطة إلى البحر. . ولقد ظلت المصاولات والتحركات مستمرة. . وإطلاق الرصاص ينهمر من غير انقطاع طيلة سبعة عشر يوماً متواصلاً. .

من ساعة إنزال القوات على الشاطىء. . حتى معركة «يوم السبت» الخالدة.

* * *

ومن مفارقات التناقض. . أن الحاكم «وولبي» أرسل مع هذه الحملة الأسطولية رسالة إلى الحكومة الوطنية في مصراتة التي كان مقرها «المواطين» ينبؤها بأن حكومة أيطاليا احتلت «قصر أحمد» وأنها تريد التفاهم مع أهل البلد.

تفاهم. . أي تفاهم هذا بلغة المستعمر. . ولهجة المعتدي. . وهل تحمل الأساطيل والطائرات المعتدية وداً؟. . هل لدى هؤلاء الغزاة الأجانب جانب يؤتمن؟!.

وكان الرد على هذه الحملة. . ما أجاب به «سعدون» والمجاهدون. .

طلقات ومعارك متواصلة.. ومواكب من الشهداء الأحرار.. ففي أول يوم النزول وقعت معركة أسفرت عن ثمانين شهيداً.. وردَّت جحافل الطليان، ولم تستطع التقدم.

* * *

وبعد ثلاثة أيام من غزو الأسطول لميناء «قصر أحمد».

أي في يوم الأحد 29 يناير 1922م جلبت إيطاليا أورطة من المشاة والمدفعية حتى تواصل ضرباتها على الجناح الأيسر من قوات المجاهدين.

وفي يوم 4 فبراير.

هاجمت فصيلة من الأحباش بيوت السكان في منطقة (دكيران)، وكانت معركة استعمل فيها السلاح الأبيض.. وأصبحت السيوف والخناجر تلمع في وضح النهار.. وانبثقت الدماء غزيرة لتروي الأرض التي تنبت الشهداء.. وتورق أشجار النضال.

كانت تعلو من صفوف الفرسان أهازيج التضحية والفروسية.

وفي معركة باسلة استشهد فيها العدد الوفير.. استطاع المجاهدون.. بعد مقاومة عنيفة أن يرغموا صفوف الأعداء على الانسحاب والتراجع.

عادت قوات الطليان تجر أذيال الانكسار والهزيمة.. عادوا يحتمون في ظل أسطولهم بعد أن خلفوا جثث قتلاهم..

وقد قطعت المواصلات التلفونية بين منطقة الساحل وبين منطقة «أبي شعيفة».

وواصلت المدفعية الإيطالية في تصويب القذائف.. ومع زمجرة المدافع.

رغم هذا.. غدا مركز القوات الغازية مزعزعاً ولم يستطيعوا التقدم صوب خط «أبي شعيفة».

واستمر تسابق الفرسان نحو الساحة.

وكان «سعدون» في المقدمة.. كان معه المجاهد «علي المنقوش» في

مجموعة من شيوخ الجهاد يحرضون على القتال.. وكانت المدافع الرشاشة مع الجيش الوطني النظامي..

وتكوّن خط الدفاع من قطاعات منوّعة.

1 ـ مجاهدون مرنوا على فنون القتال في عدة معارك.. كان قد سبق لهم أن ساهموا في معارك «سواني بن يادم» والقرضابية.. أمثال عبد العاطي الجرم والهادي الزربدي وعبد الله السركسي.. ومعارك نزول الطليان على شاطىء «قصر أحمد» عام 1912م. وغيرها من معارك النضال.

2 ـ متطوعون هرعوا لأول مرة على صوت النفير.. ودفعهم الإيمان إلى هذه الساحة.

3 ـ ومجموعات من الجيش النظامي الوطني التي كانت لم تسرح.

4 ـ وفصيلة من الضباط منهم من درس في مدارس تركيا العسكرية.

5 ـ ومنهم ـ بل غالبيتهم ـ تخرجوا في مدرسة مصراتة العسكرية.

6 ـ وهناك ضباط ـ الآلاي ـ أي الذين تدربوا وترفعوا من نفر إلى رتبة ضابط.

* * *

كانت قوات الأسطول قد تمركزت في الميناء.

وبين قوات الجيش الوطني وبين الأعداء مسافة يسيرة تبلغ ثلاثين متراً فقط..

فكانت تستعمل في الهجمات والدفاع القنابل اليدوية.. فهي معركة التحام..

وكانت قوات الأسطول تحسب أنها ستحتل المدينة بعد بضع ساعات.

وهرعت جموع القبائل مستنفرة.

كل قبيلة أخذت مكانها في الخط الدفاعي الذي أشرف على تنظيمه «سعدون».

كانت النقطة التي يشرف منها «سعدون» على إدارة دفة المعركة قوز من الرمل يسمى:

● قوز الشوار - قرب قرية «الشوار» دكيران - والقوز - هو مرتفع وكثيب الرمل وأطلق عليه المجاهدون اصطلاحاً وتعبيراً.

● «قوز المترليوز». وهذا «القوز» المرتفع كان قد استشهد في نقطته - فيما بعد - البطل الجريء «عبد العاطي الجرم».

* * *

وبقيت المصاولة والتحركات.. والدفاع والهجوم بين الطليان وقوات الجيش النظامي وصفوف المجاهدين ثمانية أيام متواصلة، وكان من أوائل الشهداء في يوم النزول «الخميس»:

جاويش مركز «أماطين».

الشهيد «إبراهيم الحداد» كان عمره حوالي الثلاثين كان من صفوف الجندرمة.

والشهيد «علي زبيك النعامي» عمره حوالي خمسة وثلاثين عاماً من قبيلة النعايمية من بادية مصراتة، وهو ضابط متخرج من المدرسة العسكرية بمصراتة.

والشهيد «محمد علي الضراط» كان شيخاً وقوراً في حوالي السبعين.

والشهيد «علي خليل لاغا» فوق الخامسة والثلاثين وكان من الجندرمة.

والشهيد «أحمد خليل السويحلي» شاب في السادسة عشر ربيعاً.

والشهيد «أحمد خليل بن خليل» في العشرين ربيعاً من عمره من قبيلة «يدّر».

وشهداء عديدون.. لم يحوهم سجل في الأرض فقد ضمهم سجل السماء الذي لا يخطىء ولا يبيد.

* * *

وكلما تجمعت طوابير الأحباش وقصدت صفوف المجاهدين أصلاهم هؤلاء بوابل النيران.

ومن التنظيمات التي أبرزها لهب الحماس في ساحة المعركة، كما حكى الذين ساهموا في هذه المعركة ورأوا هذا رأي العين.. كانت هناك خلف صفوف المجاهدين فئة من شاهري السيوف تحرض المجاهدين على التقدم وكل من حاول التأخر هددوه بإطاحة رأسه.

والموقف جد حرج..

مع أن كل من قدم الميدان كان قد جاء بدافع من نفسه وبرغبة صادقة من شعوره.

إلّا أن فكرة حاملي السيف في المؤخرة أملتها فورة الحماس، والانفعال الشديد..

وهي من خطط الدفاع الفدائية.

ولا شك أن جميع الضباط والجنود وطوابير المجاهدين كانوا يخوضون المعركة بوحي الواجب، وبدافع من الغيرة على حماية الوطن وصد الأعداء.

ودامت هذه الملحمة حوالي أربع ساعات.. الكتف يزاحم الكتف..

والجندي المناضل أو الفتى والشيخ المجاهد قد يتماسك باليد مع الجندي المغير الذي حمله الأسطول إلى هذا الشاطىء.. وامتزجت التكبيرات المتصاعدة من حناجر مؤمنة، واختلطت في الجو طبقات الغبار وذرات الرمل مع دخان طلقات النار وصهيل الخيل.. وضربات المدفع وأصوات الرشاشات المسماة عندهم ـ طقطاقة ـ..

وهنا اضطرت طوابير الأحباش وضباط الطليان إلى التقهقر والانسحاب.. بعد أن خلفوا وراءهم قسماً وافراً من صرعاهم.. قد جندلهم رصاص المجاهدين وقوات الجيش النظامي الوطني..

كان «سعدون» دائماً في المقدمة.

ثم تراه ينزل من على «قوز الشوارنة» ويشق طريقه ماضياً فوق صهوة جواده في الميمنة تارة وفي الميسرة أخرى.

وبعد فترة ليست بالقليلة وسكون مؤقت.. عادت مرة أخرى قوات

الأعداء في التحام وازدحام، وكأنما كانت في عملية انسحابها تريد أن تخدع المناضلين وتموّه عليهم. . حتى يغريهم الانسحاب، ويلهيهم ذلك عن التحفز والاستعداد.

ولكن. . كانت قوات الجيش النظامي وكتائب المجاهدين لهم بالمرصاد متحفزة. . فهي تعلم وتدرك أن الحرب خدعة. . وأن عمليات التراجع والانسحاب أمامهم في أثناء المعارك واشتداد الهجمات قد يكون مؤقتاً. . أو من نوع الخطط التي يكون بعدها عودة والتفاف.

* * *

وفعلاً عادت الساحة تشهد الصراع العنيف المرير. . ودامت عمليات الالتحام مرة أخرى خمس ساعات متواصلات من الخامسة حتى العاشرة. . ولم تستطع قوات العدو الزاحفة رغم عتادها وتكاثر جنودها أن تتقدم عن مكانها في الشاطىء شبراً واحداً.

* * *

وهنا لجأت تخطيطات القائد الإيطالي إلى استعمال سلاح ثقيل. . لا يوجد عند القوات المناضلة بقيادة «سعدون» ـ وكانت خطة وهدف القوات المغيرة هو الاستيلاء على مدينة «مصراتة» من ناحية «الماطين» إلى ناحية «الغيران».

وظل الصراع ثمانية أيام متواصلة.

والساعة في الميدان الحربي لها ثمنها وضريبتها الدموية. .

وفي اليوم الثامن من النزول. . وقعت «غدرة» بالعسكر المناضل. . وحادثة. .

كان عددهم في «الحوش» خمسة وعشرين. . استشهد منهم ثلاثة وعشرين.

وهي مذبحة الحوش، وسنشير إليها في صفحات قادمة. .

وكان بعد مذبحة «الحوش» معركة تسمى «السبت» الأول.

وصدّت قوات «سعدون» في هذا اليومِ الهجوم. . وقد استشهد في معركة «السبت» الأول ما يزيد على عشرين شهيداً. . أما معركة «السبت» الثاني فقد كانت بعد ستة عشر يوماً من القتال المتواصل.

وكان شهداء معركة «السبت» الكبير ما يزيد عن مائتين من الشهداء.

فيكون «سعدون» قد خاض بقواته في الأيام الأولى للالتحام معركتين كبيرتين عرفت عند المجاهدين باسم «يوم السبت».



معركة يوم السبت

عند الضحى ارتدّت القوات الإيطالية المهاجمة إلى ثكناتها، ولكن ظل إطلاق النيران متواصلاً من الاستحكامات العسكرية حتى يوم الجمعة القابل.. أي بعد سبعة عشر يوماً من النزول، وجاءت بواخر تحمل جنوداً وعتاداً وأخذت في تفريغ شحناتها في ميناء «قصر أحمد» ووصلت المعلومات إلى «سعدون» بأن إمدادات وقوات عديدة قد قامت البواخر بإنزالها إلى الميناء.

ونزلوا أيضاً المصفحات.

أي إن اشتراك المصفحات كان في معركة «السبت» الثاني، وعندما شاهد «سعدون» إنزال هذه القوات والإمدادات استعد لها ورسم خططه على صفوف المقاومة على أن تكون حامية الوطيس.

* * *

وبدأ الهجوم من جانب القوات الإيطالية ليلة السبت.

قبل الفجر بساعة.

والتحمت أضواء النيران في الأفق حتى غدت سحابات حمراء لاهبة وكشفت كل شيء.

وكان بعض الضباط النظاميين في الجيش الوطني قد تخلوا عن البذلات العسكرية ولبسوا الزي القومي المعتاد.. عباءات وجرود.. ولكن ما أن شن الهجوم على البلاد وغزت إيطاليا شاطىء «قصر أحمد» حتى بادر هؤلاء إلى

خوض المعركة.. معركة الشرف والرجولة.

كان من أوائل الذين أسرعوا إلى ارتداء البذلة العسرية وامتشاق السلاح الضابط:

الهادي الزريدي.. الذي سبق أن ساهم في معركة «الهاني» ومعركة «القرضابية»، لقد عاد هو وزملاؤه في يوم السبت إلى ارتداء البذلة العسكرية.

* * *

وكان من الضباط الوطنيين المشرفين على تخطيط المعركة مع قائدهم «سعدون»:

- علي ابراهيم القن، خريج مدرسة «نوري».
- الهادي الزريدي، وهو من الضباط الذين خاضوا عديداً من المعارك.
- عبد الله السركسي، قومندان المدافع وقد تمركز في نقطة تسمى «الشوارن» على بعد ثلاثة كيلومترات.

* * *

وفي هذه المعركة أخذت قوات البحرية الإيطالية المكوّنة من خمس قطع بحرية في إطلاق النيران وتصويب القذائف.. كانت ضربات مدفعية الأسطول مصوّبة إلى مرمى بعيد.. إلى ما وراء الخط الدفاعي.. حتى تهدمت البيوت وبالتالي تبعث الرعب والدمار.. وكانت هذه المدفعية الإيطالية تصوّب قنابلها من نوع الواحدة طول 4 أشبار، أي حوالي 80 سنتيمتر..

وخرج في هذه الحالة المجاهد الجريء «عبد العاطي الجرم» ومعه المجاهد «مصطفى الجزيري»[1] وثلّة من المجاهدين إلى قوز من الرمال مرتفع.. وهاهم ما شاهدوا من نيران المدفعية من ناحية الأسطول.. كانت نيرانها في الجو متصلة اللهب كأنها ـ على حد تعبيرهم ـ..

(1) كان شاباً من الجزائر يدرس في زاوية عبد السلام الأسمر بزليطن، وقد هرع إلى الميدان مع المجاهدين، وروى لنا كثيراً من ذكريات البطولة وعرضنا عليه فصولاً من هذا الكتاب.

● سحابات من نار.

كانت تصدر هذه السحب النارية من قوات البحرية ما يزيد عن ستة وعشرين رشاشة «26» في آنٍ واحد.. ترسل صواعق في خط متواصل..

نزلت ثلّة المجاهدين هذه من على «قوز» الرمل المرتفع وانضم «مصطفى الجزيري» إلى الصف الذي كان يقوده الضابط «على القن».

وكان قد انضم إلى صف آخر المجاهد الجريء «عبد العاطي الجرم» وأيقن «سعدون» أن المعركة ستشتد وتطول.

أخذت قوات البحرية تواصل إطلاق النار طوال الليل السابق على يوم السبت بلا هوادة حتى طلوع يوم السبت.

* * *

وفي يوم السبت حيث نزلت المصفحات التي أشرنا إليها آنفاً ومرقت مصفحتان من بين صفوف المجاهدين من ناحية «قصر أحمد»، والمصفحة الثالثة مرقت من جهة «أبي شعيفة»، والمصفحات كانت من ورائها قوة من جنود الأحباش المشاة.. واستطاعت إحدى المصفحات أن تواصل سيرها، لكن التي وراءها تعوقت عن المسير ولم تتمكن من اللحاق بزميلتها لأن قوات المجاهدين استطاعت في حركة التفاف وتجمّع أن تعزلها وتسدّ الطريق عن جنود المشاة الأحباش..

والمصفحة التي تقدمت عندما شاهدت اشتباك زميلتها مع قوات المناضلين ووقوعها في مأزق..

هنا أرادت أن تدور وترجع من حيث أتت.. فقد أدرك قائدها أن المسألة أخطر مما كان يتصور، ومن المجازفة غير المأمونة أن يتقدم وحده فهو يدرك أن الفدائيين لو وصلت أيديهم إليه سيمزقونه.. وفي لحظات ارتباك أدار عجلة القيادة للمصفحة.. ولم يستطع أن يأمر الجنديين اللذين معه في قلب المصفحة أن يضربا بالمدفع..

ولكن ـ من سوء حظه ـ أثناء محاولة الدوران وقعت العجلتان الخلفيتان في حفير للماء فما أمكنه التحكّم في عجلة القيادة.. وتورطت المصفحة.. أو قل تورط مَنْ فيها.

وهنا أطلقت على المصفحة قنبلة يدوية من صفوف المجاهدين.. فقد أسرع المجاهد «عبد الله الزقل» ومعه جماعة من المجاهدين وضربوا المصفحة بقنبلة يدوية صغيرة. كانت القنبلة من نوع يسمى «كوجك طب»، هذا اسمها بالتركي.. فاشتعلت النار في المصفحة وخرج منها ضابط وجنديان.

أما الضابط الإيطالي فقد حانت لحظاته الأخيرة.. فقد أسرع المجاهد «محمد بن خضورة» وصوّب إليه طلقات صرعته في الحال.. وكان «ابن خضورة» في حالة فوران لأن هذه المصفحة قتلت قبل لحظات الضابط الشهيد «عبد الله الأشهب» وهو من خيرة الضباط المثقفين وهو من أبناء قبيلة ـ الزروق ـ.

وبقيت المصفحة في مكانها حطاماً تلتهمها النيران وضابطها الإيطالي بجانبها صريع.

وكان من رأي المجاهدين الضباط عدم قتل الضابط الإيطالي وإبقائه أسيراً.. ولكن من شدة تحمّس وتأثّر المجاهد «محمد بن خضورة» دفعه إلى الإسراع بالقضاء على قائد المصفحة، وعندما قال له زملاؤه:

ـ لماذا لم تُبقِ عليه أسيراً؟..

أجاب وهو يشير إلى زميله الضابط الشهيد «عبد الله الأشهب» الذي كان طريحاً قرب المصفحة:

ـ هل أتركه حيّاً وهذا زميلنا «عبد الله» مطروح.. لا.. والله ليتني أستطيع خنقه بيديّ لا ضربه بالرصاص..

وفي أثناء هذا هجمت قوة من الأحباش* والطليان.. أرادوا في هذه الهجمة أن يقوموا بحركة تطويق والتفاف كي يأسروا عسكر المجاهدين الثابت

في الخطوط الأمامية مع الضابط المجاهد «علي ابراهيم القن». .

وزحفت كتائب العدو من جناحيه الأيمن والأيسر. . وفي هذه اللحظات السريعة وبينما تحركات العدو تحاول أن تقوم بعملية التطويق، رأى «علي القن» مخافة أن يقع أسيراً هو وجنوده أن يقوم بعملية انسحاب مؤقت إلى مسافة محدودة. . وتراجعت قوة الضابط «علي القن» حوالي ثلاثمائة متر. . وعند هذا الموضع استوت فيه خطوط المجاهدين الذين كانوا قد اشتبكوا مع المصفحات. .

وهنا أسرعت قوة النجدة من أهالي «مصراتة» من جهة الغرب. . وظلت طوابير النجدة من الفرسان تتدفق فكان مجيئها في هذا الوقت تقوية لخطوط الدفاع وشد أزر لصفوف المجاهدين، وبعد تنظيم صفوفهم حملوا على قوات العدو بقيادة البطل «سعدون» حتى تراجعت طوابير الطليان أمام ضربات المقاومين المتواصلة. . تراجع العدو إلى موقعه الأول. . ولكن رغم تراجعه وصدّه، فقد أخذت مدفعية الأسطول تسلط طلقاتها في عنف متواصل من تلك الرشاشات واستمرت المعركة في لهيبها في إصرار وعناد إلى الليل.

* * *

معركة «السبت»:

معركة «يوم السبت» منذ الصباح الباكر بدأت واستمرت بين كرٍّ وفرٍّ وصدام والتحام حتى صلاة العصر. . في هذا الوقت بلغ عدد الضحايا في صفوف المقاومين:

30 شهيداً من العسكر النظامي و40 شهيداً من صفوف المجاهدين وحوالي 100 جريح، ثم تزايد العدد حتى بلغ شهداء هذا اليوم ما يزيد عن المائتين. . وتكاثر الجرحى أكثر من 300 جريح.

* * *

من ناحية «قصر أحمد» استولت قوات إيطاليا على المركز الأمامي للاستطلاع وطوقت القوة جماعة من مجاهدي «تاورغاء» و«زليطن» ونشبت بينهم

وبين القوات الزاحفة معركة استعملت فيها أيضاً القنابل اليدوية.. ودافع هؤلاء المجاهدون في نضالهم دفاع البطولة والفدائية.

وعندما ضرب الإيطاليون بالمدفع أحد الاستحكامات التي اتخذها المناضلون أحدثت القنابل ثغرة كبيرة في شكل «روشن» في أحد البيوت التي اعتصم بها المقاومون.. وأخذت القوات الزاحفة تصوّب القنابل اليدوية إلى صفوف المجاهدين من هذه الثغرة الكبيرة، هذه الفتحة، وكان من صور الفدائية التي لم تبرح ذاكرة المجاهدين وهم يستعرضون[1] ذكريات هذه المواقف الباسلة ما صنعه أحد الفدائيين من صفوف المجاهدين حيث وقف إزاء هذه الثغرة وأخذ بدوره يضرب منها القنابل اليدوية مصوّباً إيّاها على مراكز الطليان.. وكان أن انفجرت إحدى القنابل في يده وعرقلت يده اليمنى.. وصبر وتحامل رغم الألم والجرح المسكوب منه الدم.. فقد تغلب عليه حماسه.. وأسرع مبادراً وربطها «بالقشطة» وأخذ يتابع تصويب القنابل بيده اليسرى.

وكانت أمثال هذه المواقف في المقاومة الاستبسالية من أروع حركات الفداء.. وبمثل هذه الروح استطاع البطل «سعدون» أن يقود المعارك اللاهبة لا يخاف الزحف الاستعماري، ومثل هؤلاء الشباب والرجال معه.

* * *

من رجال يوم السبت:

وكان «سعدون» قد نظم قوات الجيش الذي وقف به أمام قوات المعتدين في تنظيم دقيق وترتيب يشمل التكتيك العسكري.. فكان الذين خاضوا معه معركة «يوم السبت» في الجيش النظامي بقيادته:

- علي ابراهيم القن، قومندان طابور المشاة، متخرّج من مدرسة «نوري».

(1) من المجاهدين الذين سردوا لنا ذكريات الميدان البطولي الفرسان: مصطفى الجزيري، الهادي الزريدي، عبد الله السركسي، علي ابراهيم القن، وكانوا في وسط الميدان.

● عبد السلام التركي، قومندان البلوك الأول، من الساحل متخرج من مدرسة «نوري».

● إبراهيم شنينة، البلوك الثاني متخرّج من مدرسة نوري.

●عبد السلام العبيدي، البلوك الثالث، متخرّج من مدرسة اسطامبول.

● الهادي القماطي، البلوك الرابع، من الآلاي، متدرّج في السلك العسكري.

● علي كاره، من السرية الأولى الطاقم الأول، من قبيلة الشحوم متخرّج من مدرسة اسطامبول برتبة ملازم.

● المبروك الفرجاني، متخرّج من مدرسة «نوري».

كان في السرية الرابعة وكان يلقب بين زملائه «قرنزة» لأنه كان صاحب شعر كثيف في وجهه.

● محمد معافة، من السرية الرابعة، من قبيلة عباد، متخرّج من مدرسة «نوري».

● علي بن سليم الشيخي، من السرية الثانية، من بلدة «زليطن» متخرّج من مدرسة «نوري».

● مهدي بن حمادي، السرية الثانية، من بلدة «زليطن» متخرج من مدرسة «نوري».

توفي في الإسكندرية عام 1932 م.

● عياد الشويهدي، ضابط في القسم الثالث من السرية.. متخرّج من مدرسة نوري، من قبيلة الشواهدة.

● عبد الله الزدام، في المدافع، الرمايات، من السرية الرابعة، متخرّج من مدرسة نوري، من بلدة زليطن.

وهذا الضابط المناضل جرح في يوم «قصر أحمد» واستشهد في معارك «قصر أحمد».

* * *

وكان أيضاً من ضباط السرية الرابعة الموجودين في معركة السبت مع «سعدون» المناضلون:

● علي بن حسن، من زليطن، متخرّج من مدرسة نوري.

● علي المجراب، من قبيلة قرارة، متخرّج من مدرسة نوري.

● عثمان القماطي، متخرّج من مدرسة نوري، وبعد هجرته توفي بفلسطين. ومن ضباط الطوبجية.. من المدافع الضخمة من ضباطها القومندان..

● عبد الله السركسي، متخرّج من مدرسة إسطامبول العسكرية.

● السنوسي بالقاسم الضراط متخرّج من مدرسة نوري.

● أحمد الشعافي، متدرب من الآلاي عن طريق التدرج في السلك العسكري.

وأما المدفعية الخفيفة التي كانت تسمى بالتركي «كتشوك طب» فقد كان يحملها العساكر في الميدان على الأكتاف. أما المدافع الثقيلة فكانت تجر على البغال وتسمى بالتركي «جبال طب» والمدافع الخفيفة كان ضابطهم:

● محمد الرملي، ضابط المدفعية الخفيفة، متخرج من مدرسة نوري.

● عبد الله الزقل، كان ضابط في المشاة، بيادة متخرج من مدرسة نوري.

* * *

وكان من الضباط الذين اشتركوا في خط الدفاع وساهموا في العمليات الحربية قبل اشتراك البلوكات أي ـ السريات ـ المناضل عبد الله الأشهب وقد استشهد في معركة يوم السبت، كما سبق أن أشرنا.

وكان من ضباط (المتراليوز):

● أحمد أبو دبوس، كان قومندان متراليوز الهجوم وهو أيضاً متخرّج من مدرسة نوري، وكان معه الضابط الشهيد:

● سالم الشرفي، وهو ضابط الطاقم الأول في «المتراليوز» وكان متخرجاً من الآلاي، متدرب في السلك العسكري.

● الحاج أحمد ساطي، في المتراليوز وهو من «سواطي» مصراتة، وقد التحق بعد استشهاد (سعدون) بالجبل الأخضر وانضم إلى الشهيد البطل عمر المختار.

* * *

ويلاحظ هنا أن (بلوك) بمعنى (سرية).

وفي اشتراكها في تلك المعارك الأولى كانت تحوي على رمز من العدد إذ لم تكن في الجولات الأولى مكتملة العدد.. حتى رأى (سعدون) أن ينظمها ويكمل عددها.

وكان هناك في التنظيمات الدفاعية وترتيب الخط الحربي رؤساء المجاهدين الذين كان يطلق عليهم - مشائخ حرب - وهم لم يتدربوا في السلك العسكري.. ولكنهم كانوا في عزم يخوضون المعارك ببطولة وغيرة ملتهبة.

كان في مقدمة هؤلاء:

● الحاج علي السطا، وكان عمره فوق الخمسين.

● الفقي علي المستيري - من الجهانات - وقد خاض معارك «يوم السبت» ونال حظوة الاستشهاد في معركة (الكراريم) وكان عمره فوق الأربعين.

● الشيخ علي بوزازية من (دكيران) وقد سجن في إيطاليا وخاض عديداً من المعارك، وعند كتابة هذا الكتاب لا زال موجوداً بمصراتة.

● سالم الزريدي، من قرارات.

● الشيخ محمد التريكي - من الشحوم - وقد أعدمه (القربتلي) رمياً بالرصاص في منطقة فلاجة.

● الفيتوري بن سليم - أولاد المحجوب - استشهد في معركة (السلحيبة) كان شيخاً في حوالي السبعين.

● مصباح النعامي - نعايمية - استشهد في معركة (السلحيبة) كان عمره خمسة وستين عاماً.

● الشيخ صالح الدلفاق - من الصوالح - كان من أهل العلم والفقه، كان عمره حوالي الستين وهو شهيد في معركة يوم السبت.

* * *

وكان من المجاهدين الذين ساهموا في معركة (يوم السبت):

50 جندي من قماطة، وكان يرأس جماعة قماطة الباش شاويش (جمعة القماطي) وكان عمره حوالي 45 و(محمد شاويش).

كما ساهم حوالي 200 من أبناء زليطن.

وكان يوم السبت يوافق 11 فبراير 1922 م - 13 جمادى الآخر 1340 هـ.

وثبتت قوات (سعدون) واستبسلت واستمرت عمليات المقاومة من ساعة النزول إلى معركة السبت حوالي سبعة عشر يوماً متواصلاً.. من 26 يناير إلى 11 فبراير.

واستشهد في ميدان الشرف البطولي حوالي 260 شهيداً.

وأخذت قوات المغيرين بعد انجلاء معركة «السبت» تثبت قوتها في صنع المتاريس.. ولكن هذه المتاريس والطلقات التي يرسلونها من وراءها لم تحل بين ثبات وعزيمة «سعدون» وجنده لقد ظل في ميدان الشرف الأشهر الطوال.. عاماً ونيف وهو ثابت الجأش في معارك متواصلة.

* * *

من شهداء السبت:

ليس في استطاعتنا إحصاء كل الشهداء في أية معركة من معارك النضال التي خاضها الشعب.

لقد قدّم شعب ليبيا نصفه قرباناً على مذبح الحرية.. والإحصاء بالأسماء وتسجيل العدد صعب جداً.. وذلك لأنه لم تكن في أكثر المعارك بلاغات رسمية تحصى فيها الأسماء أو سجلات.

ولو كانت هناك سجلات فإنها ضاعت نتيجة للظروف العسيرة التي مرت بها البلاد تحت وطأة استعمار من ألعن ألوان الاستعمار.. وهنا رأينا من الواجب إثبات بعض الأسماء وذهبنا إلى الرجال الثقاة من الذين اشتركوا فعلياً في هذه المعارك وحرصنا على ذكر الاسم والعمر.. وليس هذا جدولاً كاملاً.. إنما هي مجرد لفتة ومحاولة نرجو أن تلقي ضوءاً على جوانب من المعركة..

وهؤلاء الشهداء في معركة يوم السبت وغيرها منهم من كان في السلك العسكري النظامي ومنهم من كان في صفوف المجاهدين ضمن السيل الذي جرفه نداء الواجب والإحساس الوطني. والسلك العسكري كان منظماً أما المجاهدون الهارعون فبلا عدد ولا إحصاء..

* * *

في طليعة الشهداء لهذه المعركة يبرز اسم لامع.

● عبد العاطي الجرم.

وسنقف عنده وقفة ونخصص له صفحات وليس هذا بالكثير عليه بل يستحق دراسة كاملة لو أسعفتنا الظروف.

● الشهيد محمد هيوش ـ قبيلة الشواهدة ـ كان شاباً في حوالي الثانية والعشرين أُصيب برصاصة في المعركة بقرب حيشان «إسماعيل قرمان» بقصر أحمد.

● الشهيد عبد الله مليطان ـ عسكري شاب من قبيلة «ملايطة» كان عمره (20) ربيعاً.

● خليل المنقوش بن أحمد المنقوش ـ من قبيلة «مقاوبة» كان عسكري عمره (27) عاماً.

● عبد الله الأشهب ـ كان ضابطاً استشهد بعد مقاومة عنيفة كان عمره حوالي (30) عاماً.

● عبد الله الزدام ـ استشهد في معركة «قصر أحمد» وهو من بلدة زليطن كان عمره (30) عاماً.

● غيث العصفور ـ زمورة ـ 30 عاماً.

● محمد باشا ـ المطاردة ـ 45 عاماً.

● منصور بن عبد الله الدلنسي ـ الزوابي ـ 31 عاماً.

● محمد بن سالم شونة ـ الزوابي ـ 50 عاماً.

وكان قد استشهد في هذا اليوم من قبيلة «الزوابي» سبعة وهذه أسماء خمسة منهم:

سليمان بن علي شتيوي ـ الزوابي ـ 20 عاماً.
محمد بن محمد شتيوي ـ الزوابي ـ 21 عاماً.
أحمد جنيفة ـ الزوابي ـ 40 عاماً.
عمر الخمارية ـ معدان ـ 65 عاماً.
محمد الصغير ـ البلابلة ـ 60 عاماً.
أحمد بن ميلاد ـ أولاد بو شعالة ـ.
مفتاح بن سليمان البيطة ـ أولاد بو شعالة ـ.

وكان من الجرحى في «يوم السبت» محمد بن عامر ـ محمد الأمين فوناس من زمورة.

الشهيد عبد العاطي الجرم

استمر «سعدون» في الإشراف على تسيير دفّة المعركة اللاهبة التي استمرت بلا هوادة سبعة عشر يوماً متواصلاً. . حتى معركة «يوم السبت».

وكان من أبرز شهداء هذه المعركة الشهيد «عبد العاطي الجرم» وهذا نموذج يمثّل البداوة الجريئة، والجرأة المخلصة. .

كان نموذجاً للفارس الذي يقتحم الأخطار ويبحث عن الصف الأول. . وهو من طراز نادر من ذلك الصنف الذي طُبع على النضال وفطر على التضحية. ومن ناحية الخلق والطباع تتمثل فيه طباع العربي الأصيل. . يأنف من الاستعباد ويرى الكرامة سواء كرامة الفرد أو كرامة الوطن أسمى ما يذود عنه الإنسان.

وكان لا يؤمن بأساليب المفاوضات ولا يجنح لسياسة الملاينة. . طالما روى عنه زملاء الجهاد طرائف من صراحته وشدته وقوة جرأته.

كان كثيراً ما يرونها غريبة أو نادرة وهي من وحي فطرته وبدافع من طبع الشهامة الأصيل.

وعبد العاطي الجرم من قبيلة «الحسون» الشهيرة.

ولقد لعب أدواراً في الميدان العسكري وشهد جانباً من المفاوضات التي أُبرمت على أثرها اتفاقية الصلح المشهور «صلح بن يادم».

وكان رئيس الوفد الإيطالي الجنرال «تارديتي».

ولكن «عبد العاطي الجرم» كان شديد التحمس لعروبته وكان يكره أن يرى قبعة ولو في مجلس مفاوضة.. كان يكره أن يرى «رومي» يساومه على بلاده أو يقاسمه السيادة على وطنه.. ويروى عنه ذات مرة أنه ضرب أحد المتفاوضين الأروام كفّاً ساخناً وقال بلهجته البدوية وفطرته السليمة:

● قم.. علاش نتفاوض هاذي بلادنا وأرضنا.. نتفاوض معاك بهذه.. وشهر بندقيته ثم إلى هناك نتفاوض وأشار إلى ساحة الميدان..

وذات مرة صرخ في أحد مجالس المفاوضات عندما سمعهم يتهامسون وقالوا.. إن أعضاء الوفد الوطني كذا.. وأعضاء الوفد الإيطالي كذا.. وصرخ عبد العاطي الجرم من الأعماق.. «وي.. أنتساوى أنا والرومي؟..».

وقد أشار إلى صرخته هذه كثير من زملائه عندما أخذوا يحدّثونني عنه وعن موقفه.

وهو المعني بهذه القولة التي أشار إليها الكاتب الأديب «عبد الوهاب عزام» في كتابه «مهد العرب» سلسلة اقرأ عندما قال ـ في صفحة 10 ـ.

«والعربي منذ العصور الأولى يغلو في الاعتداد بنفسه ويأبى أن يسوّيها بالأمم ويربأ عن مصاهرتها.. وقديماً أبى النعمان أن يزوج كسرى، وحديثاً قال أحد مجاهدي العرب في طرابلس الغرب وقد عقد صلح بين أهل طرابلس والطليان وامتنّ هؤلاء على العرب بأن سوّوهم بأنفسهم في الحقوق ـ قال هذا العربي المجاهد وهو ليس رئيساً ولا زعيماً ـ واسوأتاه.. أأسوّى بالرومي إنه لظلم عظيم»..

وعبد العاطي الجرم قد شهدت له المعارك البطولية بقوة الإرادة وصلابة الموقف.

كان في المحيط الوطني مضرب الأمثال في الإقدام واقتحام المصاعب حتى صوّره الشاعر الشعبي قائلاً عنه:

يا هل ترى يا «جـرم» وين　　تقعد ملوح لا راس لا رجلين

هكذا كان مقدّراً له أن يصبح يوماً مطوّحاً بلا رأس ولا رجلين لشدة اقتحامه للمخاطر والصفوف الأمامية. . لا يحب أن يكون في خطوط النار في الصف الثاني أو الثالث بل لا بدّ أن يكون مواجهاً للأعداء وجهاً لوجه.

كان لا يحب أن تقع عيناه على جبان أو متردد.

حتى كان يلوح بسيفه في وجه كل مَن تسول له نفسه بالتردد أو التأني.

* * *

اشترك في موقعة «ترينه».

واشترك في الميدان الحربي منذ غزو الأسطول الإيطالي شاطىء طرابلس عام 1911 م. وساهم في معارك «لبدة» والخمس بالساحل.

وأُصيب بجراحات في حرب «الحفير» وقد خشي عليه زملاؤه الموت. . وقالوا له تهيأ للقاء ربك. . ولكن عبد العاطي الجرم أجاب في روح فطرية وبلهجة فيها نبرات الإيمان العميق:

● لا. . لم أرَ الحور العين فلا بدّ أني سأبقى حيّاً. .

وفعلاً بقي الرجل حيّاً بعد هذه المعركة رغم الجرح الخطير والدم المتدفق. . قدّر له أن يبقى بعد هذه المعارك ليشهد معركة يوم السبت مع «سعدون» وأبلى البلاء الحسن في معارك الشاطىء بمصراتة.

وكانت مصاولات ولقاءات وجد فيها عبد العاطي الجرم بغيته وأُصيب في معركة «السبت» بجروح في رقبته. .

اخترق الرصاص رقبته. . ولما وقف حوله زملاء الجهاد يخففون آلامه فيلتفت الرجل المؤمن وهم يغطونه بالبرنوس ويقول:

ـ الآن جت صحيح. . الحياة انتهت. . رأيت الحور.

وأغمض عينيه ليودّع الحياة ويستقبل حياة أخلد. . حياة الشهداء.

ودفن بقرب مسجد «الزروق» عند الباب.

بعد أن حمل السلاح ولم يتركه من أكتوبر 1911 م حتى ـ 1922 م.

* * *

وكـان «عبد العاطي» في أثناء المعركة يردّد آخر أهازيجه:

مـرحب بالجنـة
جـــت تـدنــا
مـرحب بالجنـة

وأيضاً يتفنن في لهجة حماسية وأناشيد عفوية

جيـــت ندنا
لحفرة جنّـــة

وكان عنده بندقيتان وورائه ـ شوشان ـ.

فلا يضيع المقاتل لحظة في الالتفات وتعبئة البندقية بل عندما تفرغ البندقية التي بيده يمدّ يده إلى الخلف في خفة وسرعة ويناوله «الشوشان» البندقية الثانية المحشوّة ويتسلم الفارغة..

وكان «عبد العاطي» من الذين يصيبون الهدف في دقة ويقول لأصحابه قبل أن يصوّب الهدف:

● وين تريدها.. في جبهته والا في كتفه والا وين؟..

ولا يخطىء الهدف.. كان أُعجوبة في الثبات والصرامة ومواصلة النضال المرير..

وعندما سقط شهيداً قال من أُهزوجة في همهمة:

اتــقــوا بــي
مـا حـاجـة بي

أي اجعلوني تقية وحاجزاً بينكم وبين الأعداء.. لا حاجة لكم بي اليوم.. ولقد كان حزن «سعدون» بالغاً أشدّه عندما صرع هذا البطل الفدائي

والمناضل الجريء. وبجانب شجاعته وإقدامه كان ينفق من ماله الخاص على المعارك الوطنية. فقد أكد المجاهدون والمعاصرون له أن «عبد العاطي الجرم» كان ينفق على جماعته الذين جاء بهم إلى صف النضال وخط الميدان.. وكانوا مائتين وخمسين رجلاً.. يتولى الإنفاق عليهم بالمال والنفس.. قد جاد هذا البطل بالروح والمال وبأمثال هؤلاء وجد «سعدون» السند القوي والروح المثالية.

* * *

تنظيم.. واستعداد

يوم الجمعة 11 جمادى الثاني.

بعد العصر ـ وهكذا كان توقيت المجاهدين عندما يسردون لنا ذكرياتهم.. أكثرهم لا يذكر كم كانت الساعة إنما ـ قبل العصر ـ بعد الفجر ـ عند العشاء.. وهكذا فهم في سرد ذكرياتهم مرتبطون مع توقيت عبادتهم..

بعد العصر.. في ذلك اليوم شاهد «سعدون» مراكب من بعيد في صفحة البحر.

وعندما استعان بالمنظار المكبّر استطاع أن يتبينها جليّاً..

لقد كانت إمدادات للقوات الغازية.. هي سفن ملأى بالجنود.. وأدرك «سعدون» أن الحملة قوية وإرسالياتها تتضاعف بلا شك إن الجنود سينزلون إلى الشاطىء مستترين في جنح الليل..

غداً يوم لقاء شديد.

وأمر «سعدون» استعداداً للغد الشديد بإرسال أربعين جملاً تكون مجهزة بالشباك والحبال إلى الثكنة العسكرية في منطقة «عبد الرؤوف» وكان بها مستودع للذخيرة.

واستلم التلفون وخاطب الضابط المسؤول هناك وأمره بأن يخرج من المخازن حمولة أربعين جملاً ذخيرة ويكون تنظيمها في إخراجها ووصولها إلى

ساحة المعركة بحيث لا تتوقف قافلة الجمال عن المسير بين خط النار ومكان مستودع الذخيرة ـ أي تحمل بعضاً منها إلى الساحة ثم تعـود إلى المخزن وهكذا . .

وفي الحين توجهت القافلة . .

وكان على رأسها ـ الباش شاويش ـ (عبد القادر الدوكالي) ومعه عشرون جندياً . . وعند وصول الجمال التي كان مشيها غير وئيد في الذهاب . . حمَّلوها الذخيرة في الصناديق والجوالق وربطوها . . وتوجهت صوب خط النار في ساحة الميدان . . وكان مشيها في هذه المرة وئيداً .

* * *

وأخذ «سعدون» في تنظيم الخط الأمامي وما خلفه . .

كان يتفقد الجند ويلاطفهم ويبثّ فيهم من شجاعته ورباطة جأشه . واستعدّ في تعبئته المعنوية والعسكرية لمواجهة الأعداء .

ووزعت الأسلحـة . . لم يغمض جفن لأحد من المقـاومين في تلك الليلة . . وفي الساعة الخامسة وقبيل الفجر بقليل خرجت كتيبة من الأحباش من خمس جهات وتفرعت . . ودافع المجاهدون دفاع الأبطال والتحموا مع القوات الزاحفة وصدّوا الهجوم الذي كان يبغيه القائد الإيطالي مباغتاً . . وكان القائد الإيطالي يحلم ويمنّي نفسه بأنه سيجد طريقاً سهلاً . . أو هي مجرد مناوشات يسيرة مع هؤلاء العربان أبناء الصحراء . . فهاله ما رأى بمنظاره .

من أين وجـد أبناء العـرب هـذه الكتـائب . . وكيف خـرجت من أرضهم . . هذه الصفوف المتراصّة من المقاتلين . . صفوف منظمة في تخطيط عسكري . .

ودارت رأسه . . ألم يقل له أساتذته من جنرالات أكاديمية ـ روما ـ أن حرب هؤلاء والحملة على شطوط طرابلس ستكون نزهة بحرية . . ألم يقل له رؤساؤه أن سفينتين أو ثلاث ستجعل هذه الشطوط وما حولها في قبضته ثم

تتألق على كتفه شارة ويحلّى صدره بوسام فكتور عمانويل.

لكن أحلامه تبخرت إزاء هذه الصفوف التي يشاهدها وهو في سيارته من بعيد.

فليكن جنود الأحباش في المقدمة..

فهل يقتحمون له الطريق ويقطفون له ثمار الانتصار؟

والطلقات تتوالى ويسمع خليطاً من الأصوات يميز بعضها ولا يكاد يدرك معاني الأصوات الأخرى. مزيج من الأصوات تقطعه بين لحظة وأخرى أصوات البنادق والمدافع.. وحتى قنابل المدافع التي نصبتها مدفعية الأسطول لا تؤثر في هذه الأصوات المزمجرة التي تصك آذانه ولا يتبين معانيها.. فهل أخطأ جواسيس الطليان عندما زعموا له ولرؤسائه أن من السهل الميسور احتلال البلاد بمجرد إنزال الطوابير..

من أين تجمعت هذه القوة؟..

وقد ترك «الأتراك» البلاد وسحبوا أو انسحبوا رسمياً من الميدان..

وكانت دوّامة تشدّ القائد الإيطالي وهو في مركز قيادته.. وهو في سيارته يرقب عملية الزحف على الصفوف المجاهدة.

و«سعدون» في ثبات وإيمان ينظم الصفوف ويدير المعركة.

* * *

مـــداولة:

وفي الليل ـ يوم السبت ليلاً ـ

اجتمع القائد «سعدون» مع بعض الأعيان ورؤساء الفرق المناضلة.. ودار الحديث حول الذخيرة وإمكانياتها.. كان «سعدون» يستمع إلى الآراء والنقاش في بساطة وحرية.. فالمعركة معركة مصير.. والمعركة للجميع.. والقائد الحازم هو الذي يعرف خطته واضحة وخطواته أين تصل به.. لقد

دوّى الرصاص كثيراً.. وطيلة المعركة تتابعت طلقات البنادق والمدافع.. وإن كانت في الواقع هي - في المليان - وفي الضرورة.. إلا أن مسألة الذخيرة شيء يجب تنظيمه والاحتياط له.

روح المعارك الذخيرة والقوة المعنوية..

وأخذ «سعدون» يحسب للموقف حسابه وبعد أن أصغى للآراء والنقاش وأدلى كلٌّ برأيه حول الإحصائيات التي صرفت من الذخيرة ثم أوضح «سعدون» لهم في هدوء الحازم.. ونظرة المناضل في هذه الجلسة الطارئة التي كانت في مركزه الحربي بمقر قيادته حيث كان يضيء المكان قنديل خافت:

- إن قوات المجاهدين قد صرفت من الذخيرة في هذه المعركة المتواصلة ما يمكن أن يحاربوا به ويستهلكوه في مدة ستة أشهر في الحرب العادية.. على ضوء الإحصائيات السابقة في معترك الميدان.. وكان هذا التوضيح والمقارنة - في الواقع - بالنسبة إلى المعارك التي جرّبها المجاهدون وخاض عبابها المناضلون الفرسان.. وكيف كان هذا؟..

وفي الحقيقة ليس هذا التصرف في مؤونة الذخيرة كان نتيجة لعدم التنظيم، أو الضرب في غير المليان.. بل هو كان نتيجة طبيعية لأيام متواصلة من إطلاق النيران بلا هوادة ولا هدوء.. ولقد كانت هناك استماتة وإصرار عنيد من طرف المقاومين الأبطال يقابله عناد وإصرار من ضباط وقوات الأسطول.. ذلك الأسطول الذي لديه أمر باحتلال المدينة والشاطىء مهما كلف الأمر من ذخيرة.. ولكنه وجد هذه المقاومة العنيفة التي لم تكن تخطر على باله..

* * *

وفي مجلس المداولة والتشاور مع كبار ضباط ورؤساء المجاهدين أوضح القائد «سعدون» لهم الحالة بوضوح وصراحة.. فليس من حكمة فن القتال أن يخفي القائد الحقيقة عن ضباطه وأعوانه.. أبان لهم..

- أنه لو استمرت الحالة.. والقتال بهذه الصورة فإن الذخيرة ستنفذ..

وهنا.. وعند ذاك سيستفحل الخطر المضاعف فيمكن أن يمسكنا الطليان

بلا حرب ولا قتال.. وهذا منتهى الإهانة.. ولن نسلم رقابنا كالنعاج إلى الأيدي الآثمة..

وطال النقاش حول مسألة الذخيرة وطريقة تنظيمها.. فإن خطة المعركة، وإدارة دفّتها تتطلب حتماً النظر البعيد والتأمل العميق.. والأسطول المُغير ستطول حملاته وتتواصل ضرباته وما هو الرأي يا سعدون؟

ـ الرأي.. رأي الجميع.. والمعركة معركة شرف ومصير.. وأطرق قليلاً ثم قال:

ـ أرى أن يؤخر الخط إلى مسافة كيلو أو أكثر.. لأن الحماس المندفع وتصويب الضرب المتواصل على المجاهدين من قرب الشاطىء أشد خطورة.. ثم لا بدّ من نجدات جديدة من المجاهدين ونطلب جنوداً وذخيرة من القبائل والعشائر وسائر البلدان.

* * *

وفعلاً رسم «سعدون» مع ضباطه تنظيم الصفوف وتوزيع الأسلحة.

فيجب أن لا يكون ضرب النار من طرف المجاهدين في شكل متواصل وبلا انقطاع.. بل على مراحل.. وفي نقاط مركّزة. ولا يقوم المجاهد بضرب طلقة إلا على أساس منظم من القيادة.

واستمرت الحالة هكذا، في مناوشات وفي كل يوم بل في كل ساعة يتساقط في ساحة المعركة شهداء في قتال بطولي ودفاع رائع.

* * *

وأرسل «سعدون» إلى أطراف البلد وما جاورها طالباً التجنيد وسرعان ما لبى المجاهدون الأحرار.. وحينئذ جنّدت عساكر من شباب ورجال ـ زليطن ـ ومصراتة ـ وقماطة ـ والساحل ـ وسيلين ـ ومسلاتة ـ وما مرّ يومان فقط بعد هذا الاجتماع.. حتى هرع إلى خط القتال شباب متوثب ورجال وفرسان انضموا إلى خط القتال مع إخوانهم يلهبون خط النضال. وكوّن «سعدون» من الكتيبة

الجديدة حوالي ألف مجاهد.. واستمرت المناوشات واشتد الصراع المرير..

يــوم الحوش:

ومن أيام «قصر أحمد» ضمن السبعة عشر يوماً.

كانت هناك أحداث وصور.

من بين الفرق العسكرية كانت هناك فرقة من العسكر النظامي في موقع بجهة «قصر أحمد».

وضابط هذه الفرقة المجاهد «عبد الله الزقل» من مدرسة نوري.

وفجأة وعلى حين غفلة طلع عليهم رجل يرتدي عباءة حمراء.. يكاد يكون وجهه ملثماً..

إذ اشتمل بها في شكل لا تتبين منها ملامحه.. ولم يتضح لهم وجه الرجل ولا هويته، وكانت الساعة الخامسة في أول الليل..

وعندما شاهدوه أظهر حجته أنه جاء يستبدل جبخانته ـ أي ذخيرته ـ وفي لحظات اختفى.. انفلت ولم يظهر له شبح ولا أثر.. كأن الأرض ابتلعته..

في هذه اللحظات كان ما لم يكن في الحسبان.. فقد لقط منهم كلمة السر وهم لا يشعرون بهذا.. وكانت في تلك الليلة كلمة السر عبارة: «فتحــي»..

تعرف الرجل المجهول عليها ولم يظهر هذا الرجل صاحب العباءة الحمراء.. ولم يخطر ببال العسكر شيء نحوه.. ولكن كان هناك مفاجأة مرعبة..

في منتصف الليل.. كل شيء هادىء هدوءاً مؤقتاً إلا من همهمات أو أغنية وطنية.. أو حركات حارس.. وفجأة طلعت قوة من الأحباش من جانب القوات الإيطالية وتوجهوا ناحية الحرس.

أحباش سترهم الظلام القاتم كجلدتهم لا تتبين وجوههم في الظلام..

وعندما اقتربوا من الحارس كاد أن يصوّب إليهم سلاحه ولكن بادروا بإطلاق كلمة السر «فتحي».. وفي لحظة تراخى.. ولكنها لحظة في دوامة.. وفي لمحة من الزمن قطعوا رأسه بالسيف ودخلوا المنزل الذي كان غاصّاً بالجند.. وعرجوا على الحارس الثاني عند الردهة الداخلية وقبل أن يتحرك كان السيف قد دقّ عنقه.

كان أكثر العسكر نائماً بعد دورية مجهدة.. ومعركة طاحنة.. كانت نوبة زملائهم في الساحة. وعمل الأحباش بسيوفهم مذبحة أسفرت عن قتل عدد وافر. لقد بلغ الضحايا ثلاثة وعشرون شهيداً كلهم من العسكر النظامي.. وإن كان البقية قد قاوموا وقتلوا من الأحباش عشرة.

وكان الأحباش قد استعملوا أثناء تسللهم السلاح الأبيض خوفاً من أن توقظ طلقات النار مَن في المنزل. وكان من الذين حكوا الواقعة الدامية والفاجعة المؤلمة المجاهد «الصادق بن عامر» الذي كان في المنزل واستطاع أن يقفز من الحائط وينجو إلى الثكنة المجاورة..

ليدور القتال من جديد في معارك متواصلة..

ومن الذين استشهدوا في هذا المنزل «الزروق الأشهب» من قبيلة الزروق كان شاباً في الرابعة والعشرين وكان جاويشاً وهو أخ «عبد الله الأشهب» الذي استشهد في يوم ـ الكراهب ـ أي المصفحات ـ وتعرف هذه بمذبحة الحوش ـ وهو منزل له حديقة واسعة عند (أبي شعيفة).

* * *

علم أبيض وصحفي يتوسط:

بعد المعركة التي كانت في يوم 11 فبراير 1922 م.. ظهر في عرض البحر وقرب الميناء زورق يحمل علماً أبيضاً.. ولما وصل إلى (قصر أحمد) تقدم حامل العلم الأبيض قاصداً جهة (المواطين).

لم يطلق عليه أحد الرصاص

واتضح أنه الصحفي المواطن (عثمان القيزاني).

وكان معه المحامي الإيطالي (مارتيني).

وهذا المحامي كان من الأحرار الذين يناصرون قضية العرب ضد ظلم الطليان وقد بعث بهما الوالي الإيطالي (جوزيبي فولبي). كان يقصد من مسعاه هذا أن يعمل على وقف القتال وطلب مفاوضة للصلح مع المجاهدين..

كما كان الوالي قد أرسل في نفس الوقت إلى (أحمد المريّض) رئيس الهيئة المركزية رسولين لهذا الغرض هما:

- السنيور (بيلا) أحد التجار الإيطاليين.
- والمستشرق الإيطالي (رابكس) وكان هذا يشغل منصب سكرتير الوالي، وهو ترجمان يجيد العربية..

ولكن المحادثة والمحاولة باءت بالفشل.. فقد كان من وراءها خدعة من خدع الاستعمار عندما يضيق عليه الخناق.. وتتوالى عليه الضربات.. وعندما تشتد مقاومة المجاهدين.

هنا يرتفع العلم الأبيض.. ويشهر سلاح المفاوضات والهدنة..

تلك أساليب المستعمر في شتى مراحل الكفاح العربي ذاقت منها ليبيا وذاقت منها بلدان أخرى فيما بعد..

رفرفت الراية البيضاء على رأس شخصين أو ثلاثة.. والعلم الأبيض علامة الأمان والاستسلام.

مفاجأة في يوم الإثنين 17 جمادى الآخر.. وما أكثر مفاجآت الميدان..

وعندما اقتربت الدورية تتفرس القادمين.. إذ بها أمام صحفي وطني ومحامٍ له صلة بالسياسة وطالما كتب في جانب القضية الليبية.

كان الصحفي (عثمان القيزاني)[1] صاحب جريدة ـ اللواء الطرابلسي ـ والمحامي ـ مارتيني ـ.

وأسرع الضابط (النوباتجي) ومعه عساكر واستلموا الصحفي والمحامي. . فقد أمر (سعدون) بجلبهما إليه. . لاستطلاع ما وراء مجيئهما.

وقف الاثنان أمام البطل المقاوم في مركز قيادته. . وأنصت (سعدون) للأستاذ (عثمان القيزاني) و(مارتيني) وهما يتكلمات بحذر وفي لهجة لا يعوزها الصدق.

وتذاكر (سعدون) معهما وسأل سؤالاً منطقياً بسيطاً:

ـ وماذا تريد منّا إيطاليا وما يريد أُسطولها؟. .

ويدرك القائد الواعي ما هي تخطيطات الاستعمار.

إنها تريد أن تضع يدها على هذا الوطن العربي. . وما معنى هجوم هذا الأسطول والكتائب والطوابير التي ترسل قذائف النار على أبناء الشعب.

وأوضح المندوبان أنهما يحملان رغبة الهدنة والمفاوضة.

وسأل سعدون سؤالاً منطقياً مرة أخرى:

ـ ما المقصود بهذه الهدنة والمفاوضة. . ؟

وله الحق أن يسأل هذا. . أترى هو استسلام من طرف الطليان؟. . أم هو نوع من الخطط الاستعمارية. . أم تراه كسباً للوقت وجسّاً للنبض. .

وكلام طويل دار بين «سعدون» من ناحية، وعثمان القيزاني ومارتيني من ناحية أخرى. .

وكانت هناك رعشة من رهبة الموقف شعر بها هذان المندوبان وهما في

(1) تجد ترجمة ضافية عن الصحفي الوطني «عثمان القيزاني» وجريدته في كتاب «صحافة ليبيا في نصف قرن» للمؤلف.

مجلس البطل «سعدون» الذي يمتاز بشخصية قوية حازمة ويتصف بالإرادة الجبارة.. كانوا يسمعون به ويسمعون عنه.. وها هم في جبهته العسكرية قرب ساحة المعركة.. ثابتاً وفي ثباته صدق الإيمان.. وهو يتمتع بإكبار الجند والضباط ورؤساء المجاهدين وقد خشي المندوبان رهبة الموقف وتأزم الظروف.. كلاهما غير عسكري.

أحدهما حياته بين الأوراق ومجالس الأدب ودهاليز السياسة والثاني بين مواد القانون والمحاكم والنظريات الدستورية ودهاليز السياسة.. فماذا يحدث لو أن جندياً متحمساً صوّب إليهما رصاصة أما كانا يضيعان ويذهبان ضحية في طرفة عين؟.. ولكن لن يغدر بهما المجاهدون..

إن المجاهد مناضل غير غدّار..

لقد ابتسم لهما «سعدون» واعتبر الصحفي والمحامي ضيفين في رحابه..

والطاعة والنظام والحزم من صفات المجاهدين في الميدان..

ـ على الرحب أنتم.. ولكن شروط إيطاليا وطلبات إيطاليا مرفوضة..

وقال سعدون:

ـ سنجاهد.. سنقاتل..

وكان كلام المحامي المتعود على أساليب المحاماة وفن الكلام طويلاً وكان كلام الصحفي المتعود على تدبيج المقالات والكلام السياسي طويلاً..

ولكن كان جواب «سعدون» الفارس المناضل كلمة موجزة فحواها ومضمونها:

ـ إن المجاهدين وقوات الجيش لن يتأخروا عن صدّ قوات المعتدين..

لا بدّ أن يرحل الأسطول.

بلاغ فيه حزم..

وبهت المندوبان.. وباتا ليلتهما.. وإنها ليلة أرقة.. مسؤولية لا يدريان كيف المخرج منها.

* * *

وفي اليوم التالي..

رجع المحامي «مارتيني» إلى الكردون ومعه جواب القائد «سعدون» إلى اللجنة التي أرسلت هذين المندوبين.. أما «عثمان القيزاني» فقد خاف الرجوع وخشي من الطليان فلا أمان لهم.. إن شيمة المستعمر أنه غدّار.. وفضل أن يبقى مع مواطنيه..

وهنا سؤال قد يتبادر إلى الأذهان.

هل موقف «عثمان القيزاني» ومجيئه في هذه المهمة كان يفسر بعدم وطنية؟ وهل للرجل ميول للطليان؟..

وفي الواقع والحقيقة التي تنصف ـ أن الرجل له ماضٍ طيب في الدفاع عن قضية الشعب..

وهل للرجل ميول للطليان؟..

والجواب بكل وضوح وبدون لبْس.. إن هذا المواطن كان صحفياً نزيهاً، طالما جرد قلمه لمحاربة الاستعمار.. وكان رئيساً لتحرير الجريدة الوطنية الناطقة بلسان «الهيئة المركزية».

كان يقف في صفوف المقاومين بمقالاته ومساعيه.. والرجل كان يأتمنه الأحرار على أدق أسرارهم، كان مستشاراً في كثير من الأزمات السياسية.

والناطق في صحيفته «اللواء الطرابلسي» بلسان المناضلين من عام 1919 إلى 1921 م..

والذي أصدر جريدة خطيّة بعد إغلاق جريدته ومطبعتها..

وإنما قبل «عثمان القيزاني» الذهاب إلى مركز «سعدون» وعرض عليه الهدنة لأنه كان واقعاً تحت قبضة الطليان في مدينة طرابلس التي كانت تحتلها

إيطاليا.. هذا من ناحية.. ومن ناحية أخرى لعلّ الرجل كان له رأي في الموضوع..

ولكنه على كل حال ومهما كانت الملابسات لا يخرجه موقفه هذا عن دائرة الإخلاص والوطنية بل إن «عثمان القيزاني» عاش مواطناً مخلصاً سواء في أيام الجهاد أو سنوات النفي والاعتقال أو سنوات الهجرة.. وأيضاً لو كان هذا المندوب مقرّباً من إيطاليا لما فضّل عدم الرجوع إليهم بل ها نحن نراه بعد اجتماعه مع «سعدون» ومشاهدته إصراره على مواصلة المقاومة والجهاد يفضل عدم الذهاب مع المحامي «مارتيني».

ويبدو من هذه الظواهر والملابسات أن القوات الإيطالية أجبرته على الذهاب في هذه السفارة إلى «سعدون» ولأن المجاهدين يعرفون ماضيه ومساعيه ويركنون إليه فقد كان صديقاً لرمضان شتيوي الأخ الأكبر لسعدون.. وهذه نقاط يلاحظها الدارسون لهذه الفترة..

لقد فشلت المفاوضات مع «سعدون» وأصرّ على المقاومة.. ولكن كان هناك من طرف الحكومة المدنية والإدارية من رضخ للمفاوضة والهدنة..

ولكن ما هو الموقف..

كيف يصنع «سعدون».

* * *

محاولات وصراع مع الحكومة المدنية:

من طرف القيادة الإيطالية لم تهدأ محاولة المفاوضات وتوالي المكاتبات.. أسلوب من أساليب الخدع السياسية.. وها هم يجددون هذه المراسلة والمحاولة..

ولم يعد «عثمان القيزاني» للتجربة وإلى الزج بنفسه في مشكلة السفارة مع «سعدون» فلجأت القيادة الإيطالية إلى مرشال طلياني.. وأيضاً كانت المحاولة غير مجدية.. غير ذات طائل.

إن عمليات جسّ النبض والتهافت على إيقاف القتال لم تُجدِ شيئاً.. فقد أصرّ «سعدون» على مواصلة النضال.. وأخذ في تنظيم صفوفه.. وتزايدت قوات المجاهدين.

أصبحت البلدة كلها مجندة.. الكل يدفع سهمه في معركة الشرف.. النسوة ينسجن الأكسية والعباءات ويقدمنها للجنود.. ويصنعن الصابون ويطهين الطعام.. وأصحاب المزارع والجنائن يقدمون الخضروات والمزروعات والزيتون.. وكل ما يلزم للطبخ والتموين. ومن ذهب يحصد في البر يسرع بتقديم المحصول.. قد يضع في بيته ما يكفي للقوت الضروري لأبنائه ويقدّم الباقي لقيادة «سعدون».

ومعين الصبر والثبات لم ينفد.

تواصلت العمليات الحربية وأساليب المقاومة بأعنف مما كانت وأشدّ مواصلة وفدائية.. وكلما حاولت القوات البحرية النزول أو التوغل في الشاطىء وعلى الساحل ردّتهم طلقات «سعدون» وصحبه الفرسان.

* * *

استمرت المعارك في التحام شديد ملتهب طوال النهار ويوم السبت وقرب العصر.

حلّقت طائرة من علو قريب وأخذت تلقي أوراقاً.. وبينما كان المجاهدون في فوران المعركة إذ بأمر يأتي من الحاكم ـ المتصرّف ـ أحمد السويحلي ـ وهو أخ «سعدون» يأمر بسحب خط المجاهدين إلى الخلف.

وكانت أوامره قد جاءت عند العشاء ليلاً ويقول في هذه الإشارة:

إن هناك وفد جاء للمذاكرة من أجل عقد هدنة.

ولكن «سعدون» كان غير راضٍ عن هذه الإشارة.. واجتمع مع الضباط وأظهر استياءه من هذه الأوامر والتصرفات من أعضاء حكومة «مصراتة».

انسحاب لماذا.. هدنة ما الداعي إليها؟

إن الرغبة جامحة لدى الضباط والمجاهدين لمواصلة القتال مهما كانت الحالة.

ولكن بعد مداولات وإصرار من طرف أعضاء الحكومة.. أخيراً وعلى مضض وعدم رغبة ساير «سعدون» أخاه المتصرف وأعضاء الحكومة.

* * *

إن «سعدون» روحه عسكرية.

وأعضاء الحكومة ومن بينهم أخيه «أحمد» والتهامي قليصة أقرب ما يكونون إلى المسايرة.

وكان «سعدون» دائماً على غير انسجام مع السياسيين والإداريين في الحكومة الوطنية.

إنه لا يدرك إلا لغة الميدان في عصر المقاومة.. إنه دائماً في الخط الأمامي.. ولا يجنح لتلك الأساليب السياسية وأشكال الملاينات.. إنه لا يريد أن ينسحب شبراً.. إنه يرغب أن لا يهادن ساعة.. وهكذا كانت روح المجاهدين والجيش الوطني معه.

ولقد كانت أوراق الطائرات تشير إلى طلب الهدنة.

ومجيء «عثمان القيزاني».

نزل «عثمان القيزاني» وصحبه في قصر «أحمد».

وكان مجيئه مع الوفد عن طريق البحر وكان معه «مارتيني» كما سبق أن أشرنا.

وحدثت في تلك الليلة مناوشات بسيطة قبل إعلان الهدنة.. كان ذلك قبل انتهاء معركة يوم السبت الثاني.. وقد اضطرت القيادة الإيطالية إلى إلقاء المناشير بالطائرة لأن قوتهم لم تتمكن من إقامة الاستحكامات وتشييد الحصون.

وتقهقر المجاهدون عن خطّهم قليلاً.

وانسحبوا إلى مكان يسمى «سور جبران» وهي المسافة التي انسحبوا إليها تحت ضغط الأوامر من مركز الحكومة الوطنية.

وأصبح خط الطليان يبعد حوالى (300) متر.

* * *

ولما نزل «عثمان القيزاني» عند القائد الإيطالي «بقصر أحمد» كانت مدافع «الهاون» من جيش «سعدون» تصوّب قذائفها على العدو..

ووقعت إحدى القنابل على تجمعات العدو في مركزه.. وكانوا يتناولون العشاء.

وعند ذلك التفت القائد الإيطالي وقال لعثمان القيزاني:

ـ انظر طائراتنا تُلقي المناشير وهم يُلقون القنابل.

وهذه القنبلـة قتلت (30) شخصاً.

هكذا روى القيزاني لسعدون فيها بعد وقال في عبارة ممازحاً:

ـ يا سعدون هم يرمون المناشير وأنت ترمي القنابل.. فجعتهم في عشاهم.

وفي منتصف النهار من يوم الأحد الذي يلي معركة «السبت» أصدرت القيادة الإدارية أمرها بوقف القتال وعدم إطلاق النار..

ولكنه الهدوء المؤقت.. الهدوء الذي كان في صالح القوات المعتدية ولو لم يكن في صالحهم أكانوا يسعون إليه ويلحّون؟ فقد وجدوا في ذلك فرصة وكسباً للوقت.. فقد ظل الميدان وخط النار هادئاً طيلة شهر كامل بعد معركة (يوم السبت الكبير).

هدوء.. وهل يرضى الفدائيون بالهدوء في صالح القوات المغيرة!؟.

سعدون يتحفز..

كان «سعدون» يتحرق شوقاً للنضال.

كان في هذه الآونة يجتمع مع ضباط ورؤساء المجاهدين ويُظهر علناً عدم رضاه عن أوامر إيقاف النار.. إنه يريد أن يخوض المعركة..

ما هذه الهدنة.. والعدو على أبواب البلاد وشواطئها..

وكان من بين الذين استدعاهم «سعدون» من الضباط وأفضى إليهم برغبته في مواصلة النضال والاستعداد للمعركة من جديد.. الضابط المجاهد:

● الهادي الزريدي ـ الذي سبق له أن ساهم في معركة القرضابية والهاني من المعارك الأخرى مع «رمضان» فبعد أن توقفت الحرب في الميدان بين الطرفين ذهب (الهادي الزريدي) إلى منزله في إجازة وأرسل إليه (سعدون) تذكرة مع والده ـ عمر الزريدي ـ وحمل الشيخ الوالد إلى ابنه الشاب الضابط رسالة (سعدون) والتي كتب فيها سعدون سطراً واحداً:

ـ أقدم بوجه السرعة..

وجاء إلى (سعدون) مسرعاً.. إلى مركز قيادته في (الملايطة) واجتمع مع سكرتير سعدون المجاهد (علي المتجول) وكان بين الاثنين ـ السكرتير والشاب الضابط ـ كلاماً وعتاباً وحديثاً يدور حول هذا الصمت الذي لا يطيق كابوسه المناضلون..

وصحب «علي المتجول» صديقه الضابط ودخل معه إلى حيث يوجد «سعدون» ثم خرج السكرتير وبقي الضابط الشاب مع القائد المتحمس.. وكان لقاء فيه التجاوب بين الشباب المتحمس الذي يشاهد جراح وطنه..

وكان من بين ما قاله «سعدون» في صراحته المعتادة وجرأته الحازمة..

ـ لماذا يا هادي يا خوي في وقت خوي رمضان كنت مستمر في الجيش والآن صرت متكاسل في بيتك.. يا هل ترى أنت تكرهني؟..

ـ لا.. لا.. إنما كنت مريض.. والحمد لله يوم المعركة كنت

بجانبك.. لم أتخلف عن مكاني في الميدان .. والآن لما صارت الهدنة ذهبت إلى أهلي..

فقال «سعدون»:

ـ أنا أُريدك أن تقف بجانبي في ميدان المعارك كما كنت في أيام أخي «رمضان».

وأنا أظنك زعلان على أخي (أحمد) وأنا مستعد نمشي معك كما كان أخي رمضان..

وعندئذ قال الضابط:

ـ أنا مستعد ولكن عندي طلبات..

قال سعدون:

ـ وما هي طلباتك..

ـ ثلاثة أشياء..

● ألا أقبل أوامر إلا من (سعدون).

● إذا سمعت عني كلاماً اسألني قبل أن أُعاقب.

● خط الحرب والتنظيم في النقطة التي أتمركز فيها من الشؤون العسكرية وساحة المعركة أكون مسؤولاً عنها ولا أحد سواي في نقطتي يتدخل فيها.. وأرجو فصل الشؤون الإدارية عن شؤون الخط الدفاعي..

وابتسم (سعدون) وقال وهو يرفع رأسه..

ـ كلنا نريد الجهاد.. شروطك مقبولة.

وبعد هذه المقابلة الواضحة الصريحة عيّن «سعدون» الضابط «الهادي الزريدي» قومنداناً في الخط الدفاعي..

وكان عمره حوالي الثلاثين وهو من الذين درسوا الفنون العسكرية وتدربوا في خطوط النار.

واستلم الخط الدفاعي في ذلـك اليوم.. الثـلاثاء من شهـر رجب 1340 هـ.

وكان «سعدون» يريد الاستعداد لخوض المعارك من جديد ولا تطمئن نفسه لهذه الهدنة والصمت المخيم على الميدان.. كان يكره الصمت الكئيب في خط الدفاع. واتصل بضباطه وجنوده.. وأخذ في الاستعداد والتنظيم..

وكان هذا الحديث ومقابلة الضباط والاستعداد في اليوم الثاني والثلاثين بعد الهدنة.

* * *

وكان الضابط «الهادي الزريدي» قد استلم نقطة الخط الدفاعي ومهمته من الضابط «عبد السلام الشرقاوي» من المناضلين من قبيلة (العبيدات) من فرع (غيث) وكان من خريجي مدارس اسطامبول العسكرية.. كان أيضاً عمره أوان ذاك في حدود الثلاثين مثل زميله..

وعندما استلم الخط قال له (عبد السلام الشرقاوي):

- حسب أوامر (سعدون) إذا وقع عليك هجوم من الطليان عليك أن تسحب طوابيرك إلى الخلف إلى الاستحكام الخلفي تدريجياً وتتمركز بنقطة (السواطي).

وسلم له دور التسليم ومضيا.

* * *

ولكن هذا لم يرق للقومندان الشاب.

عند ذلك مرّ بالخط في حالة استطلاع وتفقد.. فوجد قوات الجيش مختلطة مع بعض في حالة هدنة فسرعان ما أمر الضابط بأخذ الأماكن وإعلان

حالة الاستعداد وفي نفس الساعة أمر بإطلاق النار على الطليان. . ونادى سعدون بالتلفون من مركزه بـ «النواهمة» وسأل:

ـ ما حدث؟. .

أجاب. . (بدأنا المعركة). . ضربونا ضربناهم.

قال سعدون:

ـ أضرب الأعداء. . ولا تبالِ.

وهنا على نفس الخط التلفوني اتصلت الرئاسة الإدارية في (المواطين) وسألت الضابط:

ـ ماذا صنعت يا ولد؟

قال: ضربونا ضربناهم.

أجابت الرئاسة:

ـ هذه شيطنة منك.

وقطع (سعدون) هذه المحادثة بصوته في نفس الخط آمراً بمواصلة الضرب وقال موجهاً الكلام للضابط:

ـ لا تطع أمر أحد. . استمر في عمليات إطلاق النار.

كان التلفون ينقل الكلام في آنٍ واحد وفي الواقع أن (سعدون) كان قلقاً من هذه الهدنة. . غير مطمئن لها. . وطالما حدّث الضباط والمجاهدين عن قلقه من هذه الهدنة التي رضخ لها السياسيون ولم يرضَ بها أفراد الجيش الوطني ورؤساء المجاهدين ولكن بعض المسؤولين الإداريين هم الذين انجرّوا إلى الهدنة.

وفي الواقع أن (سعدون) هو صاحب الخطة في العودة إلى إطلاق النار. . فقد وجدت قوات إيطاليا فرصة ومتسعاً من الوقت لبناء استحكامات وتشييد

تحصينات على الشاطىء بل وجدت متسعاً من الوقت لبناء السور الطيني ـ الكردون ـ ومن الملاحظ أن هذا ـ الكردون ـ بَنَته إيطاليا في أيام الهدنة. . فقد هدم السور القديم بعد الجلاء الأول.

* * *

بعد معارك يوم (السبت) وفي فترة الاثنين والثلاثين يوماً رمّموا السور وأحدثوا استحكامات جديدة. . ولو كانت المعارك قد استمرت كما يـريد (سعدون) والمجاهدون لما استطاعت قوات الطليان بناء هذا السور الجديد. .

والآن بدأت المعارك. . ونظّم سعدون حفر الاستحكامات وما يلزم من معدات وأجهزة وبهذا الهجوم الذي رسم له «سعدون» أصبحت الهدنة غير ذات موضوع.

وجد «سعدون» الفرصة لإلغائها عملياً. . كان «سعدون» يتحين الفرصة لذلك وهو طيلة الاثنين والثلاثين يوماً في اجتماعات مع الضباط ورؤساء المجاهدين والشباب لدراسة وتنظيم صفوف القوات المناضلة. . كان يريد في هذه الجولة تقوية الكتائب والطوابير بصورة متكاملة ورأى أن الهدنة ضربة قاضية على صفوف المقاومة. . عمل جهده في تقوية الجيش النظامي. . وأصدر أمره بأن يؤخذ في تنظيم عمليات التجنيد والتعبئة العامة. . فقد غدا من الضروري التجنيد الإجباري وإن كان الشعب كله هبّ للدفاع وانخرط في صفوف المقاومة إلا أن القضية تريد تنظيماً ودراسة على أصول عسكرية ونظرة جادّة للموقف.

وكان ترتيب «سعدون» أن يؤخذ من كل أُسرة نفر على الأقل. فكل أُسرة غدت ملزمة بتقديم نفر إلى صفوف الجيش. . وكان اهتمام «سعدون» في هذه الفترة بتدعيم الجيش الوطني ليكون قوياً كما كان في أيام أخيه «رمضان» إذ كان عدد القوات النظامية أيام «رمضان» في لواء «الخمس» و«مصراتة» فقط ما يزيد عن ثلاثة آلاف جندي تحت إمرة «رمضان الشتيوي» هذا عدا طوابير المجاهدين التي تعدّ بالآلاف. . وعند هجوم الأسطول على «قصر أحمد» بعد

مصرع «رمضان» لم يكن هناك من المجندين النظاميين ما يزيد على خمسمائة مجند كما سبق أن أشرنا.

* * *

ســعدون يدرس الموقف:

وأخذ سعدون يدرس الموقف من الناحية العسكرية.

والحاجة الملحّة التي يتطلبها الميدان.

والأسطول المهاجم ما زال راسياً في ميناء البلد.

رغم الإدارة الحاكمة وعلى رأسها أخيه (أحمد).

إلّا أن في هؤلاء مرونة الساسة.

وقد يرتبطون بزملائهم من أعضاء الحكومة في المناطق الأخرى.

و«سعدون» من ذلك الطراز الذي لا يعرف في مثل هذه الأزمات ليناً، ولا يهضم في مثل هذه الحالات والظروف شيئاً اسمه المسايرة..

ولقد كان الصراع عنيفاً بينه وبين هؤلاء الساسة من زعماء الحلول الوسط، أو مدرسة التمهّل والتريّث.

فهو ناري الطبع، ثوري الجبلة، عسكري بالفطرة.

كل هذا جعل «سعدون» يفكر جادّاً في أن يعيد تنظيم القوات المجندة.

إذ أن انتفاضة الشعب والفرسان وحدها لا تكفي في تخطيط المقاومة، ولقد وجد (سعدون) كل التجاوب من أبناء البلاد والرغبة الأكيدة في إرجاع صفوف المجندين إلى ما كانت عليه.

وكان التنظيم الجديد على هذا الشكل:

من سن العشرين إلى الأربعين.

أما المجاهدون المتطوعون فبلا قيد في السن.

وكان التنظيم في الأسماء والترتيبات في الفترة الأولى لإعادة تكوين القوة النظامية كما يلي:

1 ـ المشاة وكان يطلق عليها بيادة:

قومندان علي إبراهيم القن خريج مدرسة نوري.

2 ـ النقل أو النقلية:

قومندان «محمد المروّح»

خريج مدرسة نوري ـ وهو من قبيلة الدبابسة.

3 ـ المتـــراليوز:

أحمد بو دبوس ـ خريج مدرسة نوري.

4 ـ طوبجية ثقيلة:

وكان يطلق عليها (سريع أطش):

- عبد الله السركسي
- أحمد الشعافي[1]
- السنوسي بن بلقاسم

5 ـ المدافع الإيطالية:

- منصور بوخريص الفيتوري
- عثمان بو حسينة الفتيوري

كانا من الألاي متدربين.

6 ـ المدافع الصغيرة «بيادة طوب»:

- محمد الرملي
- خريج مدرسة نوري

7 ـ مدافع الهاون «الرمايات»:

- عبد الله الزدام

(1) المرحوم أحمد الشعافي من خيرة الضباط وقد هاجر إلى القطر المصري وكان كثيراً ما يحدّثني عن ذكرياته وقد توفي في مدينة الدلنجات ـ بحيرة ـ بمصر.

● استشهد في معركة «قصر أحمد»

* * *

وكانت الأسلحة في يد الجيش بقيادة (سعدون) مشكلة بأنواع عديدة منها:

أسلحة إيطالية وروسية وألمانية وفرنساوية.

وإن كان النوع الفرنساوي قليلاً.

وكانت هناك الأسلحة التي سبق أن جلبتها الغواصات وهي من أنواع الأسلحة الروسية ويطلق عليها «مسكوفي» وألمانية ونمساوية تأتي من المصادر التالية:

1 ـ عن طريق الغواصات.
2 ـ ومن الغنائم في المعارك ـ وهي في الغالب الأسلحة الإيطالية.
3 ـ بعض الأسلحة متبقية من العصر التركي.
4 ـ بعضها اشترِيَ عن طريق التجارة بالقوافل التجارية ـ مع صعوبة ذلك.

* * *

ويلاحظ هنا أن الغواصات الألمانية التي كانت منفذاً هاماً لجلب الأسلحة والذخيرة ـ أيام رمضان شتيوي ـ قد انقطعت عن المجيء أيام (سعدون). لأن الحرب العالمية الأولى انتهت، وألمانيا هزمت في الحرب هي وحليفتها تركيا كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

وتقاعست دولة الخلافة عن إمداد الشعب هنا بالأسلحة والذخيرة.

ووجد (سعدون) نفسه أمام أزمات متوالية ومشاكل متنوعة في شتى المجالات من أهمها:

● الأزمة التي برزت بالهدنة وتوقيف العمليات الحربية في خط الدفاع ـ تلك الهدنة التي خضع لها السياسيون.

- أزمة الذخيرة.
- أزمة الغلاء وموجة ارتفاع الأسعار ونقصان بعض المواد.
- توزع بعض العسكريين وذهابهم إلى أهلهم غاضبين من موقف الهدنة.

ورغم كل هذه الأزمات فقد ظل القائد الفدائي صلباً شديد العزم فولاذي الإرادة.

واستطاع بمعونة المناضلين أن يجند بعد معركة يوم السبت الثاني وبعد انتهاء الهدنة التي عمل هو على خرقها.

استطاع أن يجند ثلاثة آلاف شاب.

وهذا عدد ليس باليسير بالنسبة إلى تلك الفترة وإمكانياتها.

كان الضباط يقومون بتدريبهم ويعنون بهؤلاء المجندين الجدد.

كان تدريبهم في نقطة (الملايطة).

وهذه الساحة كانت على بعد خطوات من خط النار.

والمسؤول عن التدريب العسكري لهذه الفئات الجديدة من الشباب وتنظيم طوابيرها هو:

- علي إبراهيم القن.

وكان يساعده أيضاً في عمله هذا.

- «رشدي» وهذا المناضل من «زليطن» ومتخرج من مدارس تركيا.

* * *

كانت هذه الطوابير الجديدة ترتدي نسج العباءات والجرود التي فصّلت على هيئة سترات وبذلات عسكرية.

وكان التدريب في موجة التجنيد هذه سريعاً.

والمقصود منه كما رسمته قيادة «سعدون» تلبية الحاجة الملحّة ومجابهة المعركة بأكبر عدد من الشباب المدرب.

بدل أن يذهبوا بدافع الحماس من الحقل أو المنزل والسوق إلى الميدان رأساً، ولهذا كان لا بدّ من التدريب هذا ليجيد الشباب المتطوع.

إطلاق النار وتصويب الهدف.

التعوّد على النظام والطاعة.

المران والتدريب على «تكتيك» الهجوم والدفاع.

وقد ساعد على نجاح هذه المهمة وسرعة إنجازها أنه كان ملائماً طبيعة شباب ذلك الجيل الذي لم يكن بحاجة إلى تدريب طويل على ممارسة الفنون العسكرية واستعمال الأسلحة.

إنما هو في حاجة إلى نوع من الإدارة والتنظيم.. والطاعة في مجتمعٍ الفردُ فيه شديد الاعتزاز بنفسه.

وفي حاجة إلى التحركات المنظمة، وإجادة فنون التحايل في ساحة الميدان.

إذ الإخلاص المتوفر والشجاعة الطبيعية وحدها لا يكفيان.

وكان سعدون في كلماته وخطبه دوماً يحضّ الشباب على التحلّي بروح الشجاعة والدفاع عن الوطن والدين.

وقد كانت أساليب التحمّس للقتال بلغت أقصاها لديه.

فمن ذلك.

● تهديده بإطلاق النار من بندقيته على كل جبان يتردد.

أو خائف يحاول أن يتهرب من ساحة المعركة.

ومن صور التحمس للقتال وبعث النخوة، أنه تطرق لمسامعه أن بعض

الجبناء أراد التهرّب والتنصّل من ميدان القتال فقام باستدعائهم وجلبهم إليه.

وكان أن ألبسهم لباس النساء والغادات.

واستدعى الجنود وطلب منم أن يصفقوا ويرقص هؤلاء الجبناء.

كان درساً عملياً وصورة من صور التوبيخ خشي منه كل من تسوّل له نفسه الهروب والتنصل.

قد يكون في هذا شيء من العنف أو القسوة.

ولكن الواجب في مثل تلك الظروف قد يبرر مثل تلك التصرفات.

قد نراها قسوة في ظروف عادية.

أما طوارىء الحروب والاستنفار العام قد تكون لها إملاءات ومقاييس أخرى.

وفي كل مجتمع فدائيون.

ولا يخلو مجتمع من مترددين، يحتاجون إلى كسوة نسائية وتصفيق في حلبة ولقد كان درساً مفيداً.

* * *

كان إقبال الشعب على الميدان والساحة إقبالاً مليئاً بالحماس وصادق الإحساس.

واستمرت المعارك ليل نهار بصورة متواصلة.

لقد بطلت الهدنة، وكان إحباطها من مواقف البطل التي تشهد بجرأته.

بل كان ينتقد أخاه «أحمد» علانية.

ولم تحل عاطفة الأُخوّة وأواصر الدم، واحترام التقليدي لمن هو أكبر منه، لم تحل هذه العوامل العاطفية بينه وبين انتقاده والخروج على رأيه.

والمجاهرة بالتمرّد على قرارات «الهيئة المركزية».

وما شاكلها من هيئات لا نشك في إخلاصها.

ولكن مواقفها وأسلوبها السياسي لم ترق لمزاج الثائر العنود والفدائي المقدام.

ولهذا كان «سعدون» غير منسجم مع «قليصة» رفيق المنفى وزميل السجن وصديق أخيه.

ولم ينسجم مع غيره من أعضاء الحكومة الإدارية بمصراتة مع أن لهؤلاء سهماً لا ينكر في الجهاد والتضحية.

إن سعدون عسكري بفطرته، جريء بطبعه.

جذاب الشخصية، مرهوب الكلمة.

وما كان أحد من رجال الإدارة والحكومة يجرؤ على مواجهته أو الحدّ من صولته، ولا سيما أن قوات الجيش وكتائب المجاهدين كانت تقف معه وترهب شأنه.

* * *

وكان النظام المالي هكذا كما رسمه المسؤولون.

فرضت الحكومة الوطنية ضرائب على المبيعات في الأسواق.

- 2,5 في المئة.
- والزكاة الشرعيــة.
- والتبرعـــات.

كانت هذه الحاصلات تغطي حاجة المقاومة، وتعطى لخزينة المقاومين.

* * *

وكان جهاز الحكومة الإدارية «في مصراتة» على النحو التالي:

- أحمد الشتيوي ـ متصرّف.

● علي بو حبيل ـ قائم مقام.

● عمر الزيادي ـ قومندان الجندرمة «أي رئيس البوليس».

وأما «محمد سعدون» فهو قائد عام للجيش والتحركات الحربية.

وهو المسؤول عن كل الشؤون الدفاعية.

وكانت هذه الحكومة مرتبطة ومتصلة بالجمهورية الطرابلسية.

وكانت حكومة مصراتة من قصر القره بوللي إلى نهاية قصر سرت.

* * *

وكان سعدون يخرج إلى تفقد الخطوط والجبهات التي يرابط فيها المجاهدون والجيش.

ـ جبهة الخمس ومصراتة ـ وكانت نقطة قتال ومعارك مستمرة.

ـ كان مركز الخمس في منطقة (شقران).

بينما كانت نقطة (المرقب) في يد الطليان.

ونقطة (كحلة) في يد المجاهدين.

وبين هاتين النقطتين مسافة يسيرة لا تتجاوز اثنين كيلو.

* * *

كان الضابط المسؤول عن خط المجاهدين في منطقة شقران هو إبراهيم عبّاد من بلدة سيلين.

كان يشغل منصب مدير.

أو على حد تعبيرهم ـ قومندان مجاهدين ـ.

بينما كان «قومندان» القوات النظامية في منطقة «شقران» هو الضابط «محمد بن عمر الفقي» وكان هناك في النقطة حوالي ثلاثمائة عسكري.

وأما قوات المجاهدين من غير هذه الكتيبة العسكرية فتبلغ حوالي ألف وخمسمائة مجاهد.. وكان من بين قوات هذه النقطة فصيلة «المترليوز» وكان المسؤول عنها «مصطفى الزريدي» وهو ضابط الآلاي متدرج في السلك العسكري حتى وصل إلى رتبة ضابط.

وتشمل هذه النقطة في «شقران»:

الساحل - زليطن - سيلين - جحاوات - قماطة.. وكانت الاتصالات تتم عن طريق التلفون.

* * *

أهازيج في المعـــارك:

كانت الأُهزوجة الحماسية تنطلق من أفواه الفرسان فتثير لهب الحماس.. وكانت تلك المقاطع عفوية النظم مرتجلة المقاطع عميقة الأثر ولقد أدى الشعر الشعبي دوراً هاماً في معترك النضال البطولي.. وهذه نماذج من تلك الأهازيج التي تسمى عندهم «مهاجاة» يضع الفارس في نشوة الحماس إصبعه في أُذنه ثم يرتفع صوته المدوي محرِّضاً على الجهاد داعياً إلى شد العزم والثبات.. من هذا النوع الذي كان قد ارتجله الفرسان المجاهدون في معارك «قصر أحمد» وأيام مقاومة البطل «سعدون».

وليس هذا إقحاماً أو استطراداً.. بل هو صورة مكمِّلة لما كان يدور في تلك الساحة.. وإنها لصور رائعة تعطينا الفكرة الواضحة عن مدى التعبئة المعنوية والروحية في صفوف الشعب المناضل.

عند الهجوم على «قصر أحمد» انطلق الفارس في نبرة قوية قائلاً:

شدّوا حزاماتكم زين.
وكونوا كبار العزايم.
والموت راهو بالآجال.
والله ما حــد دايم.

ثقة وإيمان ورغبة في اقتحام المخاطر.. لن يدوم أحد فالموت في ساحة العز أفضل.

ومن ألوان الأهازيج الشعبية ذات الأصالة الفطرية والصبغة الحماسية الصادرة من صفوف المجاهدين مثل هذه المقاطع المشدودة إلى وتر الإيمان والفدائية المثالية في المعارك التي يقودها «سعدون»:

لو كان من دل ما مات.
يحرم علـيّ الطرادي.
ما دامت الموت بالآجال.
ادني لهـا يا جوادي.

وكلمة ـ الطرادي ـ من الفصيح المتداول.. ومخاطبة الجواد من الفارس الراكب وأمره له بالدنو واقتحام الميدان هي من تصوير الإحساس الملتهب المستمد من ذلك الواقع المحسوس.

* * *

وقد ألهبت معارك (يوم السبت) الشعراء الشعبيين.. وكانت بطولات (سعدون) وثباته مما جعل الشعراء يلهجون بفروسيته وهناك عديد من الأقاصيص والحكايات يرويها المجاهدون من نسج الواقع وسدى الحقيقة. وهذا مجاهد يسمى (ابن رويلة) وهو من قبيلة (معدان) وهو أحد الشيوخ العربان وكان هناك الشاعر الشعبي الذي صحب المعارك وجالس (سعدون) ووصف تحركاته.. هذا الشاعر يسمى علي بن حسن، كان قد نظم بيتاً هجا فيه صاحبه «ابن رويلة» وصوره بصورة الذي لم يشترك في المعركة وأخذ يتحدث عنه وعن أبناء المجاهدين فقال مازحاً:

طروا «بن رويلة» في نصيب سواري
هجم النصارى في كدوة العماري

وكانت هذه «الكدوة» أي المرتفع على بعد حوالي خمسين كيلومتر من الأرض التي تدور فيها المعارك.. وكان «ابن رويلة» في آونتها يصحب قافلة

للتموين ولزم القافلة ولم يحضر المعركة وعندما سمع الرجل أن الشاعر الشعبي يصوره هازئاً به ساخراً من ابتعاده عن المعركة تأثر غاية التأثر وفارت أحاسيسه وأخذ يلهب قومه من «معدان» قرب منطقة (تاورغاء) وجاء بهم.. بل كان في مقدمتهم في معركة «يوم السبت».

وناضل «ابن رويلة» وأسهم في خوض المعركة بشجاعة وتضحية وكان ضمن المجاهدين مع جيش «سعدون».. ورد على صاحبه علي بن حسن وقال ابن رويلة في ردّه مصوِّراً هذه المعركة ومشيداً بالمساهمة مع قومه:

نهار الجيش والكرهبة والروبة.
منهم ثلاث أبناد على العروبة.
نهار الهجمة.
نهار باشروا في الحرب قبل النجمة.
إيه.. ما منكم سبق جادوره.
نهار مغبّر.
لا ينحصر بحصار لا يشبّر.
وصالح تناه الناس بيه تخبّر.
منين يا سي علي تترقو به.
وما زلت تحسب لك كلام معبّر.
لو كان ما نخاف القول فيه عقوبة.

وصالح المشار إليه في أبيات المجاهد «ابن رويلة» هو ابن عمه وكان قد اشترك في معارك يوم السبت في صفوف «سعدون» وإشارته في هذه الشطرة:

لو كان ما نخاف القول فيه عقوبة

يشير إلى أن الشاعر «علي بن حسن» كان مقرّباً من القائد «سعدون» ويخشى منه لو هجا شاعره.

* * *

والشاعر المناضل «علي بن حسن» كان يصوّر في قصائده الشعبية المعارك

التي خاض عبابها الفرسان.. وحضر ذكريات البطولة مع «سعدون».

وبعد سنوات.. بعد استشهاد البطل عندما هاجر الشاعر إلى - تونس - أرسل إليه أحد أصدقائه يسأل عنه وعن أحواله ويطلب منه أن يخبره عن الفرسان وذكرياته مع «سعدون» في الميدان قال صاحبه في رسالته:

يا سي علي خبّر على اللي كانوا
فرسان في يوم الطراد يبانوا

ومرّ شريط الذكريات.. ذكريات البطولة التي سطّرها «سعدون» وصحبه.. مرّت أمام الشاعر المهاجر الغريب.. فأرسلها في ردّه هذه الأبيات من قصيدة طويلة:

حاضرين لتوّه
يوم المشمس ما يهابو سوّه
أهل الكرم والفرسنة ومروّه
لا خبخبوا.. لا خيبوا.. لا خانوا
كمين في كمين جتهم قوة
ومنهم يفكّوا وطنهم ما هانوا
لين تدخل «الكردون»[1] تعقل جوّه
وهم يشدوا في الحبش ويفانوا

* * *

(1) الكردون هو السور الذي بناه الجيش الإيطالي واحتمى وراءه ولا زالت آثاره باقية إلى الآن.

سعدون ومعارك قصر خيار

عندما طلعت قوات إيطاليا من طرابلس وانحدرت في طريقها إلى «قصر خيار» قماطة وقعت ملحمة كبيرة استشهد فيها من شباب ورجال قماطة ثلاثمائة وخمسين شهيداً في يوم واحد ومعركة واحدة.

لقد هبّت «قماطة» تدافع عن الوطن بصدور رجالها صفاً واحداً.. وسمع سعدون البطل الفدائي بهذا.. وتأثر غاية التأثر وسارع إلى طوابير الجيش المناضل عند الساعة الرابعة بعد الظهر وقال بعد أن تكلم فيهم وأوضح الموقف:

يا إخواني.. إن إخوانكم أهل «قماطة» تعرضوا لزحف الطليان وحصل عندهم نهار شديد وقد مات ثلاثمائة وخمسون نفراً وثمانون امرأة لبسوا[1] أبيض.. نساوين قماطة ربطوا ولا بدّ أن ندافع مع أهل قماطة ومن أراد أن يمشي معي للمعركة يطلع خطوة لقدام خطوة إلى الأمام..

سنذهب لنصرة أهل قماطة وصدّ قوات الطليان..

وسكت سعدون قليلاً وهو متأثر تعلو وجهه سحنة الغاضب.. وفي لحظة.. تقدم في خطوات ثابتة ثمانمائة رجل من فرسان مصراتة كلٌّ منهم بهذه الخطوة يريد أن يعبّر عن عزمه في الذهاب لصد الزحف وتأديب الباندة[2] التي

(1) لبس المرأة الثياب البيضاء في ليبيا عند فقدها للأقارب هي عادة أندلسية قديمة كما أشار إليها المقري في كتابه «نفح الطيب».

(2) الباندة هي قوات المرتزقة التي جنّدها الطليان وسيّرها لضرب قوات المناضلين من الخلف.

سيّرها الطليان. . خطوة هي ترجمان صادق عن إرادتهم في الذهاب للمعركة. . كانت لحظة رائعة وخطوة جريئة في نظام وثبات لا ضجيج ولا حماس مفتعل. .

أمام سعدون يشعرون بالرهبة والتقدير. .

خطوة إلى الأمام. . الكل أمامه في الطوابير خطاها من تلقاء نفسه وبدافع الغيرة على الوطن.

وفكر سعدون قليلاً وهو يلقي بنظرته إلى هذه الطوابير من الفرسان التي أمامه وقال بالحرف الواحد:

«ما ينفعش هذا. . لأن الطليان يطلعوا علينا أو يهجموا علينا من جهة «قصر أحمد».

لا. . احنا نختاروا مائتين من عندنا ـ مصراتة ـ ونأخذوا من «زليطن» مائتي نفر ونلقطوا من الأهالي أربعمائة وأيضاً بعضاً من ساحل الأحامد ونمشوا للمعركة ونلاقوا قوة الطليان الزاحفة. . والباقي يقعد هنا يحافظ على البلاد ويرد باله من ناحية قصر أحمد».

ويقصد سعدون بعبارة ـ الأهالي ـ أي المتطوعين من الفرسان غير من انخرط في الجيش النظامي. .

وكان قائم مقام الساحل الحاج محمد الديب وكان كفيف البصر شديد العزم وكلفه، سعدون، بتحضير مائة وخمسين رجلاً وفعلاً أعدّهم القائم مقام المجاهد بمؤونتهم وذخيرتهم. .

وكانت خطة سعدون وفكرته في تنظيمه جدّ معقولة لأنه لا يصح أن يترك الشاطىء المهدد من غير قوة نظامية وجنود متحفزيـن. وأيضاً فكرته في خطته جدّ معقولة فإشراك زليطن والساحل ونواحيها خطوة معقولة فقد ساهمت هذه البلدان في كل المعارك الوطنية بروح مؤمنة.

وتجمعت لدى قوة سعدون في هذه النجدة أو هذه الحملة التي بادر بها إلى نواحي «قماطة».

200 جندي من مصراتة ـ عسكر نظامي ـ.
200 جندي من زليطن ـ عسكر نظامي ـ.
400 من الأهالي من سائر البلدان من غير الجيش النظامي.
150 من ساحل الأحامد.

فكان مجموعها 800 فارس كلٌّ بسلاحه وحماسه ورغبته الملحّة في أن يقف مع أهل «قماطة» ويثأر لهم ويفتدي الوطن.

وكان من الذين صحبوا «سعدون» في النجدة التي سار بها إلى قماطة من الضباط النظاميين.

1 ـ محمد عمر الفقي.
2 ـ عبد الله مليطان.
3 ـ محمود ألمانيا.
4 ـ علي بوســـتة.
5 ـ أحمد الشعافي.

●ومحمود ألمانيا ـ كانوا قد أطلقوا عليه «ألمانيا» لأن شعره أصفر وعيونه زرقاء وهو من أبناء مصراتة.



السحليبة وتنظيم الخطة لمعركتها

وصل الخبر إلى «سعدون» وكان لا بدّ أن يذهب المجاهد الفدائي لملاقاة هذه القوة الزاحفة. . ذهب توّاً لمجابهة الأعداء. . كانت تصحبه مجموعة من القوات النظامية والمجاهدين وبضعة من المدافع الرشاشة والمدافع الجبلية. وعندما توجه بهذه القوة صوب الناحية الغربية أوضح لهم هدف الخطة. . وأن الإيطاليين رسموا خطتهم للإطباق على البلدان الواقعة بين طرابلس ومصراتة وأن «قماطة» تعرضت لهجوم وحشي من القوات المرتزقة وأن عليهم أن يلاقوا هذه القوات الزاحفة التي سلبت الأرزاق وحلي النساء وقتلت الأبرياء.

* * *

وكان اللقاء في موضع يسمى «السحليبة» النقازة. . واستطاعت قوة «سعدون» القليلة في عددها وذخيرتها أن تقاوم «الباندة» التي أمدّها الطليان بالذهب والعتاد وفئات من الأحباش والأروام والمرتزقة الذين لا خلاق لهم. . كانت تلك القوات تفوق قوة «سعدون» عدداً وعدّة. لقد كانت خزينة إيطاليا تطمع في إقامة مستعمرة وخلق إمبراطورية فكانت تغدق على قواتها والخونة من أتباعها المال والذهب والسلاح. . وقد أغرت إيطاليا أتباعها ومجنديها بشتى المغريات ومن بينها إباحة البلد لهم عندما تقع في أيديهم.

واستطاعت قوات المناضلين أن تردّ قوات الجيش الطلياني وتلقنه درساً. . درساً لن يضيع صداه في جنبات التاريخ. . درساً لن يذهب بدداً في محراب الحق. . بل سيتبلور ويذوب في أذن الوعي. . وكم كان «سعدون» قوياً في موقفه عندما تقدم الصفوف الأولى وأقحم نفسه في هذا اللقاء. .

* * *

خطة المعركة:

تجمعت القوات النظامية التي سيّرها «سعدون» لمعركة السلحيبة على الشكل الآتي:

1 ـ بلوك بيادة ـ أي مشاة.
2 ـ بلوك رشاش ـ يتكون من أربع مدافع رشاشة.
3 ـ نصف بطارية ثقيلة من مدافع الميدان الكبيرة.
4 ـ مدفعان كبيران ـ يسمى بالتركي: سريع أطش.

* * *

كان قومندان المدفعية «أحمد الشعافي»، وخرجت هذه الكتيبة من مدينة «مصراتة» بعد صلاة المغرب، فقد ضرب «البرازان» صوت النفير والاستعداد والتجمع وأسرع الضباط والجنود على صوت النداء للميدان سريعاً وكانوا لا يعلمون شيئاً عن هذه الدعوة المستعجلة هل هو هجوم أم ذهاب لمعركة أخرى؟

وقال سعدون:

ـ كونوا على استعداد، أما الجنود فلينصرفوا بالسلاح.. ثم دعا الضباط للذهاب معه إلى مقر قيادته، وكان مقر القيادة في «النواهمة» في منزل قرب «قصر أحمد». كان هذا عام 1341 هـ. 1922 م. واجتمع مع الضباط لدراسة خطة الدفاع وإطلاعهم على رغبته في الذهاب لصدّ قوات الأعداء عن ناحية «قماطة» وكان التحمس لهذا اللقاء شديداً.

وكان في المدفعية القومندان العام «عبد الله السركسي» الذي تخرّج من مدارس إسطامبول ونال شهادة «خصوصي مدفعي» وأصدر «سعدون» أمره للضباط.

● المدفعية الأولى والثانية بأن يكونوا على استعداد ـ وكانوا يستعملون البغال في نقل المدافع ـ والمدفعية كانت فيها صنفان:

1 ـ قوة بادنجي. 2 ـ نمرة (2)

وكان من الضباط الذين اختلى بهم «سعدون» في هذا الاجتماع السريع

كما اجتمع مع رؤساء المجاهدين. . ومن بين الضباط:

- إبراهيم شنينة
- محمد معافة
- عثمان القماطي

وهؤلاء من خريجي المدرسة العسكرية بمصراتة وقد أطلعهم «سعدون» على الخطة وبقوا في مصراتة للمحافظة على الخط الدفاعي في الميناء المهدد. وسار معه في الحملة الضباط:

- عبد السلام القماطي
- عبد السلام العبيدي
- أحمد الشعافي
- سعيد ساطي.

إنهم سيخوضون معركة. . لا يدرون هل سيعودون للبلد أم سيذهبون لساحة الخلد. .

هؤلاء الضباط خاضوا مع «سعدون» معركة السلحيبة ـ وهي مكان مرتفع ـ النقازة ـ مكان يقع بين المرقب ومسلاتة. . مكان وممر بين جبلين.

طريق السير:

سار «سعدون» بقواته إلى «السلحيبة» بعد صلاة المغرب. . وكان طريق سير هذه الكتيبة محاذياً للخط الجبلي متجنباً السير في أنحاء الساحل وذلك لأن قوات إيطاليا كانت محتلة «الساحل» و«الخمس» و«المرقب». . سارت القوة المجاهدة في ثبات وحذر.

حتى وصل «سعدون» وجماعته إلى مكان يسمى «وادي القبو» وهذا المكان محاذياً ومقابلاً لموضع «المرقب» قبلي موضع «الحمام» وهناك استراحت قوة (سعدون) قليلاً. .

وبعث (سعدون) الكشاف لأجل استكشاف العدو.

وكان اثنان يمشيان على أرجلهم.

وكان على بعد يسير ثلاثة من الخيالة الفرسان يسمون في الاصطلاح - جندرمة - ولما استكشفوا نيران العدو.. كانت قوة العدو حاطّة رحالها ونازلة بهذا الموضع..

أما الاثنان المكلفان بعملية الاستكشاف فقد مكثا بذلك الموضع في تربص وفي حذر يضبطان تحركات العدو..

أما الثلاثة من الخيالة الفرسان فقد عادوا أدراجهم في الطريق ليعطوا التأكيدات للقائد (سعدون).

وماذا قالوا له؟

لا أحد من المجاهدين يعلم.. فقد كانوا يهمسون مع (سعدون) لا غير..

وسرعان ما نادى سعدون الضابط (محمد الفقي) قائد نوبتجي المدفعية وقال له:

- اجمع الضباط بسرعة.

وأقبل الضباط إليه وأعطاهم الترتيبات والتعليمات اللازمة وكيف ستكون خطة الزحف على قوات العدو.

وأما التعليمات لجنود - الطوبجية - والمترليوز - فقد كانت عبارة الأمر بهذه الصيغة:

- كوّلوا البغال.

أي كمّموا البغال - وتوضيح هذا.. أن هناك سير من الجلد به - توكة - توضع على أنف البغل وفمه بحيث يكمّم فلا يصدر من البغل صوت ولا صهيل ولا حس مسموع.. ويترك له ناحية للتنفس ويطبق فمه.. ونبّه (سعدون) على عدم التدخين.. ولا صوت يسمع ولا نار ترى.. ولا ضجة.

سكون مطبق.. ضبط النفس.. ضبط الحواس.. عدم الكلام..

وكانت حركات المسير والتحرك وفق الإشارات والتعليمات تصدر بالحركات اليدوية.. بالإشارات.

كل خطوة.. كل حركة.. الوقوف.. الجلوس.. الأوضاع المختلفة.. الارتكاز.. الانبطاح.. السير السريع.. السير البطيء.. التوجه إلى هنا.. التوجه إلى هناك.. كل هذا بإشارات مصطلح عليها يعرفها العسكريون والمجاهدون في الميدان..

هو فن مدروس..

وتقدمت قوة (سعدون).

وقبل البدء في العمليات سار اثنان من الخيّالة ومشيا مقداراً من الليل ثم صدرت الإشارة بالوقوف.

فتوقف سير الكتائب وانتظر الضابط الإشارة التالية.. وفي هذه اللحظات وكان «سعدون» واقفاً عند المدفعية وكان يحب المزاح وملاطفة الجند ومباسطتهم وأشار لبعض من الجند أن يلتفوا حوله.. وقال في صوت خافت هذه العبارة..

- انصتوا ما تسمعوش عواء ديب والا ثعلب؟..

وكان الصمت مطبقاً.. صمت صحراء في ليل بارد مظلم..

وما مرّت لحظات على مداعبة «سعدون» حتى سمعوا حسّاً كحس الثعلب.. صدفة كان سماعهم هذا.. وضحك «سعدون» وقال:

- أنا موش قلت لكم حتسمعوا حس ثعلب..

ونادى «سعدون» على المرافق له «أحمد الشويشين» وقال:

- يا أحمد نادي «محمد ونيس».

وكان هذا عسكرياً من «زاوية المحجوب» ومال على أُذنه ووشوش له بكلام لم يعرفه أحد.

والتفت «سعدون» إلى الضباط والجنود الذين خففت عنهم مداعباته وقال لهم:

ـ الساعة هتسمعوا أخيكم «محمد ونيس» يرد على هذا الثعلب..

وذهب الرجل وأصدر حركة من صوته.. وقلد صوت الثعلب وأصدر صوتاً متقطعاً ثلاث مرات.

وبعد قليل كان أحد الفرسان الخيّالة قد استطاع أن يصل في طريق عودته ألى الكتائب مهتدياً على حس هذا الصوت.. وكان قد ضاع وتاه في الطريق المظلم.. وكانت هذه الإشارة علامة سرية له كما رسمها «سعدون» لأنه إذا تاه ويريد أن ينادي على أصحابه.. أيطلق باروداً أو يصيح.. لا.. لا.. إنما يصدر هذا الصوت علامة مصطلح عليها.

* * *

ثم وقف «سعدون» كعادته يبثّ الحماس ويلهب الروح المعنوية في الجنود الذين سيخوضون المعركة بعد قليل.. وبعد رجوع الفارس أخذوا منه المعلومات.

قال «سعدون»:

ـ اجمعوا الضباط وأفراد صف الضباط حولي.

وكان الاجتماع الأول مع الطوبجية وقال لهم:

«إخواني أمامنا قوة من العدو وهي أكبر في العدد والعدّة ودفاعنا عن وطننا وفي سبيل الله والحق.. أما هذه القوة فهي «باندة» مرتزقة بايعين أنفسهم بفلوس فلا ترهبوا كثرتهم.. وأنا أعرف خاصة أن ـ الطوبجية ـ قليلين وقوة العدو لا تقل عن أربع بطاريات كل بطارية بها أربع مدافع ـ أي 16 مدفعاً.. ولكن أنا أريد براعة وشجاعة اللي هي تخليني نفتخر بكم في انتهاء المعركة

فيكون الضرب منكم محكم وطبعاً تكونوا أنتم البادئين بالضرب وإن شاء الله النصر لنا».

* * *

وانصرف «سعدون» بعد أن تكلم مع المدفعية وكان بها حوالي ستين جندياً وكان كل مدفع أثناء عملية الإطلاق عليه خمسة جنود بهذا التوزيع:

1 ـ جندي للنيشان جانب الكرسي الأيمن للمدفع.
2 ـ جندي على المقبض للمدفعية.
3 ـ جندي على مؤخرة المدفع حسب إشارة النيشان.
4 ـ جندي لضبط المسافة التي تستهدفها القذيفة.
5 ـ جندي يكون بجانب صندوق الذخيرة.

وبجانب هؤلاء الخمسة جنود الذين يكونون بقرب المدفع خمسة جنود آخرون احتياطياً.. ربما يصاب أحدهم بطلقة من جانب العدو فسرعان ما يحلّ محلّه جندي آخر.

وانصرف (سعدون) إلى طوابير ـ البيادة ـ المشاة وأعطاهم التعليمات والإرشادات وأشار في كلامه معهم إلى قوة الإيمان والثبات والتربص وعدم القلق والانزعاج.. وقال لهم هذه الكلمات التي لا يزال يتذكرها الذين سمعوها منه في تلك الليلة الصامتة.. المتحفزة المليئة بالأخطار في كل مكان..

قال (سعدون) للجنود[1]:

«كل واحد يفكر في نفسه إن الروح بيد الله.. لا هي بيد (الباندة) ولا الطليان ولا الأحباش».

وساق في حديثه هذا البيت الذي طالما تمثل به:

---

(1) الكلمات التي بين قوسين من خطب وكلمات سعدون حرفياً كما عثرنا عليها وكما أكدها الذين سمعوها منه في المعارك.

من لم يمت بالسيف مات بغيره   تعددت الأسباب والموت واحد

ثم أردف قائلاً:

«إخواني.. لا تهابوا الموت في سبيل الله».

* * *

ثم تقدم أمام القوات المجاهدة هو ورؤساء الضباط والقومندانات الأربعة:

- أحمد الشعافي
- محمد الفقي
- عثمان القماطي
- إبراهيم شنينة

تقدم هؤلاء مع (سعدون) في الصف الأمامي.

وتحركت الإشارة.. وكانت المسافة بين طوابير القوة العامة والمجاهدين وبين هؤلاء الضباط مع قائدهم حوالي نصف كيلومتر.. ثم صدرت الإشارة بالوقوف.. كان ذلك قرب انبثاق الفجر وتهيأ الجميع للاستعداد وخوض المعركة..

ثم أخذوا فصيلتين ـ كل فصيلة مكونة من ثمانية جنود ومعهما ـ أنباشي ـ أي ستة عشر جندياً واثنان من الضباط... وكانت المهمة الملقاة على هؤلاء هي تحديد موقع العدو بالضبط لأن قوة العدو كانت بائتة وقضت تلك الليلة هناك..

ثم صدرت أوامر (سعدون) مرة أخرى بانتشار أفراد ـ البلوك الأول ـ انتشاراً سريعاً وانبطاحاً على الأرض والزحف على البطن.. وكل جندي كان يضع بندقيته على ذراعيه المثنيتين ثم يواصل الزحف في صمت وبطء وهدوء تام وحذر رغم ما في الأرض من حصباء وأشواك أو هوام.. لا يهم أما المدافع الرشاشات فواحدة كانت في الجناح الشمالي والثانية ربطوا بها طريق العدو في ذلك المسلك الذي يؤدي إلى (مسلاتة) والمدفع الثالث الرشاش ربطوا به

الطريق من خلف العدو وكان ذلك ضمن التخطيط الاحتياطي إذ لو تراجع العدو متقهقراً إلى الخلف ليحاول الذهاب إلى مدينة الخمس عند ذاك تصاوله هذه القوة المرابطة على هذا الطريق.

* * *

وبقيت قوات (سعدون) على هذه الحالة وبهذا التوزيع المخطط في حالة تربص وتحفز.. لحظات رهيبة.. مشحونة بالعزيمة وروح التضحية..

وتصرم الليل ويكاد أن ينتشر الضوء وكان من ضمن التخطيطات والأوامر في هذا الهجوم. أن هناك إشارة ضوئية وصوت ينطلق من (غدارة) كانت تصدر منها إشارة نارية يتصاعد لهبها في الجو وكان يحملها (سعدون).

وعند انطلاقها تبدأ لحظة الهجوم المباغت على معسكر العدو الذي راح جنوده في سبات عميق. كانت الغدارة في يد القائد وهي سترسل ضوءاً مشاراً إليه ظل الجنود والضباط والمجاهدون على هذه الحالة.. كلهم مرهف سمعه.. ينتظرون انطلاق هذه الإشارة.

* * *

كان الطوبجية قد استطاعوا أن يستكشفوا الدروب التي كانت تحمل ذخيرة الأعداء ومؤونتهم لانتقالهم.. وظهر هذا بآلة مكبرة خاصة بالاستكشاف..

وكانت المدفعية قد تركزت في موضع بحيث تصوّب وتضرب قذائفها على بعد 1/2 1 كيلومتر ونصف.

وكانت المسافة التي بين المشاة حاملي البنادق وقوة العدو قد أصبحت جد يسيرة...

150 مائة وخمسون ياردة فقط حتى أن الاتجاه كان عند القائد (سعدون) هو استعمال السلاح الأبيض غير أنه عدل عن هذه الخطة عندما تأكد له أن العدو يتفوق بكثرة ظاهرة.

واستعمال السلاح الأبيض في الهجوم المباغت في مثل هذا المعسكر يكلف ـ بلا شك ـ أرواحاً كثيرة.. فليكن الضرب بالمدافع أولاً..

كانت قوة العدو فوق العشرة آلاف ويزيد.. وبينما كانت قوة المجاهدين في تحركات وتحفز وخطوات مركزة كتوثب القط بالفأر عندما يحاوره على غفلة.

وكلهم أمل في الانتصار لأن الروح المعنوية مرتفعة ولأن الزحف كان على حين غرة.. ولأن «سعدون» كان قائداً لا يعرف الخوف ومشتقاته..

* * *

كان هناك أحد المواطنين يرافق الجيش من الدراويش إسمه «أحمد هيبلو» من الفواتير.

وبينما الإشارة المتفق عليها تنطلق في الفضاء من يد «سعدون» كبّر هذا الدرويش بصوت عالٍ وبصورة حماسية وانطلقت المدفعية والبنادق والمترليوزات من طرف القوات المناضلة كلها دفعة واحدة.. وكاد الضرب يجعل العدو حصيداً وغدت رؤوسهم المتدحرجة في الأرض كهشيم تذروه الرياح.. فقد كان العدو في غفلة غافلة.. وجاءه الضرب والانقضاض بصورة مفاجأة واختلط دم الأعداء بدم البغال وامتزج بالأرض وماج في ذعر أولئك المرتزقة الجبناء من أفراد (الباندة) والضباط الذين قذف بهم الأسطول أو حملتهم الطائرات.. وكانت ضربة مفاجئة..

وثلاث مرات حاولت قوات العدو صد هجوم (سعدون) وقوته ولكنهم فشلوا.. إذ كان الضرب متواصلاً وبصورة محكمة وتكاثرت طلقات مدافع الأعداء على صفوف المجاهدين بقوة كبيرة.. فكانت مدافع الأعداء (16) تقابلها مدافع قليلة من قوة المجاهدين.

ورأى سعدون سحب المدافع إلى موقع آخر أبعد قليلاً فأصبح الضرب من طرف مدافع المجاهدين على بعد خمسة كيلومتر وحاولت قوات العدو أن تتراجع أرادت أن تنسحب وتذهب عن طريق الخمس.. وهنا كانت المفاجأة التي بعثت الذعر في نفوسهم فقد أصلتهم نيرانها القوة التي كانت ترابط هناك

والتي وضعت لهم كميناً وكبدتهم خسائر كبيرة. .

وما انتصف النهار حتى كان النصر حليف سعدون وقواته وغنموا ذخائر وأسلاب. .

وبلغ عدد الشهداء في معركة (السلحيبة) والنقازة. .

- 30 شهيداً.
- 40 جريحاً.

هذا في صفوف العسكر النظامي وما يقرب من هذا العدد في صفوف المجاهدين الفرسان.

* * *

من شهداء معركة ـ السلحيبة ـ النقازة:

مفتاح التاورغي	18 عاماً	من تاورغاء
محمد مفتاح التاورغي	25 عاماً	من تاورغاء
بوعجيلة محمد	30 عاماً	من العلاونة ـ النواحي الأربعة
حمد محمد	20 عاماً	الغيران ـ مصراتة
مصطفى المقوبي	25 عاماً	الغيران ـ مصراتة
علي الفكرون	25 عاماً	الغيران ـ مصراتة
محمد الفكرون ـ أخوه	18 عاماً	الغيران ـ مصراتة
شعبان الفكرون	35 عاماً	من قبيلة الرملة
علي ساطي	21 عاماً	كان شاويشاً ـ من زاوية المحجوب
عمر محمود الزواوي		كان شاويشاً ـ من زاوية المحجوب
عمر بن شتيوي	22 عاماً	كان شاويشاً ـ من زاوية المحجوب
محمد المعداني	24 عاماً	معدان
سالم عيسى الشوشان	28 عاماً	زاوية المحجوب
سالم السيوي	29 عاماً	سواوة

● ويلاحظ أنه من «سواوة» معدان وليس نسبة إلى سيوة الواحة المعروفة.

وكان في أول معركة السلحيبة (17) شهيداً وغنموا في أول المعركة (65) بندقية استولى عليها المجاهدون وأيضاً غنموا ما حمولته ثلاث من الإبـل «فوشيك» رصاص.

وهناك ثمانية شهداء من «دكيران».

معركة الحمّام

وكانت هناك جبهة منظمة من القوات العسكرية وكتائب المجاهدين في منطقة «الحمام» وهي مواجهة لناحية استحكام «المرقب» وفي تلك الآونة كان «المرقب» استحكاماً بيد الطليان وأما «وادي لبدة» فكانت تعسكر فيه قوة من عساكر المناضلين.. وكانت «لبدة»[1] تعتبر في التنظيم العسكري للمجاهدين بمثابة الخط الأمامي لمراقبة تحركات العدو من ناحية «المرقب» ومدينة «الخمس» الساحلية.

وبهذه النقطة في (وادي لبدة) ذات الربوات والمنخفضات الأثرية كان هناك للمجاهدين خط تليفوني يتصل بالنقطة الرئيسية لقوات المناضلين التي تمركزت في منطقة (رؤوس الحمام) حتى إذا ما تحركت قوات العدو وتأكدت قوات المجاهدين أن هناك هجمات، تسارع بالإشارة التليفونية إلى خط (الحمّام).

* * *

وكانت قوة «الحمّام» بين عسكر نظامي ومجاهدين حوالي (1500) ألف وخمسمائة، وكانت الأغلبية من طوابير المجاهدين. وكان من بين الضباط هناك:

---

(1) من المناضلين الأحرار الذين أدوا دوراً في ميدان «لبدة» المجاهد عمر النعاس من وجهاء مدينة الخمس.

1 ـ محمد الفقي قومندان المنطقة من مصراتة.
2 ـ شكري أفندي من أولاد شكر الجحوات.
3 ـ عبد السلام أفندي من ملايطة مصراتة.
4 ـ المهدي بن حميدة من ملايطة مصراتة.

وكان بقوة «الحمام» جهاز تلفوني والإشارات السلكية مخصصة لإعطاء واستلام الإشارات وكلمة السر يختص بها قلم الإشارات.

وبعد انتهاء معركة «السلحيبة» النقازة وانتصار «سعدون» الانتصار الباهر، دحرت قوات إيطاليا، وتقهقرت إلى «الخمس».

عاد «سعدون» بعد انتصاره يشرف على خطوط المعسكر في هذه الجبهة؛ عاد إلى «زليطن» وتمركز هناك. . . إنه يريد أن تزداد القوة العسكرية. . إن العدو يزداد كل يوم قوة وعتاداً فلا بد من مواجهة الموقف بقوات كبيرة. . والشعب يهرع برجاله وشبابه إلى التطوع والانخراط في صفوف القوات المدافعة.

أخذ سعدون يفكر ويطول به التفكير. لا بد من زيادة صفوف المتطوعين كتائب الجند. . وطلب سعدون من قائمقام ـ زليطن ـ عبد السلام التومي ـ أن يهيىء فزعة[1] عسكر من الشباب وقرر أن تكون هذه النجدة من (500) شاب من المجندين وتجند هذا العدد من زليطن.

وكان سعدون بعد معركة (السلحيبة ـ النقازة) وانتصاره أراد أن يقوي السلك العسكري النظامي من الشباب فكان أن طلب من كل بلد تجنيد عدد وافر من الشباب وأرسل تعليماته بهذا إلى أنحاء (زليطن) ـ الساحل ـ مصراتة ـ تاورغاء إلخ.

* * *

---

(1) الفزعة في لهجة ليبيا هي النجدة.

تدفق قوات العدو:

بعد معركة (السلحيبة) النقازة ـ التي ضرب بها سعدون جحافل المرتزقة والطليان. . أخذت إيطاليا تعد العدة ـ فقد كانت الضربة قوية والهزيمة شديدة الوقع والألم في نفوسهم. . وأخذ الجنرال (ماتيزي) وأعوانه يرسمون خطط الانقضاض على معسكرات المجاهدين ومطاردتهم. .

وكان تحمس الجنرال الإيطالي وأعوانه بصورة قوية. .
فنظم خروج القوة من ناحية طرابلس.

وكانت ثلاث فرق أو ثلاث قوات أغلبها من الأحباش (وباندة) مرتزقة.

1 ـ الأولى من منطقة «عين زارة» عسكرت واتجهت إلى خط الساحل.
2 ـ الثانية من «قرجي» واتجاهها صوب «القرة بوللي».
3 ـ الثالثة من «سواني التوغار» قرب قرجي واتجهت إلى طريق ترهونة «الداوون» وكانت هذه «الباندة» والمرتزقة بقيادة «غرسياني».

* * *

وكان للمجاهدين قوة مرابطة في مكان يسمى:

● بوعرقوب.
وهو مكان يقع شرقي العزيزية ـ على طريق وادي المجينين.

● وهناك قوة ثانية للمجاهدين الفرسان في وادي «غان» مرابطة في طريق غريان.

وكانت غريان قد سقطت في أيدي القوات الإيطالية بواسطة ضرب الحركة الوطنية من الخلف.

وكان الموقف السياسي قد تأزم بين بعض الساسة مما أدى إلى سقوط «غريان».

وكان سقوط هذه المنطقة ضربة قوية هزت صفوف المقاومة العسكرية المناضلة.

ورغم هذا.. كانت القوتان المجاهدتان في ـ بوعرقوب ـ و ـ غان ـ.

وكان الهجوم على منطقة ـ بوعرقوب ـ وقد تحركت إليه قوات العدو من مكان يسمى:

- بيرعباظة ـ ومكان يسمى.
- سيدي السايح ـ بحري بوعرقوب.

وتحركت قوات إيطاليا من «غريان» لتهاجم ظهر المجاهدين في نقطة «بوعرقوب».

وكان الفرسان المجاهدون الذين رابطوا في طريق «غريان» بقيادة المناضل «عون سوف» في وادي «غان».

وكانت قوة المجاهدين في «بوعرقوب» تلك القوة من العسكر النظامي بقيادة وإشراف الضابط «عبدالله تمسكت»[1] وكان معه ضباط من الضفة الشرقية من الوطن الليبي.. ضباط من برقة..

1 ـ عبدالله المسماري.
2 ـ أبو صلاح الحسوني.
3 ـ عبد الرزاق العبعوب.
4 ـ مؤمن ولاع.
5 ـ عبد المولى.

وكان هؤلاء في الجيش النظامي مع (عبدالله تمسكت) وكانوا في ـ المشاة ـ وكان هناك أيضاً في القوة النظامية:

الضابط ـ أحمد بليحة ـ ضابط مترليوز من المدفعية الخفيفة ـ من طرابلس.

---

(1) عبدالله تمسكت من الضباط الأتراك الذين ساهموا في الجهاد الوطني بجرأة وإخلاص وقد أثنى عليه جميع المجاهدين الذين عرفوه.

الضابط ـ مفتاح أبو ستة ـ من المدفعية الثقيلة ـ من النواحي الأربعة.
الضابط ـ أحمد الدرناوي المصراتي من المدفعية الصغيرة ـ كانت تسمى (كيشوك طب) أي نصف مدفع.
الضابط ـ أحمد الزنتاني ـ ضابط رشاش ـ من الزنتان.

الضابط ملازم أول «عبد الرحمن البلعزي» ـ وقد غدا شهيداً في معركة «المشرك» فيما بعد.

وكان القومندان العام هو «عبدالله تمسكت».
وباش شاويش مدفعية «كيشوك طب» هو ـ محمد عطية[1] الورشفاني..
هذا من طرف القوات العسكرية النظامية.

وأما رؤساء المجاهدين في الجبهات الثلاث:
1 ـ بوعرقوب.
2 ـ عباظة.
3 ـ سيدي السايح.

فالمجاهدون في نقطة «أبي عرقوب» كان رئيسهم المجاهد:

● الصويعي الخيتوني ـ وكان عمره آنذاك حوالي الخمسين عاماً وهو من زعماء «النواحي الأربعة».

أما رئيس الميدان لهذه النقطة فهو المجاهد:
● مسعود الشويخ ـ وقد استشهد في «أبي عرقوب».

وخلف رئاسته في الميدان المجاهد:
● عبد السلام العربي ـ بعد أن استشهد المجاهد ـ مسعود الشويخ.

* * *

---

(1) محمد عطية الورشفاني روى لنا كثيراً من ذكريات المعارك وقد جاهد إلى آخر موقعة وهاجر إلى مصر ثم تطوع في حرب فلسطين عام ١٩٤٨ وعاد أخيراً إلى أرض الوطن.

أما نقطة «عباظة» و «السايح» فكانتا تحت إشراف المجاهد:

● المبروك المنتصر الحمادي - من ترهونة.

وكانت قوات العدو أخذت في تنظيم حملة شديدة وقوات ساحقة في آن واحد متوجهة إلى هذه المراكز والنقاط التي عسكر بها المجاهدون.. قاصدة:

1 - أبو عرقوب.
2 - عباظة.
3 - السايح.
4 - غان.

وكان هجوماً عاماً ساحقاً من طرف «غرسياني» وأتباعه على منطقة «الداوون» و «قماطة» و «مسلاتة» ونشبت عمليات المعارك في «أبي عرقوب» و «عباظة» و «السايح»..

واستمرت المعارك اللاهبة من انبثاق الفجر حتى خيم الليل بظلماته.. ولم يستطع العدو رغم ذخائره وجنوده أن يتقدم شبراً واحداً بل استطاعت قوات الفرسان وكتائب المجاهدين أن تطوّق قوات الأعداء الزاحفة تطويقاً تاماً..

وكانت قوات المناضلين فرحة هذه الليلة بالانتصار رغم الآلام والجوع والتعب..

فقد مسحت نشوة الانتصار المتاعب وأنستهم الآلام.. وكانوا يقولون:

● عند الفجر القادم.. وفي مطلع الصباح الآتي سنسحق هذه القوة الإيطالية.

ولكن.. كان في الأفق أشياء.

هناك مفاجآت قلبت آمالهم إلى آلام.. أنباء جديدة.. وفي كل يوم يتلقى المجاهدون والفرسان.. أنباء جديدة..

جديد يفرح.. وجديد يؤلم..

ومع هذا ففي سبيل الله والوطن نضالهم وثبات أقدامهم.

● **أنباء ورسائل:**

أنباء جديدة.. ورسائل يحملها البريد المستعجل.

جاء فارس يحمل رسالة.. بل في يده رسالتان.

الإشارة الأولى من «عون سوف» من مركز قيادته في نقطة «غان» بطريق غريان يذكر فيها أن قوات الأعداء تفوّقت عليهم والآن تنقصهم الذخيرة والطعام..

فإذا استطعتم أن تمدونا بفائض يمكننا الصمود.

فقد كانت قوة العدو زهاء ستين ألف من بينهم المرتزقة والباندة.

وكانت إشارة المجاهد «عون سوف» عن طريق ـ البوسطة ـ التي حملها شخص يسمى «بلاعو» وهو من مهاجري «ورغمّة».

وكانت «ورغمّة» تعمل في قيادة «عون سوف».

وسلم (بلاعو) الرسالة.

سلمها للمجاهد (فرحات الزاوي) الرجل المثقف والسياسي اللبق الذي عمل بإخلاص في الحركات الوطنية وكان في شبابه متنقلاً بين باريس واسطامبول وطرابلس وكان عضواً بمجلس (المبعوثان).

وكان (فرحات الزاوي) موجوداً مع المجاهدين بقيادة (الصويعي الخيتوني).

فبينما هم يطالعون الرسالة.. ويتدبرون أمرها.. ويتدارسون الموقف المتأزم من نقصان الذخيرة.. طالما هدد المجاهدين ونغص عليهم نقصان الذخيرة. وليست لهم مصانع في البلاد تنتج الذخيرة.. ولكن ما هو الموقف.

وفي هذه اللحظات جاءت إشارة أخرى.

فارس ينطلق برسالة.

وفضوا الرسالة وقرأوا السطور بسرعة.

كلمات موجزة بخط سريع.

لكن من ورائها أنباء تهز صفوف المناضلين.

إن المجاهد «أحمد المريّض» من جهة «البويرات» ترهونة.. يخبر في رسالته بما حدث.

إن «البويرات» من المراكز الرئيسية لقيادة المجاهدين.

وكانت نقطة اتصالية تربط ما بين خط المجاهدين في منطقة «أبي عرقوب» وبين خط لواء «الخمس» الشرقي الذي كان تحت قيادة «سعدون».

ويقول «أحمد المريّض» في رسالته:

- إن العدو استولى على منطقة «الداوون» وهو الآن زاحف زحفاً شديداً.. وما عادت تفيد إلا عمليات الإنسحاب.

* * *

هذا بينما الخط الغربي للمجاهدين المكوّن من:

المحاميد - الصيعان - النواحي الأربعة - العزيزية - والمهاجرين من قبيلة «ورغمة» في حدود تونس..

كل هؤلاء هاجروا بعائلاتهم.

لقد صدر الأمر للعائلات بالرحيل.. أن تذهب متوجهة صوب الشرق.

ولا يستقروا إلاّ في وديان - مصراتة - عند حاميات قوات «سعدون».

فما زالت مصراتة ونواحيها لم تسقط بعد.

وأيضاً نقطة «الساحل» والحمّام.

* * *

وسحبت قوات المجاهدين من النقط المذكورة تحت ستار الليل وأخلت «بوعرقوب» و«عباظة» و«السايح» و«غان».

وكان انسحابهم بعد أن عملوا تحركات ومناوشات حتى يشغلوا قوات العدو أثناء انسحاب العائلات.

فالمحاربون أمام العدو مرابطين يشغلونهم بمناوشات في النهار.. بينما

عمليات ترحيل العائلات تستمر في الليل.

وتمت هذه العملية في ثلاثة أيام.

* * *

وتجمعت هذه القوات الآتية من النقاط الغربية:

بوعرقوب وعباظة والسايح وغان.

ودخلت بعد ثلاثة أيام إلى نقطة تسمى:

● القطارة ـ أمام «مسلاتة».

وفي ثالث يوم من الانسحاب وعملية التجمع.

وقبيل المغرب بنصف ساعة.

وصلت تعليمات «سعدون».

إن عائلات المجاهدين المنسحبين عليها أن تستمر في عمليات الرحيل حتى تستقر في وديان «مصراتة» أمام «تاورغاء» لأن هناك معاطن للماء ومراع للإبل.. وزرع لأهل «مصراتة».

وقال «سعدون»:

ـ كل زرع أهل «مصراتة» فهو لكم.

وأما القوة التي كان يرأسها «عبدالله تمسكت» التي وصلت إلى «القطّارة» والتي كانت في «أبي عرقوب».

فإنها استراحت قليلاً.. وأخذت شيئاً من الذخيرة والمؤونة.. وأصدر «سعدون» أمره بأن يتقدم «عبدالله تمسكت» بقوته إلى جهة «الحمّام». ومعه قوة من «الجندرمة» وكانوا يسمون «سواري» وهؤلاء من «مصراتة» لأجل خبرة الأرض والمسالك بها.

وما أن أصبح الصباح التالي حتى كان «عبدالله تمسكت» بقوته في منطقة «الحمام» حسبما رأى «سعدون».

وكانت هذه القوة مع «تمسكت» تقدر بحوالي ثمانمائة مجند.. هي قوة

عسكرية وكان من ضمن ضباطها:

أحمد بليحة «الخيتوني»، «أحمد الزنتاني»، «أحمد الدرناوي المصراتي»، «أحمد الشريف» من شرفة بن غشير. . وغيرهم.

وقد تم اجتماع «عبدالله تمسكت» مع «سعدون» في منطقة (القطّارة) ثم توجه إلى منطقة (الحمام).

وقد ظلت القوة التي مع تمسكت في منطقة (الحمام) حوالي عشرة أيام.

* * *

اشتباك والتحام:

وعلى حين فجأة.

طلع العدو بهجوم قوي من جهة (الخمس) ومن جهة (مسلاتة).

واشتبكت قوات المجاهدين والجيش مع الأعداء في معركة لاهبة.

واستمرت أربعة أيام متوالية. . ليل نهار.

يقود المعركة - عبدالله تمسكت - ورجاله والفرسان المجاهدون من أبناء الساحل ومصراتة وزليطن وغيرها.

وكان الاتصال مستمراً بين (سعدون) و(عبدالله تمسكت) والتعاون وثيقاً بين الضابط والقائد العام الشاب الجريء. . وطالما حدثت خلافات بين ضباط الأتراك والمجاهدين لأسباب قد تكون تافهة شكلية أو أصيلة جذرية ولكن بين هذين لم يحدث خلاف أو سوء تفاهم. . بل تماسك وتعاون في الميدان إلى أقصى حدود التعاون رغم تدهور الموقف السياسي بين بعض الساسة والزعماء.

وعلى ضوء الأحداث والتقديرات رأى (سعدون) أن المقاومة في منطقة (الساحل) أصبحت غير مجدية وغير ملائمة.

كان هذا بعد دراسة الموقف المتأزم.

وفي اليوم الرابع للمعركة. . معركة (الحمام).

وفي وقت العصر. . وصلت نجدة من سعدون من منطقة (القطّارة) إلى جبهة (الحمّام).

فوصلت النقطة. . نقطة المعركة عند الغروب.

وهكذا استمرت قوة «تمسكت» أربعة أيام قبل وصول نجدة «سعدون».

وكان العدو قد تمركز في هذه المنطقة وجاءته إمدادات قوية.

وكان أن سقطت نقطة «رأس كحلة». . و «الحمام». . و «لبدة». . بعد معارك عنيفة.

* * *

وفي هذه الليلة أمر «سعدون» بسحب أسلاك التلفون من الخطوط والنقاط الموجودة في ميدان «الحمام» و «لبدة».

وهذه الخطوط التلفونية كانت بخيوط دقيقة تلف على بكرات كبيرة من الخشب، بسرعة تفك وبسرعة تركب. . وكانت تمتد تحت الأرض لا على أعمدة.

وهذه الخطوط السلكية جاءت من ألمانيا في الغواصات.

* * *

واتصل «سعدون» بمدينة «مصراتة» بالتلفون الرئيسي مع القومندان «علي إبراهيم القن» في مركزه «بقصر أحمد» وكان الذي يشغل منصب وكيل «سعدون» هو الحاج «علي المنقوش».

وأمر سعدون بسحب القوات العسكرية المرابطة بقصر أحمد وأن تتجمع العساكر في مركز عبد الرؤوف.

* * *

وانسحبت قوات «المجاهدين» من نقطة «الحمام» وما حواليها.

بعد أن كبدت قوات العدو خسائر فادحة.

وشتان بين قتال طائفة من المرتزقة المأجورين، وبين قتال الكتائب المنظمة من المجاهدين.

المجاهدون وأفراد القوات الوطنية يقاتلون دفاعاً عن فكرة، وذوداً عن الوطن والحق..

وبدافع من الواجب والعقيدة..

وجحافل المرتزقة.. إنما دفعهم طمع واستبد بهم جبن وخيانة..

ورغم الأعاصير وتأزم الموقف من ناحية المؤونة والذخيرة، إلا أن «سعدون» ما زال قوي الروح.. ثابت العزم.. مصراً على مواصلة القتال.. سواء في الشطوط والوديان، أم في أي مكان يصلح لعرقلة العدو وتكبيده الخسائر..

أي شبر يتملكه الأعداء لا بد أن يدفعوا ثمن تقدمهم من الأرواح والعتاد.

هكذا كانت تعليمات «سعدون» في خطبه وكلماته ورسائله.. في آرائه وخططه التي يسديها بصراحة وحماس..

تعليماته عندما يجتمع مع رؤساء المجاهدين والضباط والجنود أن لا بد من الاستمرار في المقاومة مهما كانت النتائج ولو سقطت المدن مدينة إثر مدينة..

ولو استسلم بعض من الناس.. أو لو انحرف وبدل بعض من الناس..

لا بد من القتال والنضال - ولو بقي وحده في الميدان..

ولكن لم يكن «سعدون» وحده في الميدان البطولي.

كانت معه.. وبجانبه فئات أخلصت جهدها.. وسارت إلى الساحة رغم الهزيمة في بعض المعارك فإنها أصرت على مواصلة النضال..

والتقت إرادة «سعدون» القائد الجسور مع إرادة هؤلاء الشيوخ وذلك

الشباب. . لا بد من استمرار المقاومة. .

وإن كان العدو يتغلب بالسلاح والذخيرة. .

وتسيير «الباندة» وشراء ضعاف النفوس. .

ولو. . ولو. . ولو. .

لن يترك هؤلاء المؤمنون بلادهم لقمة سائغة أو هدية في تاج الامبراطورية الإيطالية.

ولو أبرق «غرزياني» و«مازيتي» إلى روما يبشرانها بالانتصار.

لن يكون زحفهم إلا على الصدور والجماجم. .

* * *

عين كعام:

وانسحب «سعدون» ومن معه من خط «الحمام».

وتمركز في ـ وادي عين كعام.

وكانت حول هذه العين سدر وأشجار ووديان وعرة يمكن المقاومة فيها.

ورابطت قوته وجنوده في هذه النقطة.

كان معه حوالي ألف مقاتل بالسلاح الخفيف. .

أما الأشياء الثقيلة والمدفعية وغيرها فإن خطته كانت أن تستمر في عمليات الانسحاب وأمرها «سعدون» أن تنتظره في «وادي ماجر». . في أرض العمايم. .

وتربصه في «عين كعام» بالسلاح الخفيف كان مقصده أن ينصب كميناً يعرقل العدو عن التحرك نحو «زليطن». .

وقال «سعدون» لجنوده الفدائيين الذين رابطوا معه في «عين كعام». .

● «أنتم يا إخواني بالأمس دفعتم ثمن ـ الساحل ـ والحمام ـ وباكر إن شاء الله تقدموا ثمن ـ زليطن ـ حتى العدو لا يستولي على شبر من أرضنا حتى يدفع ثمنه من الخسائر والأرواح».

وباكراً.. وعند الفجر.. صدفة كان يوماً.. باللهجة الدارجة.. شبورة أو عورة.

أي ضباب متكاثف في الصباح يغطي الأفق..

وجاءت قوات العدو وجنوده من «البادنة» في غناء وهرج.. وضجيج متعالٍ..

كان الجنود الفدائيون والمجاهدون يتربصون في الوادي في صمت مطبق.. وتحفز الشجاع وحذر المناضل.. وفق الخطة المحكمة..

وفي لحظات - على حين غفلة.. من حيث لا يشعر ولا يدري هؤلاء الزاحفون من قوات الاستعمار.. انقضت عليهم قوات وفرسان «سعدون».

وكانت موجة من الفزع والهلع في صفوف القوات الزاحفة فعند اجتيازهم لوادي كعام قامت نيران الفرسان وانقض عليهم الكمين..

وخسرت قوات العدو خسائر فادحة في الأرواح والعتاد واستمرت عمليات إطلاق النار؛ ثم انقلبت إلى عمليات السلاح الأبيض.

وكان «سعدون» بنفسه في معركة «عين كعام» يستعمل السلاح الأبيض.

واستعمل هذه الأسلحة - الغدارة - البندقية.. ثم أخيراً عند الالتحام سل سيفه وأهوى به على أعناق أعدائه في جرأة وحماس..

واستمرت الموقعة من الفجر حتى وقت الضحى عند الساعة العاشرة..

* * *

وكان أن تراجعت قوات العدو عن طريق الساحل.

وأيضاً في هذه المعركة «بعين كعام» اضطرت قوات إيطاليا إلى الاستنجاد بالبوارج الحربية التي كانت في الساحل.. وأخذت ترسل قذائفها من ناحية البحر.

* * *

وأمر «سعدون» بعد الالتحام في «وادي كعام» قرب العين أن تنسحب قوات المجاهدين والفدائيين إلى «وادي ماجر» وكان أن وصلت القوات المناضلة إلى «وادي ماجر» والتقت القوات النظامية العسكرية مع الفرسان الـذين سبقوهم إلى هذا المكان مع قوات المدفعية الثقيلة وبقوا طوال النهار عند ـ وادي ماجر ـ.

وفي الليل بعد صلاة العشاء سحبت القوات المجاهدة. .

وعند الفجر التقت القوات التي جاءت من جهة الخط الغربي ـ ماجر ـ والقوات التي كانت مرابطة في «قصر أحمد».

وكان لقاء هذه القطاعات والكتائب في نقطة معسكر «عبد الرؤوف» وهي على بعد خمسة وعشرين كيلو متراً من مدينة «مصراتة». .

* * *

حول الموقف:

بعد الصراع المرير الذي قاده «سعدون» وبذل فيه الأعداء كل جهدهم في معارك «قصر أحمد» و «السلحيبة» و «عين كعام» و «الحمام». .

كانت الذخيرة التي عند جيش «سعدون» بدأت في النفاد.

والتي كانت متبقية مما كانت ترسله الغواصات. . نفذت. . أو أوشكت.

فمن ناحية الإمداد العسكري كان من السهل على قوات العدو أن تجلب الذخيرة والمدد عندما تنفد ذخيرتهم. .

ولكن «قوات سعدون» كان من الصعب بمكان أن تأتي بالذخيرة عندما تنفد ذخيرتهم. .

وهنا. . موقف من مواقف البطولة. .

وهنا. . مثار من مثارات الإعجاب والإكبار. .

جرأة من هؤلاء المقاومين وهم يعلمون في ميدان التوازن ـ من ناحية الذخيرة ـ أن الأعداء يرجحونهم ذخيرة وعتاداً ومع ذلك لم يتأخروا عن خوض

المعارك ومواصلة القتال وهم يدفعون ضريبة الواجب في الجبال والوديان والصحارى.. وهم يخرجون ليسهموا في الدفاع عن «قماطة» والثأر لضحايا «قماطة» الأبرياء.

ثم هم يخوضون معركة «السلحيبة».. والحمام ولبدة والمرقب.

ولقد كان في الحسبان قضية الذخيرة..

وكان فوق هذا الحسبان أنهم يعلمون أن المدد من الذخيرة قد غدا من الصعب الحصول عليها من جديد..

فلم ينكصوا على أعقابهم ولم يتهربوا من مواجهة الأعداء في الشاطىء.

بل هاهو «سعدون» يسير لملاقاة الأعداء في الطريق عندما أخذ يزحف من الخلف..

بل كان من رائعات البطولة أن أخذ المناضلون يستولون على ذخائر العدو ثم يوجهون إليه الضربات تلو الضربات بالأسلحة التي انتزعوها من يد الأعداء انتزاعاً..

* * *

وحقيقة عندما نتأمل في هذه الحركة.

وندرس هذه المقاومة العسكرية وظروفها ندرك أن حركات «سعدون» وانتفاضاته في الميدان العسكري ليست من نوع حرب العصابات التي شعارها:

- اضرب.. واختفِ..

بل كانت رغم اتساع الرقعة وأعاصير الأزمات.. من نوع.

- حرب المواجهة..
- حرب الميدان..

والصراع بالمدفع.. والقتال بالبندقية.. والالتحام في خط نظامي حتى تصل ذروة القتال بالسيف والخنجر.. بالسلاح الأبيض..

وإن قائداً يقف في شاطىء بلاده أمام الأسطول وطوابير الغزاة ليس حربه من نوع حرب العصابات..

بل من نوع الخط الحربي والخطط النفسية المرسومة في حرب المواجهة..
هذه حقيقة شهدت بها حتى بلاغات الأعداء وتقاريرهم..

ومذكرات ـ الجنرالات ـ عندما أخذوا يسطرون مذكراتهم ويطبعون ذكرياتهم..
أمثال ـ غرزياني ـ وفولبي ـ و ـ بادليو ـ و ـ ماتيزي ـ..
إن حرب «سعدون» حرب ميدان..
يضرب ويثبت.. ويهجم ويقاوم..
وينسحب ويعود كرة أخرى إلى طريقة الإطباق والالتفاف..
حرب مواجهة..
رفض فيها الهدنة والمساومة..

* * *

وهل يعلم شباب هذا الجيل.. جيل الأقمار والصواريخ.. أن أول طائرات استعملت في الحرب.. كانت هنا.. في ليبيا.. أول طائرة أوروبية حلقت في السماء لتقذف القنابل.. كانت تلك التي استعملها الطليان ضد المجاهدين..

فأولئك المجاهدون ـ في الواقع ـ كانوا معجزة..

معجزة ـ بأسلوب الحقيقة ـ لا بأسلوب العاطفة والخيال.. فنضال «سعدون» في الميدان كان من نوع الحرب الدفاعية المنظمة في تخطيطها.. إنها من نوع الخطط العسكرية وما يسمى «تكتيك» وليس مجرد محاولات وانتفاضات سريعة..

وكان «سعدون» يتفقد مع كبار الضباط ورؤساء المجاهدين الكتائب والفرق التي تعمل معه.

يعقد المجلس للتشاور ودراسة الخطة تلو الخطة أيام خالدة...
خلدها أولئك الرجال بالموقف البطولي..

* * *

هيئة رؤساء المجاهدين:

كان «سعدون» يجتمع مع هيئة رؤساء المجاهدين في أيام معارك «قصر أحمد» ويستشيرهم ويتذاكر معهم في الشؤون الحربية وما يلزم من تنظيم صفوف المجاهدين..

كما كان يعقد الجلسات للتشاور والدراسة مع الضباط النظاميين..

* * *

كان من هؤلاء الشيوخ الذين أسهموا بالفروسية وإبداء الفكرة.

- علي الجمل.
- علي الزعيليك.
- يوسف شنب السركسي.
- محمد التريكي.
- علي المستيري.
- علي أسطا.
- محمد الرعيض.
- علي بلعم.
- علي بن حمد الضراط.
- خليل بن مليطان.. وغيرهم..

* * *

وكان هؤلاء الشيوخ لا يقل سن الواحد منهم عن الأربعين.
بل كان منهم من فوق الستين في حدود السبعين..

وكان ذلك المجلس بمثابة هيئة استشارية يدور فيها النقاش في جو يسوده الحماس والإخلاص والرغبة في مواصلة النضال..

كانوا يجتمعون في مركز قيادة سعدون في «الملايطة» و«النواهمة» في منزل الحاج «عبدالله مليطان». .

وبعد أن انتقل «سعدون» إلى «النواهمة» اتخذ مركزه في منزل الحاج «محمد الجمل» من قبيلة «الرملة».

وكان يقرب من المنزل الأول إذ لا تتجاوز المسافة كيلومتراً واحداً. .

* * *

وكان من الملازمين لمجلس سعدون وأصدقائه المقربين من الضباط:

- علي ابراهيم القن.
- عبدالله السركسي.
- الهادي الزريدي. .

وكان من المقربين من صف «الجندرمة». .

- خليفة فريدغ ـ من السراكسة.
- خميس الشوشان ـ من يدّر.
- حمد التاورغي ـ من تاورغاء.
- علي المتجول[1] ـ من بنغازي. . سكرتير سعدون.

* * *

قماطة. . ورأس غزال:

لقد فشلت قوات الأسطول فشلاً ذريعاً في احتلال منطقة «مصراتة» من ناحية الشاطىء فلجأت خطط الاستعمار إلى القوات التابعة لها من المرتزقة. .

وكان سعدون قد بلغه الخبر وأكدت له الأنباء أن قوات إيطاليا تتجمع في نواحي «تاجوراء» والمناطق الشرقية حول مدينة طرابلس التي كانت قد احتلتها القوات الإيطالية.

(1) علي المتجول كان شاباً مثقفاً يعمل سكرتيراً خاصاً لسعدون، وقد هاجر إلى مصر وبحثت عنه طويلاً فلم أجده فقد انقطعت أخباره ويقال أنه كان في أواخر أيامه بالبحيرة وقد لقي شظف العيش في الهجرة، وكان عاملاً في معمل نسيج بالريف.

وهنا فكر سعدون في نقل الذخيرة التي كانت متبقية في ناحية «زاوية المحجوب» إلى منطقة «عبد الرؤوف»..

وكان هذا لئلا تقع الذخيرة في أيدي القوات الزاحفة..

* * *

وطلعت قوات الطليان والأحباش والمرتزقة.

جاءت صوب «القره بوللي»..

وتعرضت لهم قبائل قماطة ـ قصر خيار.

وكانت هناك قوة عسكرية صغيرة برئاسة (محمد الفقي)..

وقوات مجاهدي (قماطة)..

وقفت عند رأس غزال ـ وهذا المكان غربي (قصر خيار).

وبدأت معركة من أعنف معارك النضال التي برزت فيها بطولة الشعب..

كما كان هناك الضابط المسؤول عن كتيبة الجيش النظامي الذي كان معسكراً في (قصر خيار) برئاسة (عمر أبو خطوة الزايدي) وكان من أتباع قوات (سعدون).

وحضر المعركة أيضاً (عثمان القماطي) خريج مدرسة نوري.

و (محمد شعلة القماطي) كان (برزان)..

* * *

في منطقة القطارة:

كان «سعدون» قد رجع بقوته إلى «القطارة»..

وهي تقع في أرض «العمايم» قرب «مسلاتة».

عندما كان «عبدالله تمسكت» معسكراً في منطقة الحمام».

ـ تقع في الجانب الغربي من الساحل.

وفي صبيحة اليوم التالي ـ باكراً ـ هجم عليه الطليان فجراً..

والتحم الضابط المناضل معهم في صراع شديد، أربعة أيام ـ كما سبق أن أشرنا.

والتقى «سعدون» في الطريق مع «عبدالله تمسكت» وهو متقهقر في حالة تعب شديد واعياء..

ويقول المجاهدون الذين شاهدوا هذه المعركة مع «تمسكت»:

ـ كانت الطائرات الإيطالية تحلق على ارتفاع قريب وتطارد قوات المجاهدين. وكانت الأسلحة محملة على الجمال وتلمع في ضوء الشمس إذ كانت بارزة من الشباك والغرائر.. ولكن بفضل الله لم يصب أحد من قذائف الطائرات.. فقد كانت تتساقط قذائفها في «السدر» وتغوص في كثبان الرمال..

وهنا تجمعت قوات «سعدون» في منطقة «قطارة» مع قوة «عبدالله تمسكت» التي انسحبت من منطقة «الحمام».

وكانت قوات الأعداء جرارة وبشكل زاحف..

وسعدون جاء مع قواته نحو «ماجر» وقاد معركة «عين كعام» يوم الخميس. ويوم الأربعاء كما سبق أن أشرنا قبل هذا.

* * *

عندما عجزت إيطاليا بأسطولها وطائراتها عن اختراق خط الدفاع في «قصر أحمد».. لجأت إلى تسيير «باندة» المرتزقة لضرب صفوف الوطنيين من الخلف من ناحية البر.

وسارت نحو أرض «قماطة» التي وقفت في وجه القوات الزاحفة موقفاً بطولياً وروت الأرض بالدماء.. وعندما علم سعدون بأن الطليان وأذنابهم قد وصلت طلائعهم إلى المناطق الشرقية.. طلب من الضابط المسؤول في خط الدفاع «الهادي الزريدي» أن يرسل له نصف قوات المجاهدين على الفور.. وأن يبقي النصف الآخر في خط الدفاع.

وفعلاً أرسلت لسعدون قوات من المجاهدين . .

وقد خلف على الخط الدفاعي في منطقة «قصر أحمد» الحاج «علي المنقوش». وكان في الخامسة والستين وقد توفي هذا المجاهد مهاجراً بمصر . .

* * *

وعندما التحم «سعدون» مع الأعداء في معركة «السلحيبة».

اتضح أن قوة العدو لها فرعان:

1 ـ قوة عن طريق «ترهونة» . .

2 ـ والأخرى عن طريق «قماطة» . .

وهذا ما دفع «سعدون» إلى طلب نجدات من المجاهدين المتبقين في خط مصراتة.

وصار يدافع طيلة شهر كامل . . مدة ثلاثين يوماً . . في أراضي العمامرة بمسلاتة إلى الخمس . . من ناحية البحر . .

هذه الجبهة التي كان يشرف عليها ويقوم بتنظيمها البطل الجريء . .

وهنا كانت قوات «الباندة» الإيطالية تلتقي عن طريق «ترهونة» وعن طريق «قماطة».

والتقت القوتان الزاحفتان بمنطقة «مسلاتة» ثم تفرعت هذه القوة الإيطالية.

قسم جاء عن طريق . .

- ترغلات قاصداً زليطن رأساً . .
- والقسم الثاني توجه إلى الساحل . .

عند ذلك شعر القائد «سعدون» بأن زحف القوات الإيطالية سيطبق عليه من الجانبين.

لقد دبر الطليان فخاً ليصطادوا به «سعدون» والمجاهدين معاً.

وكان معه في هذه المعارك بأرض العمامرة وما حواليها الضابط الجريء «عبدالله تمسكت».

وكان برتبة ملازم ثان ولكنه كان من أجرأ الضباط المخلصين..

واستمرت مساهمته في خط الجهاد من مجيء «نوري» إلى آخر معركة مع «سعدون».

* * *

عندما شعر (سعدون) بخطورة الزحف من الجبهتين..

رأى من الأوفق أن ينسحب قبل أن يشمت به أبناء «روما» والمرتزقة من أذناب الاستعمار، وانسحب «سعدون».

حتى وصل إلى نقطة (عين كعام).

وكانت هناك مفاجأة.. التقى «سعدون» بالفخ الذي دبر له في «عين كعام».

ودارت معركة عنيفة تسمى في خريطة النضال الوطني:

- معركة عين كعام بوادي ترغلات..

فقد وجد البطل نفسه وقواته في حالة تطويق.

ولكن لله در القائد البطل الفدائي..
لله در ذلك الجيش المناضل..

فقد بذل هؤلاء أرواحهم وجازفوا بالهجوم عنوة واستطاعوا بجرأة أن يخترقوا الحصار وعسكر الأعداء.. ودارت المعركة واستمرت في التحام ست ساعات متواصلات..

واستطاع (سعدون) والفرسان المجاهدون أن يصلوا إلى (زليطن)..

* * *

واستمر (سعدون) في عملية الانسحاب أو عملية الهجوم الجريء إلى أن وصل إلى نقطة تسمى. .

● فندق الشفا. .

في طرف زليطن في طريق. . مصراتة. .

كان هدف «سعدون» أن يقرب ويجمع القوات الوطنية إلى بعضها وينقل الذخيرة والمستلزمات الموجودة في مخازن «عبد الرؤوف». .

* * *

وفي ذلك الحين - وبعد مضي ساعتين من غروب الشمس - خاطب «سعدون» مركز القيادة في «النواهمة» وكان وكيله الحاج «علي المنقوش».

وخاطب أيضاً الضابط المسؤول في خط الدفاع بـ «قصر أحمد» وأمره بسحب القوة إلى «الغريفة» وتسمى منطقة «كرزاز» وهذه نقطة تبعد عن شط «قصر أحمد» حوالي عشرة كيلو مترات. .

وكان حازماً سريعاً في طلبه. .

إذ أصدر أمره بسحبها الساعة السادسة مساء بحيث يتم الانسحاب.

وفعلاً سحبت القوة. .

وجمع الضابط المسؤول الضباط وأعطاهم التنبيهات السريعة على الانسحاب. .

الساعة السادسة والنصف يكون الخط الأمامي خالياً. .

ليس به أحد من قوة الدفاع. . ليس به أحد من المجاهدين. .

وكان من الدقة في عمليات الانسحاب. .

أن عمل المجاهدون والعسكر ملابس قديمة تمثل هيئة عساكر وملأوها تبناً ومددوها قرب الخط. .

لقد أمرهم سعدون أن لا يتركوا في مكانهم أي شيء من المعدات أو الجنود. .

* * *

وكان من خطة الانسحاب رغم أن أمر سعدون جاء مفاجئاً سريعاً. . إلا أن ضبط الأعصاب وشدة المراس والتنظيم والطاعة. . كل هذا جعل عملية الانسحاب ناجحة. .

ومن الخطط التي حافظت على الأرواح والعتاد. .

وكان هناك كثير من المناضلين والعسكريين لا يريدون ترك الخط. . لا يريدون التخلي عن التحفز في الخط. . خط الدفاع الأمامي. .

كان الخط الناري عزيزاً عليهم. .
إنهم مكثوا عاماً ونيفاً. . ظلوا في ثبات وجرأة. .

وقد تحمل هؤلاء الجنود والمجاهدون ألواناً من التعب والجوع والألم والرصاص والبارود. . ولكن رغم كل هذا لم يكن من الهين على نفوسهم ترك الخط الدفاعي.

إن الانسحاب عملية لا تطرب لها نفسية الجندي المناضل. . ولكنها أوامر. . وأوامر من سعدون القائد المهاب والقدوة لجنوده في ميدان الجرأة والتضحية.

لقد رأى أن تتم عملية الانسحاب سريعاً. .

وكانت خطة محكمة في الانسحاب. .

وكان من الذين أشرفوا على عملية الانسحاب في هذه الليلة ما يقارب من خمسة عشر ضابطاً رسمياً في داخل الجبهة. .

وكان عدد الجنود حوالي ثمانمائة جندي.

وقد كانت كتائب المجاهدين أغلبها خرج إلى «السلحيبة»

وكانت ليلة الانسحاب من خط «قصر أحمد» يوم 6 رجب 1341 هـ.
والخط كان به العسكريون النظاميون فقط. .
وهو الخط الأمامي لقربه من تحصينات العدو.

ولشدة الاشتباك بين الأعداء والجيش الوطني.. كان ممنوعاً زيارة هذا الخط والتجول فيه على غير العسكريين.

* * *

جولة:

وكان سعدون عندما ذهب في جـولته إلى أراضي «زليـطن» لتنظيم الجند.. والاستعداد لمقابلة قوات الطليان الزاحفة.. كان من ضمن الذين صحبوه:

● سعيد ساطي - من مصراتة وهو ضابط متخرج من مدرسة نوري وكان مسؤولاً عن العسكر الجدد الـذين يتكوّن منهم البلوك الخـامس - السريـة الخامسة.

وسعيد ساطي في ذلك الأوان كان في حوالى الخامسة والثلاثين وقد استشهد (سعيد) في معركة «العوكلي».

* * *

وكان قائمقام زليطن «عبد السلام التومي».. من الفواتير وقد توفي مهاجراً في «البراني» بالصحراء الغربية بمصر عام 1925 م.

وقد توجه سعدون إلى نواحي «زليطن» ليجمع مجاهدين وعسكر ليدعم بهم مركز جبهة «الخمس» التي كان بها «تمسكت» و«محمد الفقي» في قوة يسيرة.

واجتمع مع أعيان «زليطن» والقائم مقام - عبد السلام التومي - ولمس في رجال البلد الحماس القوي والغيرة الدافعة.

وطلب سعدون عن طريق التلفون من «زليطن» وكيله بمصراتة «الحاج علي المنقوش» وأمره أن يرسل له نصف قوات المجاهدين الفرسان.

وسرية واحدة من العسكر النظامي.

وكما سبق أن أشرنا كان مجموع الذين أرسلوا حوالى (400) أربعمائة مجاهد.

وقد حصلت موقعة أو مذبحة «قماطة» قبل أن يتمكن سعدون من المساهمة والدفاع في هذه المعركة. ومن الملاحظ أن معركة «قماطة» لم يشترك فيها أحد سوى أهل «قماطة» أنفسهم. إذ كان الهجوم مباغتة وبشكل مفاجىء.

حتى نقطة المجاهدين في «شقران» حيث كانت نقطة حربية برئاسة «محمد عمر الفقي» لم تستطع المساهمة والنجدة في معركة «قماطة».

وكان زحف «الباندة» المرتزقة والجنرال الإيطالي بغتة.. وكان بين نقطة المجاهدين في شقران وبين أرض «قماطة» حوالى خمسين كيلو متراً.

* * *

وبعد أن فتكت قوات الجنرال الإيطالي بأهل «قماطة» ونهبت «الباندة» البيوت والحلي من آذان النساء..

كان سعدون قد تمركز في جبهة «الخمس» جنوبي «الحمام» وأخذ يرسم الخطة لملاقاة القوات الزاحفة..

وبعد أن وصلت قوات العدو إلى مركز «الخمس» ودخلتها.. ومكثت بها يومان.. وأخذت في عمليات الزحف مواصلة في طريقها ناحية «مسلاتة» باتت هذه القوة في «وادي السلحيبة» ـ النقازة ـ وتربص بهم سعدون وجيشه..

وبلغته أنباء مؤكدة عن طريق «الكشافة» وجنود الاستطلاع عن عدد قوات العدو.. ووقعت معركة «السلحيبة».

وتقهقر المناضلون لأن قوات العدو كانت أضعافاً..
كان عدد المناضلين مع سعدون يتراوح بين (800) و (900..
وعدد القوات الإيطالية لا يقل عن (40) ألفاً مع «الباندة» المرتزقة.
بعد منتصف النهار انتهت المعركة..

وتوجهت القوات الإيطالية إلى «مسلاتة».

* * *

القطارة:

تمركز سعدون في نقطة تسمى «القطارة» تقع في أرض العمامرة في بادية (مسلاتة) ومكث حوالى خمسة وعشرين يوماً أو قرابة شهر في نقطة (القطارة).

وكان معه الضباط والمجاهدون:

- أحمد الشعافي - طوبجي.
- محمد الفقي - قومندان.
- سعيد ساطي.
- مصطفى الزريدي.
- الحاج أحمد ساطي.

وكان مع قوات سعدون من أهل (مصراتة) و(زليطن) و(الساحل) و(سيلين) و(شقران).

وكانت نقطة (الحمام) هناك ووقع الصدام بها..

ثم إن سعدون هجمت عليه قوات إيطالية من نقطة (ترهونة) و(مسلاتة).

كان زحف هذه القوة على فرعين.. على طريقين..

- فرقة طلعت من (مسلاتة) عن طريق يسمى (فنان)..
- وفرقة ثانية عن طريق (المعمورة) - الداوون..

وكانت هاتان القوتان في زحفهما تقصدان المنطقة الشرقية للقضاء على مراكز المقاومة فيها.

وكانوا بعمليات الزحف هذه يحاولون تطويق سعدون في نقطة (القطارة)..

وهنا رأى سعدون أن ينسحب من تلك المنطقة الجبلية الوعرة المسالك والشعاب حتى وصل في انسحابه إلى أمام جنوب الساحل. . واتصل بـ «عبدالله تمسكت» في منطقة «القبو» وسارا معاً إلى «وادي كعام». .

* * *

وقد انضم «تمسكت» بقواته إلى قوات سعدون في القطارة. . أثناء المدة التي بقوا بها هناك. . ثم واصل سعدون وقواته السير إلى منطقة «وادي كعام» وهنا أراد سعدون أن يرتب خطاً دفاعياً في هذا الوادي، وما شعر إلا أنه يكاد يقع في قبضة القوات الزاحفة. .

كان سعدون قريباً من الخطر الذي يحدق به. .

وهنا أمر سعدون قواته بمواصلة السير والزحف صوب «زليطن» و «مصراتة».

لأن خطة الطليان كان قصدها عزل «قوات سعدون» عن مركز «مصراتة» وخط «قصر أحمد». .

* * *

واخترق سعدون خطوط الأعداء مع قواته. . وكان ذلك في عملية جريئة. وتحركات فدائية. . واستطاع أن يجتمع بقواته في مكان يسمى.

● فندق الشفا. . يقع شرقي «زليطن». .

* * *

وفي تلك الليلة. . وعند الغروب.

كانت قوات العدو تدخل «زليطن». .

لقد كادت هذه القوات الزاحفة أن تلحق به.

* * *

وكان مع سعدون في قوته جهاز تلفون. .

واتصل بمركز القيادة بمصراتة وأبلغهم تعليماته بالانسحاب. . ولما وصل

سعدون إلى نقطة «عبد الرؤوف» ليلاً.. كان قد وصل قبل أن تتم عمليات انسحاب القوات النظامية عن الخط الدفاعي الأمامي.. وصل قبل إتمامها بحوالي ساعتين..

فوجد الذخيرة لم تنقل بعد من معسكرات «عبد الرؤوف»..

وكان قد طلب من أخيه «أحمد» و«التهامي قليصة» و«علي بوحبيل» الانسحاب ونقل الذخيرة من «عبد الرؤوف» ولكن الإدارة كتمت هذا عن الجيش..

ولم تبلغهم أمر سعدون..

وغضب سعدون..

وكان عدم الإسراع من هؤلاء مجرد توانٍ وليس سوء قصد.. فلا شك في وطنيتهم..

ولكنهم لم يكونوا على صفاء تام مع القائد.. وهذا هو سبب التباطؤ..

وقد حز في نفس سعدون هذا التباطؤ..

عندما أهملت وتوانت الإدارة الحكومية في نقل الذخيرة من مخازن «عبد الرؤوف» إلى خارج الوديان..

فوجد الإدارة لم تصنع شيئاً..

بينما أخذت قوات الجيش في خط النار في الانسحاب وتنفيذ أوامره.

وتأثر سعدون لموقف الإدارة المدنية معه.. وأخذ يعمل على نقل الذخيرة ما أمكن..

وردم ـ مضطراً ـ الذي لا تستطيع قواته حمله..

أخذ المدافع الإيطالية الضخمة.. وبعض المهمات واللوازم التي يستطيع حملها الجنود.

أما التي يصعب حملها أخذوا يردمونها في داخل «معطن» ساقية «عبد الرؤوف». .

وكان ضمن هذا مدافع ثقيلة إيطالية كانت ضمن الغنائم المأخوذة في معركة «بوفار».

وكان من بين ما رمي في البئر العميق مدفعان من النوع الضخم. . وأيضاً بضع «مترليوزات» ناقصة العدة من صنع إيطاليا. .

وكان عمق هذا البئر يزيد على خمسين متراً. .

وكان سبب رمي هذه الأسلحة الثقيلة لأنه لا توجد لديهم خيول تجرها ولأن الوقت ضاق عليهم. . والأعداء زاحفون على الأبواب ومشارف المنطقة. .

* * *

وأمر سعدون الجنود أن تحمل الأسلحة الخفيفة.

وكان على هذا التنظيم السريع. .

- على كل جمل ثلاثة صناديق من قذائف المدافع السريعة الطلق.

كان هناك اثنا عشر جملاً على كل جمل ثلاثة صناديق في كل صندوق من هذه عشر قنابل كان وزن القنبلة حوالى أربع أقات للمدافع السريعة. .

وبعد أن وضعت الصناديق في الشباك قام بحملها أربعة جنود لوضعها على الجمال وتمت العملية بسرعة. .

وكان هناك أيضاً عدد من المدافع. . ومدفعان سريعان يحملان على البغال. .

وكميات من «الجبخانة». . وهناك نقص في الرصاص لبعض أنواع الأسلحة.

وكان كل جندي يحمل صندوقاً به ثلاث قنابل من الوزن إياه ـ أي بالصندوق حوالى إثني عشر أقة ـ يحمل هذا بجانب بندقيته ولوازمه. . والذي

تبقى عن حمل الاثني عشر جملاً بقي في السانية بعد ردمه.

* * *

وسارت كتائب الجنود.

وكان عددها حوالي أربعة آلاف وخمسمائة.

وتحركت صوب منطقة «سيوطة».

* * *

وهي تبعد عن مخازن «عبد الرؤوف» بحوالي ثلاثين كيلومتراً.

ووضعوا الجبخانة في مكان يسمى «قصر الخزين» بوادي «ساسو».

وبقي العسكر في «سيوطة».. وأرسل سعدون إلى وكيله الحاج علي المنقوش وهو على سانية «السكّت».

وتجمعت القوة.

4500 ـ الذين جاؤوا مع سعدون من المنطقة الغربية.

500 ـ جندي مع الضابط «الهادي الزريدي» الذي كان يرابط في خط قصر أحمد الأمامي.

500 ـ جندي مع علي المنقوش.

كان هذامتجمعاً في «سيوطة».

فقد كان سعدون أرسل أمره إلى قوات الجيش الذي في «الغريفة» بقيادة الهادي الزريدي وعلي المنقوش أن تتجمع قوتهم في موضع «السكّت» ومكثوا هناك نصف يوم.

ثم جاء أمر سعدون بانتقالهم إلى «سيوطة».

* * *

وعندما اجتمع بهم قال:

ـ جئتم.

فرد الضابط.

ـ نعم.
وكان أول سؤال عن حالة العسكر.
فأجابوا:
ـ إنهم بخير لولا التقهقر.
فرد سعدون قائلاً:
ـ لا تخف.
وأخذ يسأل عن حالة العسكر.
ثم قال للضابط:
ـ أهلك وين؟
أجاب الضابط:
ـ لا أعلم عنهم شيئاً.
فقال له:
ـ سيب العسكر لصاحبه «علي ابراهيم القن» ودور على أهلك وين.. وتلاقيني بعد غد على «جيمي».. سر الآن.

* * *

تأزم الموقف.. وإخلاء المدينة:

لقد تأزم الموقف وازدادت المخاطر.

وليس أمر الإنسحاب فراراً من المعركة ومجابهة الموقف من البطل سعدون ذلك القائد العنود الذي سبق أن رفض المفاوضة والاستسلام.

ذلك الرجل الذي وقف عنوداً صلباً أمام إغراءات السياسة وعمليات جس النبض.. إنما كان سعدون يريد ـ تحت وطأة الظروف ـ أن ينقل المعركة والمقاومة إلى جبهة أخرى.. تكون أكثر ملائمة في العمليات الدفاعية.. وضرب خطوط الأعداء فلو بقيت القوة المتبقية في شاطىء قصر أحمد في مكانها لأطبقت عليها ـ بلا شك ـ جحافل الطليان من ناحيتي البر والبحر.. إذ كانت قواتهم متفوِّقة عشرات المرات عدداً وعدة.. في البر.. وهناك الأسطول يستعد

للانقضاض على الجنود المرابطين في جبهة الخط الدفاعي.

* * *

وأصدر سعدون أمره إلى الحكام المدنيين والجهاز الإداري بإخلاء مدينة «مصراتة» من السكان محافظة على أرواح صغيرة بريئة.. ومحافظة على شرف النسوة والعائلات.. إذ كانت جحافل الاحتلال لا تتورع أن ترتكب أي شيء في طريقها وما كان للجهاز الإداري أن يتباطأ هذه المرة.. كما فعل في قضية نقل الذخيرة وفعلاً ـ على وجه السرعة ـ رحلت النسوة والأطفال والشيوخ والعجزة.

وبقي الشباب في صفوف المناضلين.

* * *

وتمت عملية الجلاء عن مدينة «مصراتة» وضواحيها وأطرافها من جميع السكان.. يوم الجمعة 8 رجب 1341 هـ.

وفي يوم السبت 9 رجب.

أصبحت البلاد خالية تماماً من السكان.

* * *

وعسكرت قوات سعدون في وادي «السكّت».

وما زالت جيوش الطليان التي في ناحية قصر أحمد على حالتها معتصمة وراء «السور» ذلك الحاجز الطيني الذي بنته قوات إيطاليا ويعـرف باسم «الكردون».

وكان هذا هو الخط الفاصل بين المقاومين وجنود الأعداء.. وما زالت بقايا هذا السور الطيني قائمة إلى اليوم.. وإن تهدم أكثره.

* * *

وما مضى يومان ونصف على إخلاء المدينة..

حتى بدأت طلائع القوات الزاحفة من «الباندة» قادمة على طريق البر

تأكل الأخضر واليابس.. وتسحق كل شيء في طريقها..

* * *

ففي يـوم الاثنين 11 رجب 1341 هـ.

والساعة الثانية بعد الظهر.. وصلت طلائع «باندة».. خ....

وصلت منطقة «زاوية المحجوب» الضاحية التي نشأ بها سعدون..

وكانت تحلم أنها ستجد شيئاً.. ولكن خاب ظنها فلم تجد إلا الصمت الرهيب والسكون الذي يحمل وراءه ألف قصة..

لقد كانت البلاد خالية..

وكم كان أسف الطليان لأن هذه القوة الزاحفة والأوباش المجردين من الضمير والشرف. كانت تحمل معها من قائد الطليان أمراً بالإباحة ما يسمى بالإيطالية «كارطة بيانكة» ورقة بيضاء.. ومعناها الإباحة في المال والدم وكل شيء يجدونه أمامهم..

ولما أخذ أفرادها يدخلون البيوت ويجوسون خلال الديار يبحثون، لم يجدوا شيئاً.. لقد نظم سعدون خطة الانسحاب العسكري من الميناء والخط الدفاعي ونظم سحب الذخيرة من مخازنها..

ونظم انسحاب العائلات من البيوت حفظاً للشرف والأرواح..

ولقد أسف الطليان على أن غنائمهم لن تكون شيئاً.

وأخبرت «الباندة» الحاكم الإيطالي بأنهم لم يجدوا في مدينة مصراتة شيئاً أمامهم..

* * *

انسحب سعدون بنظام.. ولكن سيقاوم في الصحراء..

وأسفوا لأنهم لم يجدوا سعدون ليرسلوه مكبلاً أو يقدموا رأسه هدية لقائد الطليان لينالوا على هذا جائزة أو وساماً.

إن سعدون سيجدد النضال ويخوض المعارك إلى آخر رمق..
لم يجد الطليان وأذنابهم مقاومة..
ولن يستطيعوا القبض على سعدون البطل المتوثب..
وأخذت المخابرات الإيطالية تسأل جواسيسها..
- أين سعدون؟..

كيف احتفظ بقوّته من المجاهدين والجيش بعد هذه الحرب الطويلة؟..

لقد كان منذ قليل في (السلحيبة) وفي (وادي كعام) وفي معارك الوديان و «القطّارة».

وانسحب.. أين ذهب؟..
وتحيّر الجواسيس.. وتلفت أعصاب ضباطهم..

والقيد الذي أعدوه لسعدون لن يطبق على يديه.. وأحدث الرعب في نفوسهم هزة الألم والتخوف..

أيام عصيبة..
والله عينه لا تنام..

وأقامت هذه القوة المتدفقة كالجراد.. معسكراتها في منطقة (زاوية المحجوب)..

* * *

وفي صباح الثلاثاء 12 رجب 1341 هـ.
زحفت القوة نحو «الماطين» صرة مدينة «مصراتة».
وأيضاً من الطريق الثاني من ناحية البحر تقدمت القوة الغازية الإيطالية.. التي كان يحاصرها سعدون والمجاهدون في قصر أحمد.

* * *

خطاب سعدون في قواته بالصحراء:

وفي اليوم نفسه بينما كانت قوات الاستعمار تحتل مدينة «مصراتة».. كان

البطل سعدون يستعد للمقاومة من جديد.. ولا يثني عزمه عن المقاومة أي شيء إلى آخر الشوط.. وجمع المحارب الفدائي المشايخ ورؤساء المجاهدين على «بئر جيمي».. وألقى فيهم خطاباً وهو في غاية التأثر وكانت عباراته عميقة مؤثرة وكثيراً ما وقف سعدون في الصفوف العسكرية وكتائب المجاهدين خطيباً.. من غير تكلف ولا تزاويق في خطبه وكلماته.. قد يمزج العامية بالفصحى المتداولة وقد يستشهد بأبيات من الشعر الفصيح.

وكان يرتجل خطبه بالمناسبة ووفق اللحظة المناسبة بعبارات حماسية.. وكان فصيح الأداء.. قوي النبرات.

وقد ذهبنا إلى كثير من الذين حضروا خطاباته من أقوياء الذاكرة.. فوجدنا كثيراً من جنوده ما زالوا يذكرون بل يحفظون خطبه وكلماته.. لم تمح من ذاكرتهم على مر السنين والأيام.

لأنها في الواقع أعمق مما يتصور الناس.

وقد عثرنا على بعض الكلمات التي ألقاها كان قد كتبها بعض المجاهدين في أوراق ذكرياتهم.

فكانت شيئاً عزيزاً يلقي ضوءاً على جوانب من حياة المناضل الجريء.

وكان سعدون رغم قسطه غير المتكامل في أشواط التعليم والدراسة.. إلا أنه يمتاز بالفصاحة والجرأة وسهولة الأسلوب والتعبير في كلماته.

فكان في خطبه وكلماته يشرح لجنوده الحالة ويعرض الفكرة ويطلع المجاهدين على تطورات الموقف ويبث الروح المعنوية في صفوف المناضلين بأسلوبه الواضح وعباراته المؤثرة النافذة للقلوب.

ومن حسن الحظ أن خطبته التي ألقاها في منطقة «بئر جيمي» قد عثرنا عليها في مذكرات وأوراق أحد المجاهدين الذين صحبوه في هذه الجولة.. وهي كنموذج عزيز تكتمل به الصورة.

وها هي خطبة سعدون..

«إخواني . .

لقد دافعت عن وطننا دفاع الأسود . . وما شعرنا إلا بقرب نفاذ ما لدينا من الذخيرة والآن وقد أجبرتنا الظروف على الحالة التي نحن بها الآن . . ».

ثم مضى سعدون متأثراً وزفرات العبرة تعلو صدره والدموع تترقرق في عينيه.

وأنشد هذين البيتين[1]:

ألا والله مـا فخـراً عـدمنـا ولا كـلَّ الجواد عن السبـاق
ولكنـا بـلينـا بسـوء حظ كحظ يبلو الجميلة بـالطلاق

فكل من يعرف نفسه يؤمن فرسه . . هو حر في الدخول . .

والذي هو خائف على نفسه يعمل حساب الجوع والعري والعطش والخطر . .

ونحن إن شاء الله قاصدين الجهاد إلى آخر نفس . .

من أراد التوجه إلى مصر أو تونس هو حر . .

ومن أراد أن يمضي معي في الجهاد فإنا سنجاهد . .

ثم وجه خطابه إلى العساكر قائلاً:

«إخواني . . كل من يرغب منكم في الذهاب إلى أهله فعليه أن يسلم سلاحه ويذهب بالسلامة . . ».

* * *

ويقول الذين شاهدوه في هذا اليوم ورأوه في ذلك الموقف أثناء الكلمة ما رأوا عينيه تترقرق فيها الدموع إلا في تلك اللحظة المؤثرة وهو يشاهد الأسلحة القليلة والذخيرة التي تكاد تنفد . .

إن إيمان الشاب البطل وعزمه لم ينفد . .

(1) هكذا وجدنا صياغة البيتين في الأوراق التي عثرنا عليها.

ولكن الإيمان المجرد من الذخيرة ما عساه يصنع أمام الجيوش الجرارة من البر والبحر والجو. .

لقد استعملت ضد المجاهدين الطائرات والأساطيل والجيوش البرية (وباندات) المرتزقة. .

ولكن رغم هذا. .
أصرّ على مواصلة القتال ومجابهة الأعداء في ساحة المعركة. .

ولقد نصحه كثير من أصحاب الحلول الوسط وأصحاب النظريات السياسية أن يرضخ. . فرفض. . بل إنه هدد من يكمله بالاستسلام ويفاتحه في إلقاء سلاحه أن يصرعه بسلاحه. .

ولم يفكر سعدون في الهجرة. .

لقد أصرّ على أن يجود بنفسه في المعركة. . وهو يعلم أنه سيلقى مصرعه في ميدان الشرف.

وكان بطلنا المقدام يتمثل بقول (قطري بن الفجاءة):
ولست أبالي حينما أقتل مسلماً   على أي جنب كان في الله مصرعي

* * *

على بئر القويدرية:

واجتمع سعدون مع العسكر النظامي في منطقة (بئر القويدرية) وهذا المكان بعد (جيمي). .

وفي المساء قال ضمن خطبته:

«إخواني. . المسألة طويلة. . وما عادش عندي جهد لمقاومة الطليان كما كنا وجهاً لوجه بجيش نظامي. . وعليه من أراد أن يتصل بأهله ويروح للبلاد فهو في حل مأذون. . بشرط ألا يصحب معه سلاحه. . ومن أراد أن يذهب معي فلا يلوم عليّ لأن المرحلة يا إخواني طويلة وشاقة. .

لا يوجد لنا مكان نستقر فيه. . ولكن سندافع إلى آخر رمق. . ومن أراد

أن يبقى معنا فليبق بسلاحه..
حافظوا على «الأسلحة».

* * *

تنقلات:

وهكذا كانت تنقلات سعدون في عمليات الانسحاب..
1 ـ عبد الرؤوف..
2 ـ سيوطة.. مكث بها ليلة.
وسيوطة.. تبعد عن «عبد الرؤوف» بحوالى ثلاثين كيلو متراً..
ثم توجه إلى منطقة..
3 ـ جيمي.. وهي على بعد ستة كيلو متر من «سيوطة» ومكث بنقطة «جيمي» ثلاثة أيام ثم توجه إلى..
4 ـ المشرك ـ مكث بها ثلاثة أيام ـ وهي على بعد عشرة كيلومتر من «جيمي».. ثم ذهب إلى..
5 ـ أم العرفج.. على بعد سبعين كيلومتر..

* * *

حوار.. ونقاش..

وقابل الضابط «الزريدي» القائد سعدون..
كانت المقابلة في منتصف النهار التالي في موضع «سانية جيمي»..
وشاهد الضابط على وجه سعدون سحابات من الكآبة والاضطراب..
هي حيرة الفكر لقائد عصفت به الأحداث..
وبدأ القائد حديثه مع الضابط..
ـ يا هادي تعال هنا..
وجاء وأدى التحية العسكرية..
وقال القائد..

ـ نريد أن نجعل جلسة ثلاثية.. من ثلاثة أعضاء.. القن ـ الزريدي ـ وأنا.

ـ أين نجلس؟.

ـ داخل الجنزير العسكري أي حلقة هناك في موضع جيمي.

وجلس الثلاثة.. سعدون وضابطاه.

وبدأ القائد بالكلام:

ـ أنا أريد أسأل كلمتين اثنتين أجيبوني عنهما.. ونريد أن نجعل منها ميزان.. والحسنة نتبعوها..

وألقى سعدون هذا السؤال..

ـ الحرب خير أم الانسحاب أفضل؟..

وسكت الاثنان في حالة إطراق عميق..

وكرر سعدون سؤاله الموجز.

ـ أيهما خير لنا.. ما هو رأيكم؟

وهنا أجاب «الهادي الزريدي» قومندان خط الدفاع سابقاً قائلاً:

ـ أنت أبدي رأيك.. أشر لنا ونحن نرد على الرأي.

قال سعدون:

ـ لا.. أنا الرايس.. ولكن من الواجب أن تبدوا رأيكم أنتم وما في نفوسكم.

والتفت الضابط لصاحبه وقال:

ـ تكلم يا سي «علي» فأنت قومندان.

فأجاب «علي ابراهيم القن»..

ـ لا.. أنت أكبر مني «يا زريدي» سناً وأقدم في الجيش.. تكلم أنت.

فرد الضابط قائلاً موجهاً الكلام إلى «علي القن»..

ـ لا.. بل أنت القومندان والآن الخط مفقود وليس في يدي شيء.

وتكلم سعدون وقال للضابط «الهادي»:

ـ يا هادي موش محل مجادلة.. ابدي رأيك.

وهنا رد الضابط قائلاً:

ـ استخبرك «يا بيّ»[1] عن أشياء.

قال سعدون:

ـ نعم.. ما هي؟

قال:

ـ هل توجد في الجبل الغربي وغريان وجبل نفوسة قوة تحارب الطليان؟

رد سعدون..

ـ لا.

ـ هل يوجد بجهة النواحي الأربعة وترهونة؟.. وقماطة هل يوجد هناك الآن أحد يحارب؟.

أجاب سعدون:

ـ لا..

ـ هل يوجد في جهة شقران والساحل وزليطن محاربون يقاتلون الطليان الآن؟

أجاب سعدون:

ـ يا أخي لا يوجد في قطر طرابلس جيش يقاتل الطليان سوى الذي أنت تنظره بعينك.

فرد الضابط قائلاً:

ـ نعم.. لنفرض أننا نريد مواصلة الحرب هنا.. ولنفرض أن العدو خرج وقاتلنا من ورائنا واستمر في قتالنا مرة أخرى.. هو يجد الذخيرة والمدد.. أما نحن فلا نجد المساعدة ولا المدد ولا حتى الماء.. وهذه العائلات المشردة.. كل «السدر» فيها عائلات لا يملكون لا أكلاً ولا طعاماً ولا دواب تحملهم إلاّ القليل.. والنساء حافيات والأطفال أقدامهم مشققة من التعب.. هذه العائلات ما مصيرها؟

(1) كلمة «بيّ» في لهجة ليبيا معناها بك.

وأرى في الانسحاب راحة وحفاظاً لأرواح الأطفال والنساء ومن رأيي أن تخرج إليهم وتخطب في الجيش.. ومن أراد الهجرة للسودان ومصر وتونس فمرحباً.. ومن أراد العودة إلى دياره وأهله فليسلم سلاحه لنا.

وسكت سعدون وطال سكوته وتأمله..

ثم التفت إلى «علي القن» وقال له:

ـ ما رأيك؟.

أجاب:

ـ أنا موافق على كلام الهادي.

وهكذا كان رأي الاثنين أن يخرج سعدون ليخطب في الناس.

وظهر سعدون للمشايخ وكان بينهم:

- علي أسطا.
- حسين عبد الملك.
- علي الزريريك.
- عبد العال القزيري.
- الحاج محمد علي الكبير.
- محمد شكلون.
- عبدالله المعداني وغيرهم.

وهؤلاء من رؤساء المشايخ والمجاهدين وساهموا في معركة المشرّك بجانب سعدون وعرض عليهم الفكرة لضمان سلامة الأطفال والنساء.

من أراد أن يعود أو يهاجر فليذهب.

أما هو سعدون فسيقاتل في الصحراء والوديان ولن يخرج من البلاد.

وخرج سعدون وأطلّ على الناس.

والجماهير المتعبة والعائلات المجهدة وقال:

ـ من أراد أن يسلم نفسه ويعود للبلاد فعليه الأمان.

وعند ذاك كانت لحظات رهيبة وموقف حماسي مكهرب.

لقد صاح في نفس واحد 1300 يد تلوّح وحنجرة تصرخ في لهب رغم الإجهاد والمشاق.. نقاتل.. نقاتل في سبيل الله والوطن.

فرد سعدون:

ـ ما عنديش قوة جيش ندفع عنكم العدو!

فرد الجميع:

ـ لا بد من القتال.

وقال سعدون:

ـ وحيث إنكم صممتم على القتال أنا أريد من الاثنين واحد يجند بمتعته ـ يقصد طعامه وسلاحه.

ورد عليه بعض المشايخ:

ـ اسمح لنا بيومين أو ثلاثة نجتمع عندك..

فالتفت سعدون إلى ناحية أهل مصراتة وقال لهم:

ـ العدو ها هو واصل إليكم ما هو العمل؟!

يا إخواني أنا الرأي الذي اخترته لكم أن تأخذوا عائلاتكم وتحفظوا هؤلاء الأطفال والنساء..

* * *

وتوجه سعدون والقوة العسكرية التي معه إلى جهة «المشرّك» التي تبعد عن «جيمي» حوالي 15 كيلومتراً وعسكر بها، واضطر إلى ردم بعض الأسلحة الثقيلة التي لم يعد لها علف ورصاص مثل أسلحة الرشاشات الإيطالية ثم قال سعدون في تأسف لبعض الضباط الذين حوله:

الجبخانة قعدت للعدو.

وكانت قافلة سعدون في نقطة «المشرّك» تتكون من 30 جملاً و 25 من البغال والحمير وقوات عسكرية وهناك جنود في «المشرك» منهم من ذهب مع أهله وبقيت البقية تواصل النضال إلى الشوط الأخير.

* * *

وكانت بعض الجبخانة تركت في ـ قصر الخزين ـ بساسو لأنه لا توجد دواب تحملها.

وقال الضابط للقائد سعدون:

إن شاء الله يا بيّ ـ نلحقك بها عن قريب.

فقال سعدون:

ـ إلى تاجموت ـ ميمون.

وطلب سعدون أربعين سرج سواري من الفرسان.

كانوا من مصراتة والمحاميد وورغمة ـ المهاجرين من تونس ـ وجماعة من النواحي الأربعة.

فشكلت كوكبة من هؤلاء الفرسان ومضوا إلى مكان الجبخانة.. وكلما مروا بحي ونقطة من الأهالي توجد عندهم جمال طلبوا منهم جملاً وشبكة.

حتى تكوّن من هذا 90 جملاً.

وسار بهم الضابط الهادي إلى محل ـ الخزين ـ الذي توجد فيه الجبخانة في منطقة ـ ساسو ـ في قصر الخزين على بعد عشرة كيلو متر من «المشرك».

وعبئت مقدار التسعين جملاً.

ووضعوا الجبخانة على ـ بئر تاجموت ـ.

ورحل سعدون إلى ـ تاجموت ـ بعد أن مكث في «المشرك» يومان فقط.

* * *

وسار بعدها متوجهاً إلى ناحية «أم العرفج».

ومنها متوجهاً إلى تاجموت.

وكان في تلك الأيام ـ أحمد شتيوي ـ أخو سعدون، اتصل بجماعة «الطبول» أحد قبائل ورفلة ورحبوا به وقالوا له:

ـ اطلب ما تشاء، وانزل بأراضينا، وكل ما ينقصك خذه.

وقابلوه مقابلة حسنة.

وأخبرهم أحمد شتيوي، عن قلة الدواب التي تحمل الأثقال وعن حالة العسكريين من الناحية الحربية وما يقاسيه المجاهدون من المتاعب.

عند ذلك تحمست قبائل «الطبول» وأبدت كل استعدادها للمعونة، وأرسلت الإبل والرجال لمساعدة سعدون وقواته في نقل الأثقال إلى منطقة «نفد».

تمركز سعدون في منطقة «أم العرفج».

وقد اكتسب الوادي هذا الاسم لأن هناك نوع من الحطب يسمى «عرفج» يكثر بهذا الوادي.

وهو مكان خالٍ ويبعد عن الأهالي من كل ناحية.

وكان تعداد الجنود في «أم العرفج» من النظاميين حوالى 700 غير الأهالي. وأخذ يبحث عن أرزاق للعسكر.

كان هناك عنبر للحكومة الوطنية يقع في تاورغاء به شعير وتمر وكان ما في هذا المخزن مأخوذ عن طريق الأعشار.

فأطلق سعدون فيه للأهالي، نقل هذه المعونة من تاورغاء إلى «أم العرفج».

النصف حمولة، لصاحب الجمل النصف، وللعسكر النصف.
وتاورغاء تبعد عن أم العرفج 120 - 130 كيلو متراً.
وبعد مضي شهر على بقاء سعدون مع قواته في «أم العرفج».

قال سعدون لأحد ضباطه:

خذ عشرة من الخيل واكشف ـ وادي ميمون ـ.
واستطلع هل هناك قوات من الأعداء؟

وبادر الضابط ومعه جماعة إلى «وادي ميمون» كان منهم:
● الهادي الزريدي.

● إبراهيم العقوب: زنتان.
● إبراهيم شكلون: المقصبي.

وثمانية من العسكريين منهم:
● سعد النعايمي.
● سعد بن ساسي النعايمي.
● ابن الدلفاق.

وتقع منطقة «ميمون» على بعد ما يقرب من سبعين كيلو متراً من منطقة «أم العرفج».

وباتت طليعة الاستكشاف في نواحي تلك المنطقة.
ثم أخذ الضابط يتجول في الوادي.
ثم رجع إلى مقر سعدون في «أم العرفج».
وسأله سعدون:
ـ ما رأيت؟.
أجاب: لا شيء.
فقال سعدون:
ـ غداً نرتاح..

وفي الغد نادى على الضابط وقال:
ـ اذهب إلى مشايخ مصراتة.. إلى منطقة «ساسو» ومضى الضابط وغاب أربعة أيام ووصل «ساسو» في مكان يسمى:

● أم الرصيفة.

ولم يجد شيئاً ولكنه لاحظ جرة سرية إيطالية من السواري كانت قد مرت بهذا المكان منذ أيام.

وعاد الضابط بعد خمسة أيام ولم يكن قد عثر إلا على آثار السرية التي مرت منذ خمسة عشر يوماً.

وقال سعدون لأصحابه:

- نريد أن نذهب إلى «ميمون» لتستطيع الحيوانات أن تجد مرتعاً، فإن «أم العرفج» مكان أجدب.

وقال أحد الضباط:

- نتداول في الرأي ونستكشف المكان أولاً.

وذهبت كوكبة للاستطلاع واستكشاف المكان.

وبعدها.. توجهت قوة سعدون إلى نقطة «ميمون».

وعند وصول سعدون وجماعته إلى نقطة معطن «تاجموت» بوادي «ميمون» قال سعدون لصاحبه:

- خذ معك تسعين مجاهداً.

وأربعين فارساً.

وامكث في نقطة «القديرية».

وهي تبعد حوالي خمسة وعشرين كيلومتراً عن نقطة (ميمون).

وكان مقصد القائد سعدون من هذا هو إيجاد نقطة أمامية بين قوّته وقوات العدو مخافة الهجوم المفاجىء.

* * *

وتوجه الضابط ومعه جماعة من المحاميد وورغمة.

ومكثوا بمكان يقال له:

● قرارة مريم.

وغدت كوكبة الفرسان تتجول وتستطلع في قرارة مريم..

ويلاحظ أن نقطة (القديرية) معطن.

وقرارة مريم أرض حراثية. وأيضاً حصينة للدفاع، وبها سدود وجبال وأماكن تصلح للاختفاء.

وقد اختارها الفرسان، وهناك عسكروا، بينما كان سعدون في (تاجموت)

وبقية القوة بأكملها وعند ذلك أصبحت دوريات الفرسان والمجاهدين تنزل إلى (العوجة) و (الكراريم).

وهما معطنان ـ بئران ـ قرب مدينة مصراتة على بعد خمسة وعشرين كيلومتراً من المكان الذي احتلته قوة الجنرال الإيطالي ومكث الفرسان يوم 15 رمضان في جولة استطلاعية.

ثم خرجت عليهم قوة من الطليان متهيئة للهجوم تبحث عن آثار سعدون وجماعته..

وعند ذلك..

بعث الضابط المسؤول بدوريات الاستكشاف، إحدى الدوريات الاستطلاعية.

مكوّنة من أربعين مجاهداً وعشرين فارساً.

وجاءت بالأنباء..

إن العدو يتحرك ويتعقب جيش سعدون.

وعاد من هؤلاء الستين اثنان يخبران بأن العدو خارج من منطقة (مصراتة) قاصداً (القديرية).

وظل الستون في الدورية.

وبادر رئيس الدورية المسؤول بحركة الاستطلاع وأرسل اثنين من جنود (ورغمة) لإعلام سعدون بتحرك وزحف القوات الإيطالية.

وركب (الهادي) حصانه ونزل إلى (بئر جيمي).

ماذا ينظرون!؟ وماذا يفعل العدو؟..

والتقى (الهادي) ببقية الجنود الستين.

فوجد أن هناك أربعة قد استشهدوا، فالدورية ذات الستين مجاهداً كانت قد التحمت مع طلائع العدو، وكان من مهمة هذه الكوكبة من المجاهدين، الاستطلاع والقيام بعملية عرقلة زحف العدو.

ولما التقى (الهادي) بهم على - بئر جيمي - أخذ يستطلع وينتظر ليتعرف على سير جيوش العدو وأين هدفها؟ وإلى أين خط زحفها؟

وكانت قوات العدو قد اتجهت إلى الجهة الشمالية.

صوب (تاورغاء).

ولما تأكد له هذا.

لجأ رئيس الدورية الاستطلاعية إلى خطة لإعلام سعدون بخطوات سير العدو أولاً بأول.

فكان يرسل إلى سعدون كل ساعتين فارسين للاخبار، وكان بين نقطة (القديرية) وتمركز سعدون حوالي خمس كيلو مترات.

وبين القديرية و (تاورغاء) عشرة كيلو مترات.

* * *

ولما دجى الليل.

كان المشاة من (تاورغاء) قد أخبروهم بالقوة الزاحفة، والنجدة بعيدة - لأنها على بعد 25 كيلو متراً.

وكان معظم - السواري - الخيالة، التي في القديرية أرسلها رئيس الدورية الاستطلاعية إلى مركز سعدون للإعلام كما سبق أن أشرنا، كل ساعتين فارسين إلى وادي ميمون.

وعند ذلك أصاب القلق والتخوف - البيادة - وطلبت الالتحاق بوادي ميمون لئلا تسحق.

وأذن لهم رئيس نقطة - القديرية - بالالتحاق بمعسكر سعدون.

وبدأ يرسل فرساناً للأخبار من منتصف النهار.

إلى منتصف الليل.

حتى لم يبق عنده من الأربعين فارساً سوى خمسة فرسان وظن الضابط أن قوات العدو خرجت من جهة زليطن وأرض ترهونة على ناحية «ميمون».

والتحمت المعركة في «ميمون» ـ وهو لا يوجد لديه خبر هكذا ظن. . وساورته المخاوف.

وكان مبعث ظنه هذا أنه لم يصله رد بعد أن أرسل الأربعين فارساً ولم يعد له جواب.

ما هو السبب!؟
وما أسباب تعطيل الخيالة التي بعث بها رئيس نقطة «القديرية» لقد اتضح السبب فيما بعد.

فقد كان المجاهد «عون سوف» متولي الوكالة بدل سعدون في المعسكر.

بينما كان سعدون في تلك الآونة في منطقة أم العرفج لا في نقـطة «ميمون».
وظل «عون سوف» يترقب عودة سعدون.
ولم يصدر أمراً للضابط الذي أرسل فرسان الاستطلاع.
هذا بينما كان الضابط حائراً قلقاً.
ماذا يصنع وكيف يتصرف!؟
وعندما أصبح الصباح غيّر الضابط مكانه ومعه خمسة فرسان.

وذلك لأن قوات العدو حصلت على أحد المجاهدين من أهل تاورغاء كان معهم. . ووقع أسيراً.

وعند مطلع الشمس. . ركب الضابط والفرسان الخمسة كان معهم أحد مهاجري «ورغمة» اسمه «كعيب» وجاؤوا إلى مكان مرتفع يطلق عليه.

● «عرقوب القطا».

وأخذت طليعة الفرسان ترقب بالمنظار المكبر ـ إلى ناحية «تاورغاء».
بعد نصف ساعة خرج العدو إلى منطقة.
● (أمي عيشة).
وهناك قوات العدو نزلت بالسواري.

وأخذوا في عمل ـ خط حربي ـ.
وبدأت عمليات إطلاق النار نحو (تاورغاء).
وظل الإطلاق متواصلاً إلى بعد العصر.
ثم رجعوا إلى (قصر تاورغاء).

والمسافة قصيرة فبين (تاورغاء) و(أمي عيشة) حوالي خمسة كيلومتر فقط.

عند ذاك ركب فرسان الطليعة إلى ناحية مركز سعدون الذي كان يعسكر في نقطة (ميمون).

وكانت المسافة بين نقطة معسكر سعدون وقوات العدو لا تتجاوز خمسة وعشرين كيلو متراً.

وغدت طليعة الفرسان ترقب في حذر من خلف وأمام حتى أشرفت الطليعة على (وادي ميمون).

وشاهدت بالمنظار حركة في معسكر سعدون.
ولكنهم لم يستطيعوا تبين حقيقة هذه التحركات.
لقد شاهدوا غباراً يرتفع.
وتقدموا ولكن في حذر.

فقد شاهدوا على مقربة الطوبجية ـ الشعافي ـ والسركس قد استعدوا لضرب هؤلاء الفرسان من الطليعة فقد ظنا أنهم من قوات طلائع العدو الزاحفة.

ولكن تحركت ثلة من المجاهدين منطلقة نحو هؤلاء الفرسان الخمسة.. فقد كانت على استعداد.. على وشك التصويب فمنطقة سعدون في حالة حرب واستعداد.

تحركت نحوهم ـ السواري ـ دفعة واحدة.. مائة فارس يتقدمهم المجاهد (عون سوف).

وكانت لحظات مزعجة للفرسان الخمسة.

فخافوا أن تطلق عليهم مدافع معسكرهم وأخذوا يكبرون ويلوحون.

وتدارك الفرسان وعرفوهم.

لقد كانت قوات المعسكر والمجاهدين في تلك اللحظات في حالة استعداد للزحف على ناحية العدو الزاحف في طريق «القديرية».

وتقابل رئيس طليعة الفرسان الاستكشافية مع سعدون.

وسأله القائد:

ـ كم عدد القوة للعدو؟.

ـ إنها دون الخمسة آلاف.

وهنا سأل الضابط رئيسه قائلاً:

ـ ماذا تفعل في ترتيب الخط الحربي؟

أجاب سعدون:

ـ اليوم نرجعوا قواتنا، لكن بتاورغا سترى الخطة.

* * *

هذا بينما المجاهد «عون سوف» استمر في كوكبة الفرسان مع المجاهدين المئة وواصل السير من تاجموت ـ إلى معطن «القديرية» وهناك وجد أن الطليان بعد أن وصلوا إلى «القديرية» قد أحرقوا الزرع، ولكن لم تستفحل فيه النار ولم تسر لأنه ما زال في أوائل اخضراره.

وقد تمركز العدو في نقطة «تاورغاء».

* * *

أما الجيش فقد رجع به سعدون إلى مقر تمركزه في نقطة، «تاجموت»، و «ميمون» بعد ذلك استدعى الضابط وقال له:

ـ غداً امش في دورية، وبعد أن تستريح اذهب إلى طليعة استكشاف مرة أخرى.

وهناك اشتكى له الضابط بأن حصانه تعب وضعف.
فقال سعدون:
- شوف من يبيع لك جواد من جماعة الغرب.

وكان هناك في تلك الأيام جماعة من الناحية الغربية ما زالت عندهم خيول جيدة، وكانت من الأنواع التي جلبت من الطليان غنائم.

وذهب الضابط، ولكنه لم يجد حصاناً يشتريه.

كل من حاز حصاناً فضل أن يخوض به المعركة وميدان الفروسية على أن يبيعه.

وأخيراً استطاع أن يحصل على حصان، لا بطريق البيع، وفي اليوم التالي نزل إلى ناحية العدو يرقب..

كان يوم 16 رمضان نهار استطلاع الفرسان.

وفي يوم 15 رمضان 1341 هـ، أي قبلها بيوم كان دخول الطليان منطقة «تاورغاء» ونهار ترقب الفرسان وحرق الزرع في القديرية.
16 رمضان 1341 هـ.

* * *

وفي 17 رمضان:
عاد فرسان الطليعة في صحبة أربعين فارساً، منهم:
أحمد الروياتي، وجماعة من المحاميد ومصراتة وزليطن، وكان يصحبهم الهادي الزريدي.

60 مجاهداً.

100 من فرسان جيش السواري - خيالة.
بينما عاد «عون سوف» مع فرسانه المئة.
وأفاد أن الطليان رجعت إلى «تاورغاء».
كان ذلك في يوم 17 رمضان 1341 هـ.

وقد تمركز الفرسان الأربعون في منطقة تسمى «عرقوب القطا».
وهو يشكل رأساً مرتفعاً في أرض صلبة جرداء.
وتقع على مقربة من أرض «المشرك» إذ بينها حوالى كيلو متر ونصف.

* * *

وهؤلاء الفرسان مسلحون بالبنادق الإيطالية تسمى «أم ستة» لأنها ذات طلقات ست.

وكان المجاهدون كلهم من السواري ـ الخيالة.

وظل هؤلاء الأربعون في نقطة «عرقوب القطا» في حالة تربص من الساعة الثامنة صباحاً حتى مقدار الساعة الخامسة مساء، ثم توجه الفرسان إلى «بئر القويدرية».

وهي على بعد ثلاثة كيلو متر من نقطة «عرقوب القطا».
وسقى الفرسان خيولهم..
وأدوا صلاة المغرب.

ثم ركبوا خيولهم وعادوا إلى نقطة تمركز سعدون «بتاجموت» وكان وصول طلائع الفرسان الأربعين ـ حوالى الساعة الرابعة ليلاً.

في خيمة سعدون:

الساعة الرابعة ليلاً.
وجد الفرسان سعدون ما زال ساهراً لم يغمض له جفن!

كان في خيمته.. وكان معه جماعة منهم:

- الحاج مطاوع السويحلي.
- الشيخ علي بوزازية.
- الشيخ علي السطا.
- المجاهد عون سوف، وبعض من مشايخ الزاوية الغربية.

كان من في الخيمة حوالي اثني عشر رجلاً، ما زالوا ساهرين لم يذوقوا

النوم، وعند ذلك أخبر الضابط القائد سعدون بالحالة.

وبينما هو مسترسل في وصف الحالة الاستطلاعية، دخل الخيمة الجندي «محمد القمودي» وهو من شباب مصراتة.. وكان في حوالي الثلاثين من عمره، وعند دخوله كان في حالة تعب ومظاهر القلق تبدو على وجهة، وكان هذا الشاب «محمد القمودي» قد أرسله «سعدون» في مهمة عاجلة إلى ناحية أراضي نفد وما حواليها يفزع الناس للحرب.

ويطلب النجدة بواسطة الطبل على ظهر جمل.

وهناك ترك «سعدون» الكلام مع رئيس الطليعة للفرسان، والتفت إلى «محمد القمودي»، وقال في لهفة:

- من جاء معك؟

أجاب الشاب:

- ولا شخص!

قال سعدون: أبداً..

كرر الشاب: أبداً ولا أحد..

وكان سعدون متكئاً على وسادة بمرفقه الأيسر فجلس قاعداً ونادى على «الهادي» في عبرة وزفرة:

- يا هادي..

أجاب الضابط:

- نعم..

وعاد القائد وكرر نداءه ثلاث مرات في حالة انفعال شديد وتأثر وبروح متوترة والشيوخ ينتظرون في صمت.

قال سعدون هذه الجملة بالحرف الواحد:

«أقسمت عليك بالذي خلقك أن تصبي معي نهار غدوة واللي يقعد في الدار يعطي كراها».

ودمعت عيون الحاضرين تأثراً لهذه الجملة التي تحمل المعنى العميق الحاد وقد أدركوا أن سعدون قد صمم على أن لا يخرج من المعركة الأخيرة:

إن عبارة:

من يقعد في الدار يعطي كراها، مثل شعبي يدل سياقته هنا على أنه لا محالة سيترك هذه الدار ولكن لن يتركها حتى يخوض آخر معركة.

لقد صمم على أن يلاقي الأعداء.. ولن يفر.. لن يترك الميدان.
لن يتخلى عن السهم الأخير.

وهنا.. وفي هذه اللحظات المشحونة بأسمى العواطف.. وأنبل الأحاسيس رد الفارس «عون سوف» ومن معه في الخيمة من شيوخ الجهاد بهذه العبارة حرفياً:

ـ «لا تخف يا بيّ نحن رجالك.. نحن رجالك.. لا يهمنا جاء أحد.. أو لم يأت أحد..».

وعند ذلك قال سعدون:

قم ابعث الشيخ «علي السطا» والمجاهدين معنا عموماً إلى جبهة العدو وشكل منهم دورية رباط في الخط الأمامي.

وأنت استرح هذا النهار.

وتوجه الضابط الزريدي نحو الشيح علي السطا ومشايخ المجاهدين وأملى عليهم أمر سعدون بالزحف إلى الجبهة الأمامية.

وعند ذلك رد رؤساء المشايخ قائلين للضابط:

ـ لو كان تشاور سعدون نقعد مع بعض خير من أن نفترق.

وكان من رأي الضباط: الهادي الزريدي، وعبدالله السركسي، وعلي القن، وكذلك المشايخ والمجاهدين أن يجعلوا الخط الدفاعي في منطقة «ميمون» على مدخل الوادي وذلك في رأيهم خير للجيش.

ولأن طوابير العدو عند ذلك لا تستطيع أن تختفي.
هكاذ كان رأي الضباط والشيوخ.

أن يرسموا الخط في أرض المعركة.. «فم الوادي» ولكن كان رأي سعدون الذهاب إلى مقر العدو في «تاورغاء» فكانت هناك فكرتان:

إحداهما لسعدون، والأخرى للضباط ورؤساء المجاهدين وقد كانت فكرة هؤلاء ترمي إلى البقاء في هذا الوادي المحصن الصالح للدفاع في نظرهم.

وقد حمل هذه الفكرة الضابط نيابة عن زملائه.

وذهب إلى خيمة سعدون وقال:
- يا بيّ، إن من رأينا تنظيم الخط الدفاعي على حاشية الوادي ومداخله.

فأجاب سعدون.. في إصرار واندفاع سائلاً:
- هل دللت[1] أنت وعلي السطا؟
أمشوا كما أمرت.

ومن المعروف عن سعدون أنه كان عنوداً في رأيه، صلباً في فكرته، ليس من السهل إقناعه بالتخلي عن خطته.

وها هو سعدون أمر بالتقدم إلى جبهة مركز العدو، والبدء بالهجوم عليه، وتكبيده ما أمكن من الخسائر.

وكان شعاره:
- لن يأخذوا البلد ببلاش.
وكان قصد سعدون أن تدور المعركة في أرض «تاورغاء».
أو على حدودها.

بحيث كان لا يريد أن يمكِّن قوات العدو من حرق المزارع أو الزحف إلى أراضي الوديان.

---

(1) دلّ في لهجة ليبيا معناها خاف وجبن.

ولا وضع قواته في أراضي «ميمون» ومنطقة «المشرّك».

فقد كان يريد أن يجعل العدو بعيداً عن مناطق الصحراء التي سيواصل فيها سعدون جولاته الأخيرة.

* * *

في شهر مارس 1923م.
التأمت كوكبة من المجاهدين وكتائب المناضلين.
رغم الجراح والهزات فما زالت لديهم رغبة في مواصلة النضال.
رغم رداءة الأحوال ومعاكسة الظروف.

مجاهدون من العرب الأقحاح ـ إن فرسان المحاميد والزاوية ومصراتة وزليطن وغيرهم من مختلف المناطق.

رغم الجلاء عن «مصراتة» واحتلال شواطئها، وسد المنافذ المؤدية إليها.

رغم جبروت «غرزياني» السفاح.

هؤلاء الفرسان يواصلون النضال مع سعدون.

وسعدون شيمته أن لا يتأخر عن خوض المعارك الوطنية.

ولو كانت من قبيل عمليات الانتحار والفدائية.

ولو كانت غير مضمونة النتائج.

لقد رأوا من الخطة العسكرية أن ينتقلوا إلى منطقة تاجموت ـ القديرية... ليستطيعوا مراقبة حركات جيوش الطليان، وتكون عمليات المراقبة من قريب.

مهما كانت خطط وقوة الجنرالات والضباط ذوي النفخة الرومانية، ومهما أخذوا يرسمون في خرائطهم ويبرقون إلى «روما» مبالغين في بلاغات تشوه الانتصار.

شهران.. بعد احتلال مدينة مصراتة والعدو يتأهب ويتهيأ ويريد أن يمتد

ويتنفس ولكن السوار مطبق ومضيق عليهم بقيادة المجاهدين الذين يسدون على قوات العدو طريق الامتداد.

لقد ظلت قيادة الطليان بعد احتلالها مدينة «مصراتة» تهيىء نفسها وتعد عدتها وعديدها لمطاردة المجاهدين وتضييق الخناق على البطل سعدون.

وإن احتلت جحافل الطليان «مصراتة» شاطئاً ومدينة ـ لكنهم غير مطمئنين لأبناء الصحراء.

فهم فرسان أدرى بمسالكها، وقد فطروا على فن المقاومة، ما زال الرعب من مقاومة سعدون يهز نفوس الطليان وأذنابهم.

* * *

في يوم الخميس 14 رجب 1341 هـ.

كانت تجمعت ما بقي من قوات سعدون على معطن «تاجموت» في وادي «ميمون».

وفي يوم الجمعة 15 رجب 1341 هـ.
تجمعت قوته على أثماد «أم العرفج».

خط السير:

وإذا ألقينا نظرة على خط سير سعدون قبل أن يلتحم في معركة المشرّك نجده هكذا من نقطة مخازن عبد الرؤوف إلى:

1 ـ سيوطة ـ وبعدها انتقل إلى:

2 ـ ساسو ـ ثم سار بعد ذلك إلى:

3 ـ المشرّك ـ ومكث بها ثلاثة أيام وهناك خطب في الجماهير من أراد العودة للبلد ليؤمن النساء والأطفال فله ومن أراد أن يستمر معي فإني سأواصل الجهاد، ثم بعد ذلك إلى:

4 ـ أم العرفج ـ ومكث بها أربعين يوماً ويطلق عليها أيضاً «أمهات العرفج»

وهناك مع أن القوات الإيطالية زحفت صوب تاورغاء فترك أم العرفج ـ وذهب ليتمركز في نقطة.

5 ـ تاجموت ـ وبقي هناك يومان ثم في اليوم الثالث ذهب إلى نقطة.

6 ـ المشرك ـ وهي على بعد ستين كيلو متراً من «تاجموت» وكانت المعركة الأخيرة للبطل المناضل في «المشرّك» واستطاع وهو في مكانه الجديد أن يجمع حوالي 300 مجاهد.

ملاحظة: من نقطة عبد الرؤوف إلى قرارة مريم (10) كيلو متر ومن قرارة مريم إلى أمهات العرفج (8) كيلو مترات.

سعدون في آخر ليلة:

كان معسكر سعدون على بئر «تاجموت» في وادي «ميمون» وكان هناك نظام دقيق وأوامر صارمة للحراسة لأن سعدون.. يدرس الموقف مع الضباط ورؤساء المجاهدين حتى أنه كان من طريف ما حدث:

انه قدم للمعسكر أخو سعدون ـ أحمد ـ وخال سعدون ـ شتيوي بن سالم الكريك.

فمنعهما الحرس من الدخول إلى خيمة سعدون وهنا تأثر ـ أحمد ـ أخوه الذي يكبره، وغضب، وذهب وحط فرسه عند سدرة قرب المعسكر ولكن خاله ألحَّ ولا فائدة.

كان سعدون لا يريد أن يدخل عليه أحد من الذين يفسدون عليه رغبته في الهجوم.

وقد كان سعدون في تلك الليلة في حالة نفسية منبسطة ومطمئناً.

وكان السمر والعشاء الأخير مكوّن من «بازين».

تلك الأكلة الشعبية التي صنعت من دقيق الشعير والأدام وكان قد أعدّها المسؤولان عن طهي طعام الجنود عبد السلام بن بركة، وعمر فرج.

* * *

وكان في خيمة سعدون في تلك الليلة الأخيرة المجاهدون:

● عون سوف. علي اسطا. محمد التريكي. علي إبراهيم القن. عمر قطيط أبو شعالة. المطاوع السويحلي.

ثم خال سعدون الذي جـاء متأخراً ودخل متسللاً بدون علم سعدون وكان سعدون يتفقد العسكر.

ثم شربوا الشاي، على الطريقة المعتادة ثلاث أدوار في عمليات مكررة.

وكان سمراً طويلاً، يدور حول الموقف، ومعركة الغد.
وذكريات من معارك النضال.
ولم ينم من هؤلاء أحد، ولم يغمض لهم جفن.
إلا بعض أخذ سنة قليلة وغفوة غير كافية.
في تلك الجلسة بالخيمة في هذه الآونة العاصفة.

تداولوا في سير المعركة. وخطة اللقاء.. لقاء الجيش الإيطالي الزاحف. كان العدو على مقربة منهم في أرض «تاورغاء».

ورأى سعدون أن يرسل للاستطلاع وضبط تحركات العدو في ناحية تاورغاء جماعات من الفرسان.

من كل قبيلة عشرة من الفرسان للقيام بالدوريات الاستطلاعية وإذا أحسوا أن قوات الطليان تتحرك نحوهم بعثوا لإعلام معسكر سعدون، ـ الذي هو على تاجموت.

وكان بين تاورغاء والمشرك حوالى 15 كيلو متراً.

تعليمات سعدون هكذا ـ عشرة فرسان من كل قبيلة للاستطلاع ولكن عارضه في هذه الفكرة:

عون سوف ـ عمر بو شعالة ـ محمد التريكي.

عارض هؤلاء سعدون في خطته.

ولكن سعدون أصر على إرسال عشرة فرسان من كل جماعة.
وفعلاً قامت الكوكبة من الفرسان للاستطلاع.
وانطلقوا من ساحتهم.

وفعلاً شاهدوا القوة الزاحفة ـ وعاد منهم فارسان يحملان الخبر لسعدون.

وبقي منهم ثمانية للمناوشة والمراقبة.

عاد النذير مسرعاً يعلم معسكر سعدون أن قوات الأعداء ظهرت أكيداً وزاحفة من ناحية تاورغاء وكان هذا الخبر قد وصل عند بزوغ الشمس.

وركب أولاً طليعة الفرسان من معسكر ـ تاجموت.
وحثت السير وأسرعت في الانطلاق نحو القوة الزاحفة.

وكانت هناك قوة المشاة مع سعدون في المعسكر وزحف سعدون وقابل جحافل وطوابير الأعداء.

* * *

وعندما تقابل الفرسان الذين في الطليعة ونازلوا قوات الطليان والأحباش الزاحفة عند نقطة شرقي «المشرك» وجد الفرسان المجاهدون أن زملاءهم من فرسان الطليعة من حركة الاستطلاع يكادون أن يقعوا في الكمين الزاحف.

وكان من جملة الفرسان:

- عون سوف المحمودي.
- إبراهيم بن رمضان الشتيوي.
- علي بنيني.
- هويسة.

والأخيران من فرسان الزاوية الغربية، وقد اشترك في معركة «المشرك» فرسان من الزاوية الغربية، والمحاميد ومصراتة وبن وليد وبن غثير وكانت علامة فرسان الجبهة الغربية عند ـ اللهّيد ـ أثناء مهاجمة العدو خلع طاقية

الرأس ووضعها في الخرج، ومن طريف ما حدث أن قال «عون» لصاحبه «شتيوي»:

ـ لف نفسك الجماعة عملوها..

أراد الهجوم، ثم قال:

ـ هذه علامة اللهيد الجماعة خلعوا الكبوس..

* * *

وظل الالتحام حوالي ساعة ونصف مع الفرسان المجاهدين.

ولكن بعد هذا تراجعت فرسان الطليعة لأن القوات الزاحفة فوق التصور ومما يذكره المساهمون من فرسان الطليعة في هذا اليوم.

سقط أحد الفرسان من ـ المحاميد ـ تحت حصانه، واسم هذا الفارس ـ الطاونجي.

وأسرع إليه ثمانية من الفرسان كانوا على مقربة منه وتداركه إخوانه وأنقذوا الفارس من قبضة العدو الذي يلاحقه ـ وسقط الحصان ـ ولكن الطاونجي ـ جذب السرج بقوة وصاح قائلاً:

ـ والله ما نخليه ليهم..

فكانت ضحكة خفيفة من الفرسان، رغم اللحظات الحرجة.

4 مايو

ظلت القيادة الإيطالية ترسم الخطة تلو الخطة. . ثم تلغيها وامتلأت سلة المهملات بنماذج من الخرائط والتخطيطات وتكاثرت الاجتماعات والتقارير السرية.

فالبلاد واسعة مترامية الأطراف.

وعقيدة أبناء هذا الشعب محمديون يرون الجنة تحت ظلال السيوف ويرون الشهيد خالداً له البقاء وعندهم الموت في ساحة المعركة أسمى درجات الشرف فيتسابق إليه الرجال.

أشرف من البقاء تحت ربقة غاصب محتل.

ويظل اسم سعدون. . وشبح «سعدون» في مخيلتهم وتتراءى أمام خيالهم أشكال من المقاومة التي خاضها هؤلاء العرب.

سعدون. . طالما تمنوا أن يعلقوا رأسه.
أن يرسلوه أسيراً مقيداً.
ليقضوا على هذه الأسطورة.

وهل هذا الشاب الفارس بقية من فرسان الأساطير لقد دوخهم أمام الشاطىء وأتعبهم وهو في المدينة، والأسطول أمامه بمدافعه وذخائره والطائرات فوق رأسه ترسل قذائف اللهب، فهل يطيقون مقاومة سعدون، وقد ضمته الصحراء الحنون؟. .

* * *

ويدرسون الخطة تلو الخطة، ويهيئون الاجتماع تلو الاجتماع.

لقد استعملوا في مقاومة هؤلاء العرب المجاهدين كل سلاح: القنابل، الغارات، المدافع البحرية، السلاح الأبيض؛ الخديعة والمخاتلة، الجواسيس، الذهب.

كل سلاح جربوه، وكل أسلوب حاولوه.

* * *

و «سعدون» انطلق في الصحراء.
وهرشوا رؤوسهم وأقفيتهم الغليظة.
لقد طالت هذه المحاربة.
وبعد فشل خطتهم في القبض على سعدون.

وخروجه إلى الصحراء مع قوات من الجيش والمجاهدين وبعد احتلالهم المنطقة الشرقية من طرابلس ظلت قيادة الطليان من يوم 26 فبراير إلى أواخر أبريل وهم يتحفزون للخروج للمجاهدين الذين امتلأت بهم الوديان والسهول مع البطل سعدون.

وعملوا ألف حساب.
وقدموا رجلاً وأخروها خطوات.
وتداولوا في مركز قيادتهم.. وطالت المداولات.

فقد كلفتهم المقاومة في «قصر أحمد» والمدينة ضحايا وأسلاباً، فكيف بالمسالك والوديان؟.

وفي إحدى المداولات في مركز قيادة الطليان هرش ضابط كبير رأسه وقال:

- هل تعلمون من سيكون قائد الحملة؟

وخاف كل ضابط أن يكون هو.. أن يقع عليه الاختيار.
ولكنه قال: غرزياني!

وخرجت قوة كبيرة بعد أن رسم لها غرزياني الخطة مؤلفة من:

1300 جندي، و 2000 من الخيالة.

وقوة من المدفعية خرجت لتحتل «تاورغاء» وتطارد المجاهدين وتقضي على مقاومة سعدون.

وتحركت هذه القوة في شهر مايو 1923 م.

وتساقط شهداء سمر الوجوه، في عيونهم بريق الإيمان، وصفاء العقيدة والإخلاص للوطن المعتدى عليه.

وكان من بين شهداء معركة «تاورغاء» الشهيد:

● خالد مدالي.

وما سقطت «تاورغاء» في أيدي قوات «غرزياني» حتى أصبح الطريق لهم معبَّداً مفتوحاً نحو المكان الذي يرابط فيه سعدون والفرسان.

وبعد ثلاثة أيام.. في يوم 3 مايو 1923 م.

التقت إحدى دوريات المجاهدين التي كانت ترابط في تحفز وثبات على «تاجموت» بثلة من خيالة الطليان.

وفي 4 مايو 1923 ـ كانت المعركة الكبرى، حافلة بأروع آيات البطولة والفداء.

4 مايو ـ أنشودة في معزف الخلود.

سطور بالدم حفرت في تاريخ البطولات.

يوم.. يشهد بأن البطولة في هذا الشعب معنى لا يغيض، إنه امتداد لأيام ومعارك..

وفصل من كتاب الوطنية الصادقة.

امتداد لأيام الشعب في بطولات «الهاني» و«القرضابية» والسبت.. إنه يوم فزعت فيه قلوب الأعداء، وبلغت الروح الحلقوم.

والتفت الساق بالساق.

هل هنا جنّ يقاتل.. أم بشر من لحم ودم!؟.

معركة المشرك

زحفت قوات الجنرال الطلياني في جحفل كبير ودارت معركة: **المشرك**.
من مطلع الصباح حتى ارتفاع صوت المؤذن بصلاة العصر.
ولقد كان قتالاً مريراً.

وكانت القوات الإيطالية الزاحفة متشعبة وكثيرة، حتى أنه يتجاوز طول الطوابير وعرضها أربع كيلومترات، هكذا وصفها الذين شاهدوها، وخاضوا معركة الجهاد، وكانت تبلغ من ناحية العدد أضعاف ما عند سعدون.

وكانت القوة العسكرية التي مع البطل سعدون على النحو الآتي في معركة «المشرك»:

خمس بلوكات من الجيش النظامي.
كل بلوك - سرية - يشمل 196 عسكرياً نظامياً.
ومجموع أفراد البلوكات الخمس حوالى 980 جندياً.
كان كل بلوك به 4 ضباط.
فيكون مجموع الضباط حوالى 20 ضابطاً.
وكان رئيس - البلوك - برتبة - قومندان -.

* * *

وكانت القوة على هذا الشكل:
150 مشاة.
200 طوبجية.
25 برزان بوري.
100 نقلية.

فمجموع القوة العسكرية في معركة المشرّك حوالى 1400 جندي.
هذا عدا قوات المجاهدين والفرسان.

* * *

وكان قائد الجيش الإيطالي ورئيس الحملة الجنرال «مازيتي».
كانت قواته فوق عشرين ألفاً.
مع أن قوات سعدون 1400 جندي.
واللقاء في أرض مكشوفة ومنطقة مسطحة جرداء، ليس بها غابة أو كهوف، يمكن الاختباء بها أو المناورة. أرض «المشرك» ليس فيها أكمات ولا حفر ولا صخور تصلح للمقاومة والمحافظة على الجندي الضارب بالرشاش.

من رؤساء المجاهدين في معركة المشرك:

- علي أسطا.
- عون سوف.
- علي المستيري.
- إبراهيم شكلاوون.
- إسماعيل العايب ـ كان رئيس جندرمة.
- الحاج علي الكبير.
- الشيخ علي بنيني.
- أحمد الشوشان ـ كان الحارس الخاص لسعدون والملازم له دائماً.
- حسين عبد الملك.
- يوسف شنب السركسي.
- عبد الله المعداني.
- عبد العال القزيري.

ومن الجيش وخريجي مدرسة نوري:

- علي الشباح.
- أحمد القمودي.

- علي القن.
- سالم زوبيك السركسي.
- علي بن أنوبجي.
- أحمد الشعافي متدرب في الآلاي.
- المهدي حميدة.
- كاره: في المشاة.
- الهادي الزريدي.
- الشلبة: مدافع.
- عبد الله السركسي.
- محمد إبراهيم.
- سالم الشرفي.
- علي خليل: من الجندية.
- السنوسي أبو بلقاسم.

وكانت هذه ترتيبات الطوابير وأسماء ضباطها الذين خاضوا معركة المشرك مع سعدون:

1 ـ برنجي بلوك السرية الأولى	عبد السلام الساحلي كان عمره 30 عاماً، وأصله من ساحل الأحامد ودرس في مدرسة نوري.
2 ـ كنجي بلوك السرية الثانية	إبراهيم شنينة[1]. من قبيلة المقاوبة ـ مصراتة ـ كان عمره 26 عاماً درس في مدرسة نوري.
3 ـ تشنجي بلوك السرية الثالثة	عمر سليمان الضراط كان عمره 30 عاماً، ودرس في مدرسة نوري وقد نال حظ الاستشهاد في المعركة.

(1) اجتمعت مع الضابط إبراهيم شنينة في مصراته عدة اجتماعات وله ذاكرة قوية استعرض بها المعارك التي ساهم فيها.

4 ـ دردنجي بلوك السرية الرابعة — الهادي القماطي، كان عمره 30 عاماً من قماطة، درس في مدرسة نوري.

5 ـ باتشينجي بلوك السرية الخامسة — محمد عمر الفقي، درس في مدرسة نوري.

وكان علامة الخطر والاستعداد هو صوت النفير العسكري المسمى (برزان حضور).

وأما صفوف المجاهدين الفرسان فإن الاستعداد كان هو صوت الطبل وطالما في تلك الربوع سرى صوت البرزان في المعسكرات وطالما دوى صوت الطبل في جنبات الوديان والصحارى.

كان سعدون مكث في «أم العرفج» مدة أربعين يوماً.

وفي أواخر شعبان أخذ ما بقي من المعسكر إلى وادي «ميمون» على بئر «تاجموت».

كانت طلائع الفرسان التي أرسلها من طرفه مرابطة على حدود تاورغاء وخرجت إليهم قوات العدو بتاريخ يوم الجمعة 18 رمضان 1341هـ.

ونشبت المعارك ما بين قوات المجاهدين وقوة الطليان.

وأرسل المجاهدون رسولاً على ضامر طالبين النجدة.

وبلغ سعدون أن الموقعة بدأت بين الطرفين هناك في وادٍ يسمى: «وادي المشـرّك».

ودق الطبل، وتواصل دويه في جنبات الصحراء، ووديانها الفسيحة وصهلت الخيول.

وركب الفرسان على الجياد، وانتظمت كوكبة المناضلين والمشاة وجهز المتراليوز وتسابقَ المجاهدون إلى ساحة النضال وتقابل الفريقان.

أرض جرداء، وصمت رهيبة مزقه دوي الرصاص، وأهازيج الفرسان.

كان البطل سعدون في المقدمة ممتطياً جواداً أحمر.

ويلهب القائد الصفوف بتكبيراته ووثباته.
وينادي بلسان فصيح، وحماس مثير. . وسلاحه في يده:
ـ مزقوهم. . مزقوهم. .
وكان المجاهد القائد راكباً جواده الذي خبر الصحراء.
ودرب على خوض المعارك.
وأصيب الجواد بطلقة نارية. . ومات الجواد.
بينما هم في هذه الحالة. . أتت نجدة لصفوف الأعداء. . نجدة من الأحباش واستطاع العدو بعد مزيدٍ من المشقة والصعوبة وبعد تساقط العديد من صرعاه أن يتقدم. .
وكان من ضباط المعركة الشهيدان:
* سالم مسعود الشرفي.
* عبد الرحمن التريكي.

وكان ـ التريكي ـ على المدفع الرشاش.
وصبر المجاهدون في ثبات.
واستطاع الطليان والحبش أن يعملوا كماشة.
وكان سعدون قد طوّقته هذه القوة.
وصرع حصانه الذي كان يخوض به المعمعة.
وقام ناهضاً وأتوا له بحصان «محمد الرملي» وبينما كان سعدون يهم بركوب الحصان ووضع رجله الشمال في الركاب انهالت عليه الطلقات متواصلة.
وأصيب البطل الفدائي في ساقه.
والإصابة الثانية في جبينه.
والإصابة الثالثة التي قضت عليه كانت في جبهته.
وتضرج في دمه الزكي.

* * *

وفي تلك المعركة، في ذلك اليوم الرهيب، في معركة «المشرك» استشهد

معظم الرجال، وكانت أرواحهم تحصدها النيران فداء للوطن، ودفاعاً عن الحرية للشعب المناضل.

وكان من المصابين بجراح قومندان المشاة «علي إبراهيم القن».

كسر فخذه، وصرع بعد ذلك حصانه.

ولكن الحصان لم يسقط إلّا بعد أن خرج بصاحبه من ميدان المعركة.

وهناك سقط الحصان صريعاً.

والضابط «علي القن» تداركه أصحابه وأركبوه جملاً وحملوه إلى الصفوف الخلفية.

وكان من الجرحى أيضاً المجاهد «الشيخ علي بنيني».

* * *

أما قائد البلوك الثاني ـ الضابط ـ «عمر سليمان الضراط» فقد أنجده أول الأمر مدفعه الرشاش من طلقات العدو وصوبت إليه المدفعية الإيطالية الرصاص فتكسر مدفعه، وحصانه صرع.

وبعدها تقدم أفراد من الجيش الإيطالي وأدالوا الشهيد ـ عمر سليمان الضراط ـ بالسلاح الأبيض.. وخضبت الأرض بدمائه الطاهرة مع إخوانه الشهداء.

بعدها انسحبت قوات الأعداء وانسحبت قوات المجاهدين، كل يظن أن خصمه تغلب عليه، ترك الفريقان القتلى والجرحى.

لقد كان سقوط سعدون في الساحة ضربة قاصمة لظهر المواطنين.

من شهداء يوم المشرك:

ومن الشهداء الأبرار مع البطل سعدون في يوم المشرك:

الشيخ السنوسي الكاسح، من قبيلة العبادلة.

الشهيد محمد عبد الله الدكام، من قبيلة الطبول.

الشهيد رمضان عبد السلام الأدغم، من عين سالم يدر.

الشهيد سعيد بن موسى، . . . ضابط مسؤول عن فريق البرزان.

الشهيد عبد الرحمن التريكي، من شيوخ وأفاضل الزاوية الغربية وكان يصوب الطلقات إلى صدور الأعداء وقد أصابته طلقة من الأعداء بينما كان يواصل عملية الإطلاق من مدفعه.

الشهيد عبد الله بن مليطان: وكان يساعط الضابط «سالم الشرفي» وكان من جنود الرشاشات استشهد في ربيع عمره وكان في حوالي العشرين.

الشهيد الشيخ طاهر بن الشيخ رمضان بو تركية، من قبيلة الرملة، أصابته رصاصة في يده فقيل له من طرف زملائه تأخر يا طاهر فرفض وأصر على المقاومة، وكان في العشرين من عمره عندما ضربه الأعداء بالسلاح الأبيض.

الشهيد محمد بن صالح دقيق، من قبيلة الغرابة، كان عمره في يوم المشرك دون الأربعين.

محمد مفتاح فتولة جُرح.

الشهيد مكي بن عامر، في حوالي الخامسة والأربعين. من زمورة ـ استشهد بعد المعركة وكان في صدره كناش الزورق بخط الامام الفقيه وأصابته رصاصة من قوات الطليان في انسحابها.

الشهيد سالم مسعود الشرفي، كان برتبة ضابط من سلاح (المتراليوز) الرشاشات.

متخرج من مدرسة مصراتة، العسكرية، وهو من قبيلة ـ معدان ـ. وعند استشهاده كان عمره دون الأربعين. أسمر الوجه أربش في وجهه آثار من الجدري وهو صغير. كان مصرعه بالسلاح الأبيض.

وكان على مدفع ـ متراليوز ـ من نوع مسكوف وأُصيب بإصابة خطرة في يده.

قال له: زملاؤه: تأخر. . وأفسحوا له الطريق، أجاب: لا. . لا. . واستمر الضابط في محاولته المستميتة.

وعندما حاصرته النيران.. وأطبقوا عليه، وعجز عن مواصلة الضرب، حاول أن يتأخر قليلاً.

وهنا هجم عليه الأعداء، وأطاحوا رأسه بالسيف. وكان الشهيد «سالم مسعود الشرفي» في طول سعدون ولون بذلته العسكرية تشبه بذلة سعدون وظنه الطليان عندما سقط شهيداً أنه سعدون وسرعان ما حملوا جثمانه معهم ظناً أنه إياه وتركوا سعدون طريحاً.

جثمان الشهيد البطل:

في يوم السبت 19 رمضان 1341هـ.

اجتمعت صفوف المجاهدين في وادي ـ نفد.

بالقرب من قارة السدادة.

وفي يوم الأحد التالي للمعركة رجع المجاهدون إلى ساحة المعركة لنقل جثمان الشهيد البطل.

ونقل إلى موضع «السدادة».

فقد كلف أخوه ـ أحمد ـ يوم 20 رمضان في مساء الأحد الضابط الذي كان بجانب سعدون عند استشهاده وهو المجاهد.

● محمد الرملي.

وقال لـه:

اذهب إلى ساحة القتال حيث دارت المعركة فإذا وجدت جثمان سعدون احمله على هذا الجمل.

وفوراً ذهب الضابط «محمد الرملي» إلى ساحة المعركة فوجد جثمان الشهيد البطل في مكانه، وجده كأنه نائم ووجد بعض الجرحى لا زالت الروح فيهم، وإن كانت في الرمق الأخير فوزع الضابط عليهم ما كان معه من جرعات ماء وحمل الجثمان على الجمل.

وجاء به إلى موضع ـ السدادة ـ.

وحضر المجاهد «سوف» وولده الفارس «عون» وابن أخيه سعيد وعبـد

الرحمن ومعهم كوكبة من الفرسان قوامها سبعة وثلاثون فارساً واصطف الضباط والجنود والفرسان ـ.

وانتظم صفان.

يؤدون تحية الفروسية والوداع.

تحية البطولة في خشوع.

للبطل الشاب الشهيد.

ومن بين الصفين حمل الجثمان الطاهر في لحظات رهيبة ودفن البطل الشهيد في مقبرة بجوار قارة ـ السدادة ـ.

قبر وحيد في صحراء جرداء صامتة.

ولما جاء الناس ليعزوا أهل سعدون.

قال أخوه وأقاربه وأصدقاؤه.

وقال الضباط والجنود الذين صحبوه:

كل واحد يعزي نفسه سعدون للجميع.

نعم سعدون للجميع.

بذل روحه للوطن والواجب واستشهد وهو في الثلاثين من عمره.

لن ننساه ـ جزء حي ونابض من تاريخ الشعب، ونضال الشعب، سارية من النور في طريق الحرية.



سعدون في الشعر الشعبي

وصف أحد الشعراء الشعبيين معركة «يوم المشرك» الخالدة بقصيدة مطولة من ضمنها:

يـوم «المـشـرك» مـشـين يـومـه
ضبّـح سـوق بـالـدلال عـالي سـومـه

يـوم يحـيّر . .

يـوم ـ بيّنـا ـ فـوق الحصـان يتـيَّر
مـا مـات لـين الـربـع مـنهـم طـيّر
لـيـه قصـر في الجنـة جـديـد مجـيّر
والـدهـر لـلحيـين زاد همـومـه إلـخ

* * *

قال الفارس المجاهد «سوف المحمودي»: عندما شاهد قوات «محمد سعدون» النظامية، وهي تقوم بالتحركات والاستعدادات والطوابير المتحمسة تتمرن على المناورات لمعركة الصحراء:

قبل جانا جوب محمم
على حكومة الطليان قالوا عمت
لكن «محمد شتيوي» في العرب ما سلَّم
آهو صابح عسكره يتعلم
وربي يمده والنصر من مولانا.

* * *

وصف معركة «المشرّك»:

ومن نظم الشاعر الشعبي «علي الأحيمر». .
وقد حضر معركة «المشرّك»
صار نهار في السمحاية[1]
صهده حامي شين
اللي استشهد فيه غاية[2]
من الناس المرحومين
واللي هارب
معدم رايه
وراه الغنايين[3]
الفلاقيات هم والطليانيات[4]
ردوا العـادات[5]
طق لبومشط زرارات[6]
خيل سقيمات
يقسو البنادم على اللفات
الفلاقيات، اتزموا في الطليانيات[7]
كيل جمامات[8]
تبديل الستة بستين[9]

---

(1) السمحاية: الأرض الجرداء التي صارت فيها معركة المشرك.
(2) غاية: إي غاية ما كان يتمناه الفارس المجاهد وهدفه أن يغدو شهيداً.
(3) أي أن من يحاول الهرب فهناك المغنون والشعراء يصورون جبنه ويسجلون عار هربه.
(4) لأن الطليان كان يطلق على كتائب وفيالق المناضلين كلمة ـ فلاقة ـ.
(5) أي عادة الفروسية والنضال.
(6) بومشط زرارات: نوع من البنادق كان يستعملها المجاهدون.
(7) أي أن طوابير المجاهدين خاضوا المعمعة في زحمة من طوابير الطليان.
(8) أي بالكيل الوافي.
(9) أي الستة بإثنين ـ أي إثنان من المناضلين بستة من الأعداء.

عجبتوا يا عقد العشرين [1]
خديتو في «سعدون» تنين [2].

بو مشـطه:

شاعر شعبي يسمى «القيـب» يقول عن سلاح «أبو مشطة» الذي كان في يد المجاهدين:

منين تكلم بومشطة تكلم صادي
رقيق الغرض على الهاربين ينادي
مسدت على شوشتها
منين قالوا ـ الكفرة ـ زوت حبتها
منين ـ المنحس ـ شين في تغريده.

* * *

- شوشتها أي فم البندقية.
- زوت حبتها انطلق الرصاص.
- المنحس ـ الرصاص.

ومن الأبيات التي يرددها الجنود في حالة المزاح والتفكه عندما يشتد عليهم نظام التدريب الصارم، ويجدون خبز الشعير القافر فيرون الاستشهاد أريح من مشقة التدريب على سبيل المزاح..

الـلي حضر يـوم «السبت» مبـروك يـومـه
أفتـك من الـلريـاط[3] ـ والمفـرومـة

(1) إشارة إلى فرسان «الصيعان» الذين ساهموا مع «سعدون» في موقعة «المشرك» وكانوا عشرين فارساً من قبائل الصيعان ـ وأيضاً من النواحي الأربعة.

(2) إشارة إلى أنه عندما سقط «سعدون» مدرجاً بدمائه تحمس المناضلون وخاضوا ملحمة طاحنة، واختلط الفريقان ـ وفي لحظة أطاحوا باثنين من كبار ضباط الطليان.

(3) اللرياط ـ طابور التدريب.
المفرومة ـ خبزة الشعير.

مغارك شاطىء «مصراتة»:

هناك فترتان لنضال شاطىء مصراتة.

الفترة الأولى عند غزو الأسطول 1911 - 1915م.

معارك قبل القرضابية.

1 ـ قصر أحمد.

2 ـ الرميـلة.

3 ـ جرف المقاصبة.

معارك بعد «القرضابية»

1 ـ رأس الطوبة.

2 ـ بوفار ـ السبخة.

وهذه المعارك قبل أن يستلم سعدون قيادة الجيش والمجاهدين فكانت في أيام أخيه المجاهد «رمضان شتيوي».

المعارك التي خاضها سعدون.

1 ـ قصر أحمد ـ ويوم السبت.

2 ـ السلحيبة.

3 ـ الحمام، أرسل نجدة لها وسعى للوصول إليها.

4 ـ عين كعام ـ ترغلات بزليطن.

5 ـ المشـرك.

قائمة بأسماء بعض الخريجين من مدرسة نوري العسكرية بمصراتة [1]

هذه مدرسة لها ضلع وافر في تنظيم وتركيز حركة الجهاد المقدس وأثرها ملحوظ في تدعيم حركة النضال، فقد عملت على تقديم الضباط وصف الضباط والجنود المدربين إلى ساحة الكفاح الوطني.

وقد قامت بعد «القرضابية» إذ شعر المسؤولون بضرورة إيجاد هـذه المؤسسة فكانت من حسنات ذلك العهد، وكانت أولى الدفعات 80 متخرجاً. كان مدير المدرسة «محمد أمين بك» وهو من «الأناضول» يوزباشي من قسم المشاة، ومن الناحية السياسية كان من جمعية الاتحاد والترقي.

وكان هناك في إدارة المدرسة أيضاً «خالد» ملازم أول قسم المشاة كان يدرب في مدرسة نوري العسكرية وكان يطلق على المدرسة (مدرسة صف الضباط).

وبعد أن نقل «محمد أمين» إلى الرئاسة الغربية حيث قيادة أمير اللواء إسحاق في الزاوية كان ذلك عام 1917 لما توفي «عبد الحليم المصري» في الزاوية من شظية قنبلة ألقتها طائرات الأعداء، بقي «خالد» يدرب صفوف الضباط في المدرسة، وكان أوان ذاك قائد جبهة الخمس اليوزباشي «حسن المغربي» من يدّر مصراتة.

وفي إحدى المعارك أُصيب بجرح، فأرسلت الرياسة العامة بدل «حسن

(1) راجع صفحة 78 من هذا الكتاب.

المصري» يوزباشي يسمى «علي غالب» تركي وعندما مرض «خالد» مدير المدرسة طلب الرجوع لاستانبول للعـلاج لعدم ثقتـه في الأطباء الـطليان الأسرى.

سافر للعلاج وأسندت إلى «محمد رفعت» مديرية تدريب صف الضباط مع بقائه مترجماً للبرنس عثمان فؤاد.

كان تأسيس المدرسة عام 1916م واستمرت حتى عام 1922م.

زهاء خمس أو ست سنوات.

بقي بها «أمين بك» مديراً عامين فقد عاد إلى استانبول في عام 1918م قبل أن يحتل الحلفاء مدينة استانبول ـ كان عمره حوالى 47 عاماً.

ومن المدرسين بالمدرسة:

- عمر الميساوي، للغة والدين.
- عبد الرحمن الفزاني، للغة والدين.

ومن العسكريين:

عبد الله أفندي جركس وهو تركي ضابط في حوالى الخامسة والأربعين وكانت الدراسة تبدأ يومياً من الساعة السابعة صباحاً وفي المساء تدريبات عسكرية.

وهنا نسرد جدولاً صغيراً بأسماء بعض الخريجين.

وإن كان غير شامل لجميع الأسماء فعلى الأقل هذا جانب من جوانب وصفحة من صفحات وقد شمل شباباً من أنحاء البلاد في فترة المقاومة الوطنية، وقد أرسل المسؤولون رسائل إلى المتصرفيات والأعيان لإرسال أبناء البلاد للتدريب في هذه المدرسة لمواجهة أخطار الغزو الاستعماري، هذا وقد عني بها «سعدون» فيما بعد إذ وجد في أبنائها سنـداً أفاد تـدعيم حركـة المقاومـة الوطنية...

الاسم	البلدة
علي إبراهيم القن	مصراتة
عبد الله الزقل	مصراتة
المبروك الفرجاني	مصراتة
عبد السلام البرقلي	مصراتة
علي بن سليم الشيخي	مصراتة
بشير الرايس	مصراتة
علي زبيك النعايمي	مصراتة
سليمان الزريدي	مصراتة
عبد السلام التركي	مصراتة
عياد الشويهدي	مصراتة
عمر سليمان الضراط	مصراتة
علي الأزرق	مصراتة
عبد الله الأشهب	مصراتة
عبد القادر فطيس	مصراتة
محمد الرملي	مصراتة
محمد معافة	مصراتة
مهدي بن حمادة	مصراتة
سالم وقة	مصراتة
محمد عمر الفقي	مصراتة
سالم مسعود الشرفي	مصراتة
محمد بن الفقي حسن المنتصر	مصراتة
أحمد بودبوس	مصراتة
أحمد ساطي	مصراتة
رحيمة القريد	مصراتة
السنوسي بلقاسم الضراط	مصراتة

الاسم	البلدة
عبد الله الزدام	زليطن
علي نويجي	زليطن
علي بن حسن	زليطن
عثمان القماطي	قماطة
محمد سيف النصر	العزيزية
معتوق بوحلالة	العزيزية
الصادق الكميشي	غريان
أبو عبد الله الكموني	غريان
بشير شيمة	غريان
الناصر محمد بن خليفة	غريان
بشير الضبع	غريان
أبو عبد الله	غريان
محمد بن عبد الله اليعقوبي	غريان
صالح اليعقوبي	غريان
الصادق النعاس	غريان
محمد شكير الزاوي	الزاوية الغربية
الشيباني محمد هويسة	الزاوية الغربية
المبروك الصادق البلعزي	الزاوية الغربية
محمد الصواخ	الزاوية الغربية
محمد العريفي	الزاوية الغربية
محمد البهيليل	طرابلس (المدينة)
إبراهيم المجراب	طرابلس (المدينة)
سالم المجراب	سوق الجمعة
الطاهر الحافي	سوق الجمعة

الاسم	البلدة
مصطفى الجزيري	الجزائر وهو مجاهد من الجزائر تخرج من مدرسة مصراتة وساهم في عديد من المعارك مع رمضان شتيوي وسعدون.
ميلاد بورزيزة	النواحي «الأربعة»
حسن الريح	الختنة
حسين كاظم بوخريص	من أولاد طويل
أحمد الزنتاني	الزنتان
عبد السلام الرياني	الريانية
أبو القاسم الكاباوي	الجبل الغربي
حميدة صالح محمد المجبري	مجابرة ـ نالوت
خليفة عمر محمد	مجابرة ـ نالوت
عبد السلام عروس	ساحل
الفقي حسن	الساحل
حسن الريح	الختنة ـ النواحي الأربع
عيسى بن زكريا الباروني	الجبل الغربي ـ كاباو
يحيى الطمزيني	الجبل الغربي
إبراهيم بن رمضان	الجبل الغربي
عبد السلام التركي	(الساحل الأحامد)
الهادي القماطي	

هذه بضعة أسماء من خريجي مدرسة مصراتة العسكرية التي استمرت من 1916 م إلى 1922 م وهي جزء من تاريخ التعليم كما هي جزء من تاريخ الكفاح المشرف لهذه الأمة المجاهدة.

الصحافة الإيطالية تتحدث عن احتلال مصراتة:

نشرت جريدة «إيطاليا الجديدة» تلك الوريقة التي كانت تصدرها قوات الاحتلال الإيطالي بطرابلس بثلاث لغات: الإيطالية ـ العربية ـ والعبرية.

جاء في عددها الصادر في 28 فبراير 1923 تحت عنوان:

احتلال مصراتة

«احتلت طلائع من عساكر الكولونيل «بيزاري» وأغلبها مؤلفة من عساكر تحت قيادة الكولونيل «روجاري» الساعة الخامسة والنصف بعد ظهر أول أمس مدينة مصراتة بعدما انتصرت على مقاومة منظمي العصاة الذين دافعوا عنها سدى، وساعدت في نجاح هذه الأعمال العساكر المرابطة في مرسى «مصراتة» التي اتخذت من عساكر الكولونيل «روجاري» بحركة معجبة وباهرة، بعدما احتلت الآكام التي على الشطوط واستولت على المساكن التي في «الزروق».

وفي عددها الصادر في 1 مارس 1923م، نشرت وريقة الاستعمار تحت عنوان:

تفاصيل عن احتلال «مصراتة».
من مكاتبنا الخصوصي.
مدينة مصراتة 26.

إن مصراتة قد عادت تحت سلطاتنا وهي لنا، فذلك الدور العجيب للأعمال المجيدة، الذي فكره بمهارة وإرادة بحزم وعزيمة صاحب الدولة الكونت «وولبي» وباشر به الكولونيل المقدام «بيزاري» يوم 26 مايو 1922م.

باستيلائه الباهر على مرسى مصراتة لقد تم اليوم بالظفر والانتصار باحتلاله مدينة مصراتة.

وهي في قبضتنا عاصمة تلك الجمهورية الطرابلسية التي تلألأت عليها برهة من الزمن نجمة سعد خيالي. غابت اليوم إلى الأبد، بين لمعان نار وإهراق دم وموت أحمر، وعلى ذلك القصر نفسه من حيث ألقيت لمدة ثمان سنوات

التهجمات والسب والشتم والإهانات ضد شرف إيطاليا، وهيبتها واعتبارها، يخفق من اليوم بعظمة عالياً وحياً ومنوراً بأشعة الشمس الساطعة علمنا - المثلث الألوان - بين حماسة وتهليلات عساكرنا الأبطال، الذين جددوا في هذه البلاد مجد رومة الأبية، فإن العدو الذي افتخر إلى الأمس لأوهاتنا ومصائبنا بعد أن دافع دفاعاً شديداً وعنيفاً عن كل موقع من مواقعه، وبعد انكساراته الأخيرة الدموية، في رأس القطارة - ووادي الكعام - وإلى الآن هارباً ذليلاً ومخذولاً، وقد اعتراه الكد وألهم له اليأس، ليجد له ملجأ أميناً في مكان بعيد.

وهو يسوق في البراري الخالية موكباً لا ينقطع من الأهالي الأبرياء الذين يقاسون البرد من دون سقف يأوون تحته ومن غير كسرة خبز يسدون بها جوعهم.

وقد استأصلهم رؤسائهم بالعنف والقساوة من مواطنهم وأراضيهم، وأما مدينة مصراتة، ولو أن ديارها وساحاتها أضحت خلوية من سكانها الذين هجروها مسخرين، فشرعت تخفق كأنها جزء من إيطاليا وطننا العزيز، ويرن فيها صدى هتافنا الشديد تحيا إيطاليا.

ج. ب. كوستا

* * *

ولقد ذهبت عهود الاستعمار وأكاذيبه وصحافته الصفراء وبقيت ليبيا العربية الحرة المستقلة.

ملاحظتان

● في هذا الكتاب، وأثناء استعراض حركات المقاومة والنضال وردت كثيراً كلمة ـ حبش ـ (أحباش) وذلك أن الاستعمار الإيطالي الغابر كان يجند الأحباش لضرب المقاومة الوطنية، ثم أخذ الاستعمار الإيطالي يجند بالإكراه ويسوق طوابير الرجال من ليبيا لفتح الحبشة قائلاً: خذوا ثأركم!.

هكذا صنع الاستعمار مع شعوب إفريقية.

لم تكن هذه إرادة شعب الحبشة.

ولا إرادة شعب ليبيا.

واليوم تحررت إفريقية، وتقف صفاً واحداً ضد الاستعمار.

وليبيا الحرة المستقلة.

والحبشة والصومال وأرتيريا الأحرار يعملون جميعاً في مؤتمر القمة الإفريقي ضد الاستعمار.

وهكذا تقف ليبيا والحبشة في ميدان التحرر والنضال في وجه الاستعمار الذي لن يعود إلى أرضنا، وسيذهب الاستعمار من كل أرض.

* * *

● لم يكن استشهاد البطل «محمد سعدون» عام 1923م نهاية شوط النضال.

بل هناك حركات مقاومة وجهاد في فزان وبرقة والجبل الأخضر.

هناك بطولات أحمد سيف النصر، والشهداء الأبرار: عبد الله البوسيفي، وعمر المختار، ويوسف بورحيل، وبطولات عديدة من صفوف هذا الشعب المناضل.

ونرجو أن نفرد لهذه البطولات حلقات ودراسات أخرى حتى نؤدي بعضاً من الواجب لتاريخ نضال هذا الشعب العزيز.

على مصطفى المصراتى

مصطلحات وعبارات

كلمة	معناها
فوشيك	رصاص
جبخانة	ذخيرة وأسلحة
الطبل	ما يضرب للنفير
رباط	حزن المرأة أيام العدة
قومندان	رئيس
مأذونية	إجازة وتسريح
البريح	النداء العام
لهيد	مشوار ـ شوط
قرابيل	نوع من الأسلحة
اللرياط	طابور التدريب
طوبجية	مدفعية
حلاط	سير وحزام
بوسته	نوع من البنادق ست طلقات
بوصوّانة	نوع من البنادق ست طلقات
أم حريبة	نوع من البنادق ست طلقات

كلمة	معناها
باندة	مرتزقة كان يسيرهم الاستعمار مقابل المال
كردون	سور
برزان	صوت البوق في المعسكر
القانون الأساسي	ما صدر عام 1919.
بي	لقب: بك
عام الحلو	عام المجاعة
بلوك	طابور
فارينة	دقيق طعام
خلالة	آلة للنسج
قرداش	آلة لنقش الصوف
صابة	رخاء وازدهار



الفهـــرس

كتب للمؤلف

1 ـ **أعلام من طرابلس**، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان.
2 ـ **لمحات أدبية عن ليبيا**، المطبعة الحكومية ـ طرابلس 1956.
3 ـ **إبراهيم الأسطى عمر، شاعر من ليبيا**، دار الكشاف ـ بيروت 1957.
4 ـ **جحا في ليبيا**، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان 1985 م.
5 ـ **صحافة ليبيا في نصف قرن**، دار الكشاف ـ بيروت 1960.
6 ـ **غومة فارس الصحراء**، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان 1985 م.
7 ـ **أبو قشة وجريدته في طرابلس**، مطبعة الغندور ـ بيروت 1961.
8 ـ **المجتمع الليبي من خلال أمثاله الشعبية**، المكتب التجاري ـ بيروت 1962.
9 ـ **مرسال ـ مجموعة قصص** ـ المكتب التجاري ـ بيروت 1963.
10 ـ **أحمد الشارف ـ ديوان ودراسة**، المكتب التجاري ـ بيروت 1963.
11 ـ **ابن حمديس الصقلي ـ اقرأ** ـ دار المعارف ـ القاهرة 1963.
12 ـ **نفحات النسرين والريحان في تراجم من كان بطرابلس من الأعيان لأحمد النائب** ـ تحقيق ودراسة، المكتب التجاري ـ بيروت 1963.
13 ـ **الشراع الممزق ـ قصص** ـ دار الكتاب العربي ـ القاهرة 1963.
14 ـ **حفنة من رماد ـ مجموعة قصص** ـ مطبعة الغندور ـ بيروت 1964.
15 ـ **أسد بن الفرات**، فاتح صقلية.
16 ـ **سعدون**، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان 1985 م.
17 ـ **رحلة الحشائشي إلى ليبيا**، تحقيق ودراسة، دار لبنان ـ بيروت 1965.

18 ـ **ديوان مصطفى بن ذكرى**، تحقيق ودراسة، دار لبنان ـ بيروت 1966.
19 ـ **مجمع الجهلة**، بيروت 1972.
20 ـ **فنون الأدب الشعبي في ليبيا**، المطبعة الحكومية ـ طرابلس 1966.
21 ـ **ابن غلبون**، المطبعة الحكومية ـ طرابلس 1968.
22 ـ **ديوان أحمد البهلول** ـ تحقيق ودراسة، دار لبنان ـ 1967.
23 ـ **الصلات بين ليبيا وتركيا التاريخية والاجتماعية**، المطبعة الحكومية ـ طرابلس 1966.
24 ـ **مؤرخون من ليبيا**، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان 1977.
25 ـ **رسائل القلييي بين تونس وطرابلس**، الدار العربية للكتاب ـ 1976.
26 ـ **جمال الدين الميلادي**، مطابع الثورة العربية ـ طرابلس 1977.
27 ـ **الشمس والغربال** ـ مجموعة قصص ـ مطابع الدجوي ـ القاهرة 1977.
28 ـ **نماذج في الظل**، مطابع الثورة العربية ـ طرابلس 1978.
29 ـ **التعابير الشعبية الليبية دلالات نفسية واجتماعية**، مطابع الثورة العربية ـ طرابلس 1982.
30 ـ **خمسون قصة**، المنشأة العامة للنشر والتوزيع 1983 م.